جزيرة العرب

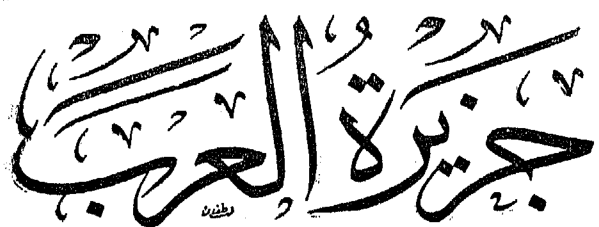


جان جاك بيري

جزيرة العرب

150

جان جاك بيربي

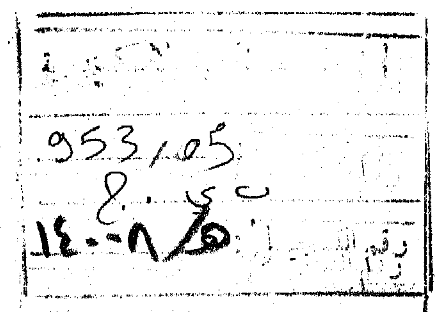


جزيرة العرب

تعريب

نجدة هاجر
دبلوم في العلوم السياسية

سعيد الغز
مجاز في الجغرافيا



منشورات
المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر - بيروت

الطبعة الأولى
بيروت، حزايرن ١٩٦٠

توطئة

منذ بضعة اشهر عربنا للكاتب السياسي الفرنسي جـان جاك بيربي المتخصص في الشؤون العربية والاستاذ المحاضر في معهد الدراسات العليا للادارة الاسلامية كتاباً يحمل اسم « الخليج العربي » وها نحن نقدم الآن كتاباً آخر للمؤلف نفسه هو كتاب « الجزيرة العربية »

ان هذين الكتابين الفرنسيين عن الشرق العربي ليسا وحيـدين من نوعهما بل هما قطرتان من غيث منهمر . وازاء هذا الفيض الزاخر الذي يتدفق من مطابع الغرب لا بد للقارىء العربي من ان يتساءل عن سر هذا الاهتمام البالغ الذي يُبديه كتّاب الدول الغربية وعلماؤها ، بقضايا الشرق عامة والشؤون العربية خاصة كما ان عليه ايضاً ان يتساءل اذا كان من المصلحة القومية ان يطلع على كل ما تحتويه هذه الكتب من آراء ومعلومات ...؟

منذ حملة السويس الفاشلة شعر عقلاء الغرب ان الأساليب التي درج عليها ساستهم قد عادت على شعوبهم بالشر الوبيل كما لحظوا ايضاً ان جهلاً مطبقاً لاوضاع البلاد العربية يخيم على عقول المواطنين عندهم ؟ ولو ان العلاقة بين اوروبا الغربية والمشرق العربي غير ذات اهمية بالنسبة

لهم لهان الامر . ولكن الازمة التي حلت بالصناعة الاوروبية عندما توقف البترول العربي عن السيلان بعد نسف الانابيب في تشرين الثاني سنة ١٩٥٦ ، وتعطيل قناة السويس ، أفهمت كل اوروبي مهما كان مستوى ثقافته مدى ارتباط الاقتصاد الغربي بصحراء العرب حيث يكمن القسم الاكبر من احتياطي البترول في العالم . بسبب ذلك كله بادر كتاب الغرب لا سيما المتخصصون في العلوم السياسية والاقتصادية والتاريخية الى احوال البلاد العربية يشرحونها في دراسات موضوعية لاخوانهم المواطنين كي يبنوا جسراً متيناً للتعاون الحق بين الشعوب .

ونحن العرب لا يمكننا مطلقاً ان نبقى في مغزل عما ينشر ويكتب عنا بعد ان احتلت القومية العربية مكاناً مرموقاً في المحافل الدولية ،وان تعذّر علينا ان نُرسي علاقاتنا بالامم والشعوب على قواعد متينة . كما ان هذه المؤلفات بما تحويه من تحليلات منطقية واحصاءات دقيقة هي غذاء فكري لنا لا يعوّض قل مثيله بين الكتب الصادرة باللغة العربية اصلاً .

لذلك وجب على رجال الفكر العربي الذين تيسر لهم الوقوف على تيارات الفكر الغربي ان ينقلوا الى اخوانهم العرب الكتب والمؤلفات التي يدبجها رجال الاختصاص عن ديارهم كي يوسعوا ثقافتهم القومية ، مع العلم بان الاختيار في هذا المضمار عمل من الصعوبة بمكان . وهنا يجب ان يلعب الضميرُ القومي لدى المترجم دوره كي يصون مصلحة أمته التي اليها ينتسب ويوفق بين ذلك والامانة العلمية التي تفرض ابقاء النص على ما هو عليه دون تحريف .

وعملاً بهذا النهج نقلنا كتاب « الخليج العربي » الى العربية ، وألحقناه بهذا الكتاب الثاني « الجزيرة العربية » .

قد يظن بعض القراء العرب ان لديهم ما يكفي من المعلومات عن القسمين الجنوبي والشرقي من الجزيرة العربية حيث يكافح اخوان لنا في العروبة ضد الاستعمار في عدن وحضرموت ومسقط وعمان والبحرين

والخليج :. ونحن لا نبخس اي امرىء معلوماته : وانما نطلب منهم غير مأمورين ان يقرأوا ما كتبه جان جاك بيربي عن هـــذه المناطق المقفلة التي عزلتها القوى الاستعمارية عن شقيقاتها العربيات وعندئذ سيدركون سعة الآفاق التي يفتحها هذا الكتاب امام عيونهم :

ان كتاب « الجزيرة العربية » دراسة تحليلية شاملة لماضي هـــذه الديار وواقعها مدعومة بالمستندات التاريخية والبيانات الاحصائية . والمؤلف فيها لم يترك شاردة ولا واردة . وقد انتقل بنا بعد اعطائنا فكرة سليمة عن طبيعة هذه الارض من المملكة العربية السعودية، التي شهدت ولادتها بعد الحركة الوهابية الى اليمن العربية السعيدة يمن مأرب وسبأ الــتي تتنازع اليوم على الحدود مع البريطانيين الذين نزلوا عنوة وغصباً في عدن ، ومن ثم الى حضرموت والمحمية الشرقية ، الى مسقط وعُمان حيث يواجه المناضلون الاباةُ في الجبل الاخضر قوى الاستعمار الذي يريد ان يذلهم ويستعبدهم . واخيراً يحطُّ رحاله في الكويت الاسطورية التي سلبت عقول المراقبين بانقلابها السريع . وهنا لم يداور المؤلف ولم يراوغ بل اوضح كم يستفيد الغرب لاسيما بريطانيا من خيرات الكويت الدافئة ، مؤكداً ان الانفصال الاقتصادي بين الامارة الغنية والمملكة المتحدة اذا حصل يهدد الكيان البريطاني في الصميم .

ونحن الذين عربنا هذا الكتاب القيم نعتقد ان الواجب القومي يفرض على كل عربي اياً كان مستوى ثقافته والى اي بلد انتسب ان يقرأ بامعان وروية فكر ، ما جاد به جان جاك بيربي كي يحصل على احدث صورة لاوضاع الجزيرة العربية التي تملك من القوى الروحية المنبثقة عن الاسلام والامكانات العـــادية المنبجسة من احواض البترول معيناً لا ينضب .

ومتى فعل ذلك عرف المستقبل السعيد الذي ينتظر بلاده في معارج التقدم وأيقن ان السواعد البناءة في أمته لا بد من ان تهدم بمعاولهـــا

حصون الإستعمار الباغي والرجعية الذميمة والتخلف البغيض »
فلنقرأ كتاب « الجزيرة الغربية » ؟
ولنتذكر دوماً ان لليل الاسود المديد نهاية
وان الصبح ليس ببعيد

في ١١-٤-٦٠ المعربان

تقديم

بقلم : بيار روندو

منذ امد بعيــد والجزيرة العربية تدغدغ مخيلة الغرب : منذ الوقت الذي قدّم فيه الملوك المجوس هداياهم حتى الوقت الذي اخذت فيه الناقلات الضخمة تعبّ البترول ، منذ ولادة الاسلام حتى التطور المذهل العجيب للمملكة العربية السعودية ، والجزيرة العربية تبدو امام ناظرينا بلاد السراب : لقد احببنا ان نعيرها في نطاق الفكر والثروات والسلطان الموارد الوهمية المحيّرة : وفي مناظرها الجليلة التى تضفيها الاحجــار والرمال ، تتتابع في عصرنا الحاضر صورٌ محاطة بهالات من القوة والغموض ، صور امثال لورانس وابن سعود وفيلبي واوناسيس :

ولسنا نعني بالسراب أحداث السنوات الاخيرة : ان الاشهر المــاضية القريبة تشهد بذلك والجزيرة العربية اليوم ، في نطاق البترول ، تعتبر احدى المناطق الرئيسية التي تزوّد اوروبا بحاجاتها من هذه المادة الهامة ؛ ولذلك تعلّق الدولة في سياستها على هذه البلاد الصحراوية في اغلبها ، اهمية متزايدة ، والاعتبارات الستراتيجية ليست دائماً غريبة عن هــذا الاهتمام المقلق : وتسبغ النزاعات حول واحة البريمي ، وفي جبال عمان ، وعلى حدود محميات عدن ، تلك البقاع النائية اهمية خاصة تتخطى بكثير

المظهر الباهت للصراع . واخيراً كان اسهام الملك سعود في المشروعات الاميركية لتطوير الشرق الأوسط ، عملاً لفت الانظار في المحافل الدبلوماسية الى الدور الذي يمكن ان تقوم به دول الجزيرة العربية على الرغم من تركيبها القديم ، تركيب القرون الوسطى ، بين الدول الحديثة .

ان هذه العوامل المعقّدة كلّها تستأثر ولا شك بانتباه الرأي العام الفرنسي ، ولكن شؤون الشرق عامة هي في اذهان الفرنسيين رواية خيالية غريبة اكثر منها موضوع علمي للبحث الدقيق. لقد كانت قضايا الجزيرة العربية في المدة الاخيرة موضوعاً للبحث والنشر المزدهي بالالوان في الصحف والمجلات . ولكن ذلك كله ليس بداية للعمل الذي من شأنه ان يسهل المعرفة الدقيقة الكاملة لهذه القضايا وما يكمن وراءها . ان نقصاً كهذا يزداد وضوحاً عندما نعلم بأن الاقتصاد الفرنسي ، وحياة فرنسا نفسها ، مرتبطان الى حد بعيد بالعالم العربي. ويكفي ان نذكر ، للتدليل على ذلك ، حاجة فرنسا الماسة الى بترول العرب . وعلى الرأي العام الفرنسي منذ الآن كي لا يتعرض الى مفاجآت مؤلمة ان يُعير اهتماماً خاصاً رصيناً لقضايا هذه المنطقة من العالم .

وهذا الكتاب الذي يضعه السيد بيربي بين ايدينا اليوم يتيح لنا ذلك . إنه يشكل ، في الواقع ، اول دراسة موضوعية كاملة باللغة الفرنسية عن مجموعة القضايا المطروحة في الجزيرة العربية . انه يقدّم الى الجمهور الفرنسي ، العنصر الرئيسي اي المستندات التي كانت تنقصه حتى اليوم ، وهذا النقص كان يبرّر الى حد ما ، كما يجب ان نعترف ، الصفة العفوية الخفيفة ، او الخفيفة فقط ، لردود الفعل الفرنسية على المشاكل التي كان من العسير على الفرنسي في خضم المصالح البترولية ان يرى اسسها ودوافعها الحقيقية .

اننا نغتبط اذن ، عندما نلاحظ ان ثغرة قد سُدّت . والسيد بيربي الذي وقف نفسه منذ عدة سنوات على التحري العميق عن جذور القضايا

في الجزيرة العربية ، يستحق اعترافنا الكامل بجميله لا سيما وانه قد تحدث بكثير من العلم والعناية والموضوعية والنزاهة ، عن هذا القطاع الذي كنا ولا نزال نعلم عنه الشيء الضئيل . قليلة هي المؤلفات التي يمكنها ان تأتي في وقتها المناسب ، بمثل هذه الدقة ، وتُعرَضُ ، ليس فقط على الاختصاصيين في شؤون العالم العربي بل على كل مراقبي السياسة الخارجية ، والمعنيين بالاقتصاد والاعمال الكبرى ، وبصورة ابسط على جميع الفرنسيين الذين يشغلهم مصير الوطن ومصالحه الحقة .

بيار روندو

مدير مركز الدراسات العليا للادارة الاسلامية

مقدّمة

ان بترول الجزيرة العربية يدير محركاتنا ويدفّيء بيوتنا ، والاسلام الذي وُلد في الجزيرة الكبرى يشكل عنصراً فائق الاهمية في سياستنا الوطنية والدولية ، والعروبة التي أخذت اسمها من هذا المكان تُعتبر سبباً لعدد كبير من مشاغلنا ومشاكلنا . ومع ذلك فأننا ما زلنا بعيدين عن شؤون الجزيرة العربية كأنّها لا تخصنا بشيء .

وبعد البحث الطويل عن المستندات المتعلّقة بالجزيرة العربية ، انتهيتُ الى كتابة هذا المؤلف . منذ بضع سنوات ، وانا الاحظ ان عبارة « شبه الجزيرة العربية » يتبعها حتماً كلمة « بترول » . والى هذا التوارد الذي لا بدّ منه يجب ان تُضافَ صورةُ البدوي القاسي ، الرحالة الذي لا يتعب بين الرمال ، او المحارب الشجاع ذي العيون السود .

تحتلّ الجزيرة الغربية بمساحاتها الشاسعة الصحراوية ، وسكانها الفريدين حملة الحضارات الكبرى ، ملايين الكيلومترات المربعة ، حيث يجدُ الانسان نفسه وجهاً لوجه امام الطبيعة القاسية التي لا مثيل لها . وهذا الخزان الكبير للقبائل البدوية ، الذي مزّقته الطرقات وخطوط انابيب البترول ، يتحوّل عن المصير الذي أعدّه له ماضيه . اذ ان البلاد قد أصابتها عدوى حضارية ستقضي في ظرف سنوات على طرق الحياة

العريقة : واهم ما يلفت الانظار في عصرنا الحاضر ، هذا الزوال المتزايد للحياة البدوية التي انبثقت بصورة غريبة من اعماق العصور السحيقة وعايشتها ثم انهارت امام الرونق والبهاء اللذين يرافقان الحضارة الصناعية والتكنولوجيا الحديثة .

ان الانسان الحديث الذي تركز نهائياً في بيئة معينة يتطلع بعين الحسد الى البدو القدماء ؛ وهو كمواطن ثابت يحذرهم لأنه ليس لهم روابط مادية واملاك ثابتة غير منقولة ، ولا اوراق تثبت هوياتهم وعناوينهم ، التي بفضلها يستطيع رجل الشرطة او الجاني ان يهتدي اليهم دائماً . ومع ذلك يجب ان لا يتبادر الى الاذهان ان حياة البداوة لا قواعد لها ولا قوانين . ان اي عالم من علماء الاجتماع يعرف تلك القواعد غير المكتوبة . وهي صارمة جداً : وكل من يخرج عنها من البدو عقابه النفي خارج العشيرة ، والعيش مع الحيوانات او الموت في الصحراء.

ان الجزيرة العربية صحراوية في اكثرها ، وزاوية ضيقة منها كثيفة السكان هي التي صدرت موجات من سكانها الى الشرق الاوسط حتى الى المغرب . انها العربية السعيدة فيما مضى او اليمن اليوم ، بلد الجبال الخضراء والسكان المتحضرين حيث سادت ملكة سبأ . وقد بقيت سراً يكتنفها الغموض . هناك سكان جبليون قليلو الثرثرة ، كان جدودهم قد علّموا العالم الجبر ومزايا القهوة ، وهم يحوّلون بجهد دائب شكل الارض ليسحبوا منها ما يسدّ رمقهم ؛ وقد لقنتهم عزلتهم وصراعهم المستمر ضد الغزاة في تاريخهم الحافل الصمت والحذر . ان «سويسريي» الجزيرة العربية هؤلاء على اتم الاستعداد دائماً لحمل بندقية قديمة وتحطيم رأس اي اجنبي اقلقهم دخوله المريب . ان حذرهم ليس له ما يوازيه سوى روح الضيافة عندهم ، وصلابتهم لا يدانيها سوى تجردهم . لقد نسيهم التاريخ ، وما زالوا كذلك كأنهم ليسوا من ابناء هذا العصر ؛ ان المدنية الحديثة لا تريد كما يظهر ان يبقى في ارض سكان بدون

آلات ، ينامون بدون خوف على بترولهم غير المستغـل ، لذلك قفزت فرحاً فوق اسوار المملكة اليمنية العريقة الضائعة بين جبالهـا ، لتحمل لها بقوة الاكراه والاغواء دولارات وسيارات ، مع الاطباء والخبز اليومي .

كل شيء قد تغير اذن في الجزيرة العربية بطريقة اسرع احياناً من قدرتنا على الادراك . وقد ذكر هاري سان جون فيلبي ، الخبير الكبير في شؤون الجزيرة العربية : « ان الجزيرة العربية الصحراوية قد تغيرت تماماً خلال الاربعين سنة الاخيرة التي عرفتها فيها ، بل أقول في العشر أو الخمس عشرة سنة الاخيرة » . وأنا في كتابي هـذا وددت أن أعطي ، صورة لهـذه الجزيرة العربية الجديدة ، وكـان يجب أن يحمل اسم « العربية الجديدة » ولكن هذه « الجدّة » عابرة ، وهي ليست سوى موجة من موجات بحر « الابدية » وخير أن يبقى اسمه كما وضعته لانه اثبت في وجه الزمن . وأنا اذا حاولت أن أدون أحداث هذه الفترة القصيرة من التاريخ البالغة الاهمية بالنسبة لنا لاننا نحياها ، كان عليّ أن أحذر ، باستمرار ، خطرين هما : الانزلاق وراء الغريب ، وذكرُ أحداث مشكوك في صحتها على العموم .

وبين الاسلوب الروائي ، والسرد الجاف للاحداث ، التزمت الحد الوسط ولم يكن من السهل العثور عليه ، وأنـا لا أدعي أنني عثرت عليه ولكنني حاولت .

ان الحاضر الرجراج ليس صالحاً لعمل هادىء يقصد به النفع . لقد أردت أن أعرض مؤلفاً متجاوباً مع الحاضر على قدر الامكان وفضلت ألا أستخدم معلومات مشبوهة . وعلى الرغم من الأبحاث والتنقيبـات الطويلة والتحريات والتدقيق في المعلومات المجموعة ، لا أزهو ولا أعتد اعتداداً فارغاً بل اعتقد أن هذا المؤلف لم يخلُ من الهنات والأخطاء . ولكنني أتمنى مع ذلك أن يكون في مستوى الجهود المتعددة والمساعدات

التي بذلت من أجله .

أود أن أختم هذه المقدمة بأن أعبر عن امتناني وشكري لجميع أولئك الذين ساعدوني وزودوني بالمعلومات منذ سنوات عديدة ، وبصورة خاصة أولئك الذين شجعوني منذ البدء في دراساتي عن بلدان الشرق الأوسط . ولحسن حظي انهم كثر ولا يمكن تسميتهم كلهم . ولذلك لن أسمي أحداً . بل اكتفي بالاشارة الى اعترافي بالفضل لمركز الدراسات العليا للادارة الاسلامية ، ومركز الدراسات السياسية الخارجية ، وجميع هيئات الأبحاث الفرنسية .

لدى كتابتي هذا المؤلف ، فكرت مراراً متعددة في صديقي بيار ب . محافظ مدينة الجزائر ، اذ لولاه ، ربما لم يخرج هذا الكتاب الى حيز الوجود . فالى جميع أولئك الذين يعتقدون بمستقبل أفضل للعلاقات الفرنسية – الاسلامية ، أهدي عملي آملاً الا تهدم السياسة ما يبنيه المفكرون يوماً بعد يوم .

جان جاك بيربي

القسم الأول

القارة العربية

١

افريقيا الآسيوية

في أقصى الغرب من آسية ، تستحق الوحدة الجغرافية الواضحة التي تشكلها الجزيرة العربية أن نسميها « قارة » انها شبيهة بالمنحرف ، تحيط بها المياه من ثلاث جهات . في الغرب ، يفصلها البحر الأحمر عن افريقية التي لا تزال تربطها بها وليدتها شبه جزيرة سيناء . وخليج عدن ، والمحيط الهندي يغسلان شواطئها الجنوبية . ومن الشرق يحدها الخليج العربي وخليج عمان . ان حدودها الشمالية فقط برية وهي مبهمة وموضع خلاف . تضيع هذه الحدود في صحارى سوريا والعراق.

ووفقاً لما هو متفق عليه عامة تزيد مساحة الجزيرة العربية على ثلاثة ملايين كيلومتر مربع . والقسم الأكبر من هذه المساحة الشاسعة صحراوي الا اننا نجد فيها مساحات موضعية بالغة الخصب . والتقسيم القديم المعروف للجزيرة العربية الذي يجزئها الى أقسام صخرية وصحراوية وسعيدة يجد له ما يبرره على الرغم من أن الجزيرة العربية لا تحوي الا القسمين الأخيرين .

المناطق الطبيعية

من الأوصاف الآسيوية لا تملك الجزيرة العربية سوى الاسم الذي أطلقه عليها الجغرافيون الغافلون . وليس هناك شك في أن هذا القسم من افريقية قد انفصل عن القارة في حقبة جيولوجية حديثة نسبياً . وشبه جزيرة سيناء مع انها مرتبطة سياسياً بمصر ، فهي تشكل جزءاً من هذا التكوين نفسه . وهذا الكيان الجغرافي الذي يتمتع أيضاً بوحدة عنصرية ولغوية ودينية وثقافية يجعل الجزيرة العربية ذات صلة وثيقة بأجزاء افريقية الشرقية التي تقابلها . والشبه الكبير بين الظواهر الطبيعية والمناخية والانسانية والاجتماعية في الجزيرة الصحراوية ومثيلتها في الصحراء الافريقية وبين الجزيرة العربية السعيدة والحبشة يدفعنا الى تسمية هذه المنطقة : « افريقيا الآسيوية » وحفرة البحر الاحمر الكبيرة التي تفصل القارة الافريقية عن طرفها الاسيوي تقسم الصحراء الى قسمين كما يفعل وادي النيل :

وتميل الهضبة العربية الضخمة الى الانحدار من الغرب الى الشرق .

وقد نتج عن التشقق في الركيزة الصخرية الغربية ارتفاع جبلي يمتد من الشمال الى الجنوب على طول البحر الاحمر . وهذه السلسلة الجبلية التي ترتفع في الجنوب تترك امامها مكاناً لسهل ساحلي منخفض ، ضيق هو سهل تهامة الذي نادراً ما يتجاوز خمسين كيلو متراً عرضاً ووراءه ترتفع جبال سوداء جرداء ، انها جبال الحجاز التي تخترقها ممرات قليلة تربط بين الساحل والداخل . واذا ما توجهنا جنوباً نحو خليج عدن وجدنا الصخر البركاني قد بدأت تدب فيه الحياة . ففي عسير واليمن بصورة خاصة ، تهطل الامطار بغزارة مما يجعل هذا الطرف الجنوبي الغربي من الجزيرة العربية بلاداً خضراء تحدثت عن خصبها الروايات

والاساطير : ان تنوّع المناخات والاراضي المتراصة المنضدة على غرار المكسيك يتيح التنوع في المزروعات ، ما بين نباتات استوائية ومدارية الى اثمار وخضار المناخات المعتدلة الاوروبية .

على طول خليج عدن والمحيط الهندي ، نجد السهل الساحلي اضيق مما عليه في تهامة على البحر الأحمر . وهو في اقصى الغرب يحاذي المرتفعات الجبلية اليمنية . والى الشرق في حضرموت وعمان يجاوز هضبات كلسية عالية كثيرة التشقق يقوم امامها عادة تلال مكسوة بالغابات : وفي الجنوب الشرقي من الجزيرة العربية ، ترتفع من جديد سلسلة جبلية على طول خليج عمان وراء ساحل خصب نسبياً . وعلى طول الخليج الغربي اخيراً : تمتد المساحات الشاسعة من الرمال والمستنقعات المالحة التي تحتوي في جوفها كما تعلم كميات هائلة من البترول :

أما داخل الجزيرة العربية فهو صحراوي على العموم – صحراوي رملي أو صحراوي حجري : وهناك يلحظ المرء بعض الآثار التي تحمل على الظن ان صحراء العرب نفسها قد عرفت في الماضي السحيق خصباً « نسبياً » . ولا ريب انها منذ مدة طويلة ، او منذ فجر التاريخ لا تصلح للحياة الحضرية الا في الواحات المتعددة المنتشرة في الاحساء ونجد والحجاز . في هذا الاقليم الاخير الفريد بمركزه على طريق القوافل الكبرى ، ولدت المدن الاولى في العربية الوسطى ، وقد كانت هذه في البدء واحات مزدهرة ومحطات تجارية . فجاء الرسول يُعطيها شهرة لا تدانيها شهرة واهمها المدينة المنورة (يثرب) ومكة المكرمة :

وآخر المنحدرات الجبلية في اليمن وعمان ، في الغرب كما في الشرق وكذلك منحدرات الهضاب الكلسية العالية (الجلول) في حضرموت والمهرا ، تضيع كلها في الصحراء الفسيحة غير المحدودة التي تغطي القسم الاكبر من جنوب الجزيرة العربية . وهذه الصحراء بمساحتها الشاسعة لا ماء فيها ولا نبات ولا حياة : وتُدعى في الجنوب الربع

الخالي الذي يشكل بمساحته التي تزيد على المليون كيلومتر مربع ، اكثر المناطق غموضاً واضخم المساحات الرملية اتساعاً في العالم ، وفي الشمال تسمى النفوذ الكبرى وهي صحراء رملية ايضاً تتصل بصحراء سورية ويصل النفوذ الكبرى بالربع الخالي لسانان رمليان متجهان ، هما : النفوذ الصغرى في الغرب والدهناء في الشرق . وهما يحتضنان هضاب نجد ، هذا القلب الصخري للقارة العربية .

وتذكر هذه المسافات الشاسعة من الرمال الحمراء او الحجارة الغبراء — ما عدا الجبال المعتدلة في اليمن وعمان — بالصحراء الافريقية ، هنا وهناك نفس المناظر الطبيعية ونفس الخصائص البشرية. ويذهب التشابه الى أبعد من ذلك بكثير احياناً — التركيب الجيولوجي متقارب بل متماثل :

منذ ابحاث العالم الجيولوجي الاميركي ك. س. تويتشل ، نعلم بان الثلثين الشرقيين من القارة العربية يتألفان من صخور رسوبية لا بد ان تحوي مخزوناً هائلاً من البترول ، وقد اكتشفت كميات كبرى من السائل الثمين منذ سنوات وبدأ استثمارها بصورة خاصة في كل من الاحساء والكويت وقطر والبحرين . وفي اماكن اخرى من الجزيرة اعطى التنقيب المتواصل بنشاط منذ عدة سنوات بعض النتائج المشجعة : وفي عام ١٩٥٨ تأكد لدينا ان اكثر من نصف الاحتياطي العالمي للبترول موجود في جوف الجزيرة العربية . ومع آبار ايران والعراق ترتفع النسبة الى ٦٥ او ٧٠ ٪ من احتياطي العالم :

مهد العرب والاسلام

يسكن السطح القاحل للجزيرة العربية عدد يتراوح بين عشرة واثني عشر مليون نسمة اكثر من نصفهم يتجمعون في « الجمهورية السعيدة القديمة » (عسير واليمن وجزء من محمية عدن) : وعلى الرغم من ان

هؤلاء العرب من السلالة السامية على الغالب ، فما زال هنـــاك بعض العنـــاصر المحلية في الجنوب حيث تضمّ المنـــاطق الساحلية خليطاً من العناصر :

ويقسم العرب ، الذين عرفوا بدقة النسب ، الى فرعـــين كبيرين يرتبطان بجدين شهيرين هما اسماعيل وقحطان : والفرع الاسماعيلي الذي يتفرع منه مضر وربيعة يقطن شمالي الجزيرة ووسطها :

امـــا القحطانيون فوطنهم الاصلي جنوبي غربي الجزيرة (اليمن وحضرموت) حيث نصادفهم على العموم ومنه نزحوا نحو الشمال .

ان القوة الموحدة الكبرى في الجزيرة العربية هي الدين الاسلامي الذي دعا اليه محمد بن عبدالله (صلعم) في الحجـــاز في القرن السادس الميلادي . وقد تمكن الاسلام عبر العصور من توحيد القبائل التي اتخذت العربية لغة لها : ومع ذلك ما زال هناك لهجات متعددة غريبـــة محلية وخاصة في عمان وحضرموت :

واليوم يبدو الامر خلاف ذلك إذ ان الطوائف كثيرة ومتناقضة : ففي الجنوب والوسط نجد السنّة الشافعيين والمالكيين يقاومون بضراوة ضغط حنبلي نجد دعاة الاصلاح الوهابي . وبالاضافة الى هذه الفرق السنية المتنافرة هناك الشيعة من زيديين واسماعيليين في اليمن ، وخوارج وعبيديين في عمان ، وقرامطة في الاحساء :

لقد كانت الجزيرة العربية مهد الاسلام الذي وحدها : ومع ذلك شهدت ولادة اتجاهين متعارضين في الدين هما الزيدية الشيعية الخاصة باليمن التي تنتمي اليها الطبقة الموجهة والعائلة المالكة ، والوهابية الحركة الاصلاحية التي استوحت الشريعة السنية الحنبلية . وهذا المذهب تفسير صارم للدين الاسلامي ، يتسم بالتزمت ويمنع عن كثير من المحرمات ، وقد انتشر خارج الجزيرة العربية في القرن الثامن عشر ، في الوقت الذي كان اتباعه فيه اقوياء يفرضونه احياناً بقوة السلاح : وهو حالياً

مقتصر على نجد وما زال حتى الآن سلاحاً سياسياً واداة حكم . وبفضل « الاخوان » تمكنت الوهابية من جمع القسم الاكبر من الجزيرة العربية تحت سلطة البيت السعودي . واتباعها الذين يسمون « الموحدين » او يعتبرون انفسهم المسلمين الحقيقيين ، وهم يؤلفون اليوم ايضاً كتائب المؤمنين ، اكبر قوة في المملكة .

التقسيمات السياسية

بسبب الخلافات القديمة القبلية والعائلية والطائفية التي استشرت من جراء ضعف الامبراطورية العثمانية وانحلالها وجدت الجزيرة العربية في القرن العشرين نفسها مقسمة الى عدة كيانات سياسية متنافرة ومتنافسة . ومنطق الحقائق الاقتصادية الذي لا يقاوم – الكامن في اكتشاف البترول – شجع النزعة الاستقلالية الانفصالية ، كما تشهد بذلك الكويت .

وتقسم الجزيرة العربية الآن سياسياً الى مملكتين عربيتين وعدد كبير من السلطنات والامارات والمشيخات تخضع للنفوذ البريطاني المباشر وغير المباشر . اما المملكتان فهما : العربية السعودية ومساحتها نحو مليونين واربعمائة الف كيلو متر مربع ، واليمن ومساحتها تقارب مئة وخمسة وتسعين الف كيلومتر مربع . والقسم الذي سأصفه بـ « البريطاني » للتسهيل يضم عدة وحدات مختلفة النظم هي مستعمرة عدن ومحميات عدن (تضم حضرموت) التي تبلغ مساحتها على الاقل مائتين وتسعين الف كيلو متر مربع . وسلطنة مسقط وعمان بكيلومتراتها المربعة البالغة مائتين وخمسين الفاً وهي مبدئياً مستقلة ، ولكنها عملياً تخضع للحماية البريطانية ، والامارات المختلفة المساحات المسماة « الدول المحمية » على ساحل القراصنة حيث سبعة شيوخ يتقاسمون نحواً من ثمانين الف كيلومتر مربع ،

وشبه جزيرة قطر ومساحتها عشرون الف كيلومتر مربع ، والكويت ومساحتها ثلاثون الف كيلو متر مربع ، وارخبيل البحرين ومساحته خمسمائة وواحد وخمسين كيلومتراً مربعاً .

ولاتمام هذه اللوحة الفسيفائية لا بد من ذكر المنطقتين المحايدتين اللتين أحدثتا بين المملكة السعودية والعراق من جهـــة ، وبينها وبين الكويت من جهة ثانية . وهذان البلدان الاخيران يتقاسمان السيادة على هذه المناطق الخالية من السكان الحضر .

وقرب السواحل القريبة نجد عدداً كبيراً من الجزر المنتشرة من الشرق والغرب ، أهمها في البحر الاحمر جزر فرزان للمملكة العربية السعودية، وقمران وبريم لمستعمرة عـــدن البريطانية ، وفي المحيط الهندي جزيرة سوقطرة التابعة لإحدى سلطنات عدن المستقلة ، وجزر كوريا موريا التابعة للمستعمرة ، وجزيرة مزيراح على شاطىء عُمـــان الجنوبي وفيها قاعدة عسكرية بريطانية ، كانت فيما مضى بالغة الاهمية .

وقبل الوصول الى الحالة الراهنة من التجزئة ، كادَ اميرٌ غامض من أواسط نجد ان يوحّد الجزيرة العربية تحت لوائه : انه عبد العزيز ابن عبد الرحمن آل فيصل آل سعود ، الذي أصبح مشهوراً عالمياً باسم ابن سعود . لقد منعه بعد نظره السياسي من مهاجمة أخصام عنيدين كاليمنيين ، الذين كان في امكانه ان يقهرهم ، ولكنه لم يتمكن من فرض سيطرته عليهم . والنفوذ البريطاني منعه كذلك من ابتلاع امارات الخليج العربي ، وضم قوى المهربين وصيادي اللؤلؤ الى امبراطويته . وفي ظرف ربع قرن ، مع ذلك ، استطاع ابن سعود ان يكوّن لنفسه مملكة مترامية الاطراف ، والمراكز القوية المنيعة وحدها هي التي نجت من قبضته وصمدت أمامـــه . والوضع الحاضر للجزيرة العربية اليوم هو نتيجة ما قام به ابن سعود فيها .

٢

ممالك الحق الالهي

تقوم في الجزيرة العربية مملكتان متفاوتتان من حيث المساحة متفاوتتان من حيث السكان . أولاهما المملكة العربية السعودية التي تشمل ثلاثة أرباع – أو اربعة أخماس كما يقول البعض – مساحة القارة العربية . يحده من الشمال العراق والاردن ، ومن الغرب البحر الاحمر الذي يفصلها عن مصر والسودان والحبشة ، ومن الجنوب اليمن ومحمية عدن البريطانية ، ومن الشرق أخيراً عمان والخليج العربي والامارات المنتشرة عليه والخاضعة كلها للنفوذ البريطاني : وتميل العربية السعودية الى اعطاء اسمها الى الجزيرة العربية بكاملها التي طمحت الى بسط نفوذها عليها .

وبفضل الحجاز ، يبسط سادة العربية السعودية سيطرتهم الروحية على أكثر من اربعمائة مليون مسلم . اذ انـــه خمس مرات في اليوم ، يتجه مئات الملايين من المسلمين نحو مكة المكرمة ليصلّوا الى ربهم وفي كل سنة يؤم الأماكن المقدسة في الحجاز مئات الالوف من المؤمنين ، وقد جاؤوا يؤدون فريضة الحج .

ان سدس البشرية على الاقل يعتبرون مركزهم الديني والروحي في

الحجاز الذي تتآكله أشعة الشمس الوهاجة ، والذي قدسه رسول الدين السماوي الموحد الثالث الاسلام .

واذا كان الساحل الغربي ساحل القدسية فان الشاطىء الشرقي على طول الخليج العربي يمكن تسميته شاطىء البترول . وما ذلك لا لأن الكويت في ظل الحماية البريطانية والاحساء المقاطعة السعودية ، تضمان أغزر حقول البترول في العالم . وفي الاحساء السعودي هذا يوجد أكبر إحتياطي بترولي معروف في داخل بلد واحد . والاكتشافات تتوالى .

ولو صرفنا النظر عما يوجد وراء الحدود يمكن اعتبار المنطقة الواقعة بين شبه جزيرة قطر ورأس الخليج أغنى منطقة بترولية في العالم .

في أقل من عشر سنوات تحولت الاحساء الصحراوية المليئة بالمستنقعات كالكويت الى منطقة صناعية . ان المنظر فيها يتألف اليوم من منشآت بترولية وأنابيب ومحطات ضخ مستودعات تخزين ومصاف . وفي ليل الصحراء الثقيل يتعالى اللهيب البرتقالي من المشاعل المحرقة مع الغازات السامة كأنه نار البنغال الوهمية الغريبة . وحول آبار البترول المستثمرة ، قامت مدنٌ حديثة مزودة بكل الوسائل الحديثة على الطريقة الاميركية . وأخلى رجلُ القوافل البدوي وصديقه العريق الودود الامين الجَمَل المكان للشاحنات والرافعات والدافعات والقاطرات الضخمة التي صُنعت خصيصاً للصحراء ، واقتصر عملها على بعض المهام البسيطة المبهمة . ومحطات القوافل القديمة أصبحت اليوم محطات البنزين وتصليح السيارات . وتعلّم سكان الصحراء البـــدو كيف يستعملون المفتاح الانجليزي لتصريف المنتجات البترولية .

وبين هاتين المقاطعتين المهمتين ايضاً الحجاز المقدس والاحساء البترولي تبسط نجد ، بلد آل سعود ، هضابها الفسيحة الصخرية التي تتخللها الأودية السحيقة الجافة والواحات المتناثرة : انها محددة من الشمال والجنوب بصحارى رملية شاسعة : النفوذ الكبرى والربع الخالي ، ومن الشرق والغرب تنبسط

أمامها تلال الرمال: النفوذ الصغرى والدهناء . هذا البلد المرتفع اذن هو مقر البدو ومنطلقهم في حلهم وترحالهم :

وهنالك مقاطعة رابعة مهمة في هذه الامبراطورية غير المتلاحمة الا وهي عسير ، الواقعة في الجنوب الغربي ، وهي تشابه طبيعياً جارتها اليمن بخصب مرتفعاتها التي تهطل فيها نسبة عالية من الامطار . انها قسم من العربية السعيدة الاسطورية . وتكمل لوحة الفسيفاء السعودية مناطق مختلفة أقل اتساعاً هي ملحقات نجد ، انها على الاخص في الشمال : الجوف والقصير وشمّر ، وفي الجنوب الغربي القسم الاكبر نجران : والصحراء الكبرى في جنوب الجزيرة المعروفة باسم الربع الخالي تُعتبر هي الاخرى في أكثر الاحيان جزءاً من المملكة العربية السعودية :

من هذه المناطق المختلفة ، والقبائل البدوية غير المتلاحمة ، من المدن التجارية والواحات الناشطة، العائشة طوراً في الاستقلال وطوراً في النزاع مع الجيران كوّن عبد العزيز بن سعود الكبير في أقل من ربع قرن مملكة مركزة متلاحمة منيعة : بلى ان المملكة العربية السعودية أكثر من ذلك مدعوة الى لعب دور من الدرجة الاولى في السياسة الدولية ، وقد استجابت لهذه الدعوة على الرغم مما قد يبدو لنا من تأخر مريع في مجالي الاجتماع والاقتصاد :

يقدر عدد سكان المملكة العربية السعودية بخمسة أو ستة ملايين نسمة، أي ما يقارب نصف سكان الجزيرة العربية كلها : ولم يجر فيها أي احصاء رسمي ، ولكن أولي الامر اعتمدوا في تكهنهم على تقدير نسبة البدو بثلث السكان : وهذه الخاصة الاجتماعية هي من أبرز الظواهر الحياتية في هذا البلد وبلدان الجزيرة العربية كلها : وفي الوقت الحاضر ايضاً ، ما زالت المملكة العربية السعودية موطن الارتحال الكبير ، كبعض اجزاء الصحراء الافريقية . ولكن مع ذلك ، يبدو ان الارتحال الكبير

قد كتب لـــه أن يتلاشى ويزول ، وقد هددتـــه الآلة في الصميم . وستكون احدى نتائج حضارة القرن العشرين الصناعية زوال الارتحال الكبير الذي ضعفت قيمته كثيراً . وهذا لا يعني مطلقاً أن التقاليـــد والعادات والاعراف والبداوة ستنقطع عن التأثير في حياة الحضر . انها تمثل حقبة كبيرة جداً من تاريخ هذا الشعب وهذه البلاد .

والى جانب الارتحال الكبير يعتبر الدين ظاهرة اجتماعية مهمة أيضاً في العربية السعودية . اذ أن الملايين الستة في العربية السعودية يدينون كلهم بالمذهب السني ، ما عدا ستين الف قرمطي شيعي في الاحساء . ومن بين المذاهب السنية الاربعة تتمتع الحنبلية مع الحنبلية الجديدة اي وهابيي نجد بالغلبة . فالمذهب السائد هو الشافعي وفي الحجاز المالكي . امـــا المذهب الرابع الحنفي فهو متمثل قليلا في موانىء البحر الاحمر ببضعة آلاف من الافراد جلهم من الاجانب . هذا وتوجد بعض القبائل المتأخرة — كما يلاحظ كثير من المسافرين — ما زال في بعض عاداتها رواسب من الوثنية وخاصة عند الطرف الشمالي من الصحراء الجنوبيـــة الكبرى . وهؤلاء ، مع ذلك مسلمون صادقون ومؤمنون يقولون بوحدانيـــة الله ورسالة محمد السامية .

وبين البدو اجمالاً ، تكونت ، جماعات الاخوان الشهيرة . هـــذه الجمعية الوهابية التي تُعتبر أكثر من حركة دينية . انهـــا تؤلف جيشاً قوياً مخلصاً للملك ، موزعاً على أكثر من مئة مركز حضري . وهي منتشرة أساساً في نجـــد . وفي حروب ابن سعود ابان تأسيسه لمملكته كان الاخوان يؤلفون جناح المشاة . واليوم ، من جديد ، بعد خسوف طويل ما زالوا أصلب دعامة للبيت السعودي الحاكم بموجب الحق الالهي .

اليمن

اليمن هي المملكة الالهية الثانية ولكنها من نوع آخر تقع في جنوبي غربي الجزيرة العربية ، وحدودها موضحـــة جزئياً ، في الشمال مع العربية السعودية وفي الجنوب مع المحميات البريطانية في عدن . والحدود الوحيدة الثابتة هي تلك القائمة على الشاطيء الغربي الذي تغسله مياه البحر الاحمر . أما شرق اليمن فتشابك مع الربع الخالي ، في منطقة من الرمال المتحركة ، البحر الصافي (بحر الرمال) . وعدم اتضاح الحدود خاصة في منطقة الجنوب الشرقي حيث تجاور الامامة محمية عدن ، أدى الى خلاف عمره أربعون عاماً يشتد من وقت الى آخر .

في مثل هذه الظروف ، ليس هناك مجال لاعطـــاء رقم دقيق عن مساحة اليمن وقد وزع مندوب اليمن في هيئة الامم المتحدة عام ١٩٤٧ نشرة تفيد ان مساحة اليمن هي مئة وعشرون الف كيلو متر مربع . ومراجع أخرى رصينة جداً تعطي أرقاماً تتراوح بين ستين ومئة وخمسة وتسعين الف كيلومتر مربع . وأعتقد اننا اذا أخذنا بعين الاعتبار الجزء الصحراوي من البلاد ، يمكننا الاحتفاظ بالرقم مئة الف كيلو متر مربع كاتساع « للبلد النافع » .

وفي اليمن كالمكسيك تماماً ثلاث مناطق طبيعية هي الاراضي المنخفضة غير الصحية ذات المناخ الحار في تهامة التي تحاذي البحر الأحمر بعرض لا يزيد على الخمسين كيلومتراً ، والأراضي العالية المؤلفة من الهضاب المرتفعة التي تعلوها قمم يزيد ارتفاعها على ثلاثة آلاف وخمسمائة متر ، والاراضي المتوسطة ، وهي الهضبة الشرقية التي تنخفض ببطء شديد نحو الصحراء .

وتهامة هي منطقة شبه صحراوية تضم بعض المسافات الفائقة الخصب

والمزروعات تأخذ حاجتها للري من مياه الجوف . والمدينة الوحيدة الهامة في هذه المنطقة هي ميناء الحُديدة ، على البحر الاحمر ، مقر حاكم تهامة ، ولي العهد الامير البدر . والى الجنوب منها ميناء « مخا » القديم الذي أعطي اسمه لاقدم قهوة في العالم وقد بقي مهجوراً لمدة طويلة . وفي عام ١٩٥٥ كلفت الحكومة اليمنية باعادة بنائه شركة الباتينيول الفرنسية التي سبق لها وقامت بنشاط ملحوظ في جيبوتي ، فبنت رصيفاً ونظفت الاحواض من الرمال . ومؤخراً طلب الامام من الروس أن يبنوا له مرفأ شمالي الحديدة . وعلى كل حال فان المقصد هو التخلص من ضرورة المرور في عدن الخاضعة للاستعمار البريطاني .

وفي موازاة تهامة تشكل منطقة الهضاب المرتفعة سلسلة يتراوح عرضها بين المئة والمئة والخمسين كيلو متراً ، تتساقط فيها الامطار بكميات فائضة وهذه المنطقة في اليمن هي من أكبر المناطق خصباً وأكثفها سكاناً . والمناخ المعتدل والصحي فيها يفسر كثافة السكان المرتفعة في الريف والمدن على السواء . وفي هذا القسم من البلاد تقوم المدن الكبرى ومن بينها العاصمة القديمة صنعاء ، والعاصمة الحالية تعز ، سعادة مسقط رأس العائلة المالكة ، وزبيد وطن الجبر ، وضمر واب .. في هذه المدن بالذات ازدهرت حضارة الجنوب العربي هذه الحضارة الفريدة التي ما زال فنها الهندسي الرائع شاهداً عليها .

أما المنطقة الثالثة والاخيرة من المناطق الطبيعية في اليمن فتتألف من هضبة فسيحة موازية أيضاً لتهامة والسلسلة الجبلية . وهي تبدأ على مسافة مائتين وخمسين كيلو متراً تقريباً من البحر الاحمر ، وعلى ارتفاع يزيد على الفي متر ، ثم تنحدر رويداً رويداً نحو الشرق حتى تضيع بين رمال الربع الخالي . ومناخها المعتدل يجعلها صالحة لزراعة النباتات الاوروبية كافة .

وآخر مدينة يمنية قبل الصحراء هي مأرب ، اكثر المدن شهرة في

المنطقة وربما في كل الجنوب العربي . وهي معروفة بسدها العظيم المنهار الذي يعود تاريخه الى بضعة آلاف من السنين ، وببقايا مدينة قديمة مطمورة يعتقد انها كانت عاصمة مملكة سبأ . في عام ١٩٥١ ، حصل واندل فيليبس ، العالم الاثري الاميركي ، على اذن بالتنقيب عن الآثار . ولكنه سرعان ما أوقف عمله بسبب تهديدات السكان والسلطات .

واذا اعتقدنا صحة المعلومات المنشورة فالتنقيبات الاولى تدل على ان تاريخ بناء المدينة يعود الى الألف الاول قبل الميلاد . وقد تدل الحفريات فيما لو توبعت ، على أن تاريخ بناء المدينة هو أقدم من ذلك بكثير .

وكان أول أوروبي زار مأرب مسيو ارنود الفرنسي وذلك عام ١٨٤٣ ثم تبعه عام ١٨٦٩ فرنسي آخر هو عالم الآثار جوزف هالفي الذي عاد وفي جعبته أقاصيص مشوقة . وفي عام ١٩٥٢ زارت السيدة « كلودي فايان » مدينة مأرب ، وسدها وآثارها ، ووصفت ذلك في كتابها القيم « طبيبة فرنسية في اليمن » .

يقدر سكان اليمن بنحو خمسة ملايين وهم في أكثريتهم من الحضر ، والقبائل البدوية النادرة التي تصادف في الشمال الشرقي والشرق ، لا تشترك في الارتحال الكبير .

وكما تدل الآثار الموروثة يمكن القول إن اليمن بلد الحضر منذ القدم ، على عكس وسط الجزيرة العربية تماماً . وإذا أردنا أن نجري مقارنة مع الجزائر نقول ان الجبال اليمنية بالنسبة للعربية الصحراوية هي كالقبيلة بالنسبة للصحراء الكبرى .

وهناك تنوع بين السكان كما هي الحال في المناخ والمناطق الطبيعية .

فسهل تهامة الساحلي كان فيما مضى موطن قبائل الزرانيق المحاربة ذات النزعة الاستقلالية التي تحدث عنها جوزف كاسل في روايته « ثروة مربعة » . وهذه المنطقة اليمنية المعروفة بمناخها الرديء لم

تجتذب السكان اليها أبداً فيما بعد عندما استولى سادة اليمن على تهامة . وفيما عدا المدن نجد سكان السهل جلهم من الزنوج الافريقيين المتحدرين من العبيد القدماء او من الدم الخليط . ومن تبقى من الزرانيق خضع لسلطان المنتصرين . ومهما يكن فان سهل تهامة قليل السكان ، وعلى الهضاب المرتفعة في الوسط ، والهضبة الشرقية في الشرق تعيش أكثرية الشعب اليمني .

وكلما ابتعدنا عن الشاطىء واتجهنا نحو المرتفعات يتضح اللون وتدق السمات ويختفي العنصر الزنجي . والجلد الاسود عند سكان الساحل يصبح فاتح الصفات عند الاسياد الشرفاء — المعروفين بانهم من سلالة النبي — ولدى العديد من سكان المدن بصورة عامة . وفي ناحية مأرب ومحمية عدن تعيش بعض قبائل البدو الزرق ، الأمر الذي يدفعنا الى تذكر الطوارق المنتشرين في الصحراء الافريقية .

والفوارق الطائفية في اليمن اكثر بروزاً من التنوع العنصري ، ويبدو ان الشافعيين السنة يؤلفون الاكثرية العددية . ومع ذلك ، فالزيديون ، الطائفة الشيعية اليمنية بصورة خاصة ، يحتكرون السلطات جميعها بين ايديهم . والزعماء والقادة والحكام وكبار المفوظفين ، وعلى الاخص الملك والاسرة المالكة ينتمون جميعهم الى الزيدية اما الطائفة الاسلامية الثالثة الاسماعيلية الشيعية فلا تضم سوى بضعة آلاف من الافراد وهي تختلف كثيراً عن الزيدية التي نجحت الى حد ما في اقناعها بتبني طريقها .

وحتى عام ١٩٥٠ كان لا يزال يوجد في اليمن أقلية يهودية يزيد عدد أفرادها على الخمسين ألفاً ،ونظامها الخاص كان يجعلها قريبة من

منبوذي الهند . وهي من العنصر نفسه الذي تحدر منه المسلمون ، ولكن الدين كان كافياً لنبذهم ، وقد هاجروا على دفعات كبرى الى فلسطين المحتلة بعد خلق الدولة الدخيلة هناك عـام ١٩٤٨ حيث يعيشون نفس العيشة السابقة لأن يهود أوروبا الذين قدموا الى اسرائيل يكرهونهم ويحتقرونهم أشد الاحتقار .

٣

الجنوب العربي « البريطاني »

يجب ان أسارع الى القول بأن إلحاق الصفة البريطانيــة ، بالجنوب العربي لا ينطبق كما هي الحال في الملايو « البريطاني » . انه تعبير يُستعمل لوصف منطقة معقدة ما زال النفوذ البريطاني فيها على أشده له الكلمة الاولى .

الى الجنوب من اليمن والربع الخالي ، على طول خليج عــدن والمحيط الهندي ، تسيطر بريطانيا على حزام عريض من الأرض تزيد مساحته على مائتين وتسعين الف كيلو متر مربع اي ما يقارب مساحة الجزائر الشمالية . ان محمية عدن التي تضم المستعمرة الصغيرة التي أعطتها اسمها ، تمتد من باب المندب او باب جهنم حتى رأس « ضربة علي » على حدود ضفار ، احدى مناطق سلطنة عمان . وتقسم محمية عــدن ادارياً الى قسمين غير متساويين ، يتناسبان بدون تدقيق مع الفوارق السلالية والتاريخية والجغرافية .

والمحمية الغربية بسكانها الاربعمائة الف ومساحتها التي تزيد عن مائة

الف كيلو متر مربع ، ذات ارتباط وثيق « بالنواحي التسع » التي فصلت عن اليمن في القرن الثامن عشر . وهي من حيث الشكل الطبيعي والسكان تشبه الاراضي اليمنية المجاورة لها . وتضم ثلاث مناطق مناخية : ساحل شبه صحراوي ، ومنطقة جبلية ذات زراعات في « الجلول » وهضاب مرتفعة تعلوها القمم ، تنحدر نحو الداخل الشمالي — الشرقي في الربع الخالي . وجميعهم يدينون بالمذهب السني الشافعي ، وجلهم من الحضر . أما البدو الرحّل الذين يصادفون في الشمال الشرقي فيتبعون ، على الارجح ، المحمية الشرقية . ان البدو الاحرار المتنقلين ، لم يكترثوا يوماً بالحدود التي تقيمها ادارة اجنبية ، طالما انهم يستطيعون ان يقفزوا فوقها ويتخطوها .

وعلى الرغم من ان المحمية الشرقية اوسع فان سكانها اقل عدداً . انها تغطي مساحة تتراوح بين مئة وثمانين ومائتي الف كيلو متر مربع وسكانها لا يتجاوزون ثلاثمائة وخمسين الف نسمة . وهي مؤلفة من مجموعة حضرموت ، بلاد البخور والتوابل الاسطورية ، ومهرا التي تتعلق بها جزيرة سوقطرة ، والقسم الاكبر من المحمية الشرقية هو صحار وجبال مجدبة تتخللها الاودية . واما المنطقة الساحلية فهي أضيق من تهامة وتحدها السفوح الصخرية لسلسلة ساحلية ، وهي الاخرى ضيقة ومحاذية لهضبة كلسية صحراوية يتراوح ارتفاعها بين خمسمائة والف ومائتي متر . وهذه الهضبة القاحلة تشكل بوادي فسيحة جرداء تتخللها شبكة معقدة من الاودية العميقة . وأعمق هذه الاودية وادي حضرموت ، الظاهرة الجغرافية الأهم في المحمية الشرقية وهو يقسم بعرضه الذي يبلغ عشرة كيلو مترات الهضبة الكلسية الى قسمين على طول مئة كيلو متر بين الصحراء والبحر . وأما الأودية الأخرى فكلها فروع له ، سواء أكانت متجهة نحو المحيط او نحو الصحراء . والحياة الحضرية ليست ممكنة الا في اعماق هذه الاودية ذات الجوانب شبه العامودية .

والخاصة الأخرى ، الجغرافية الكبرى، في حضرموت تكمن في مدنه ذات ناطحات السحاب التي تعود في تاريخها الى ايام الازدهار القديم : ومدن مكلا ، شهر ، سيون ، تريم أو شيبـــام ، أدهشت وأذهلت المسافرين ، حتى الذين اعلموا مسبقاً بها ، وقد صادفوا هذه الهندسة الدقيقة في قلب الصحارى المميتة . هذه المدن الكبرى تشير الى حضارة وطرق حياتية مدنية عريقة وذلك جنباً الى جنب مع حياة بدوية متأخرة اذ ان خارج المدن ما زال القسم الاكبر من السكان يعيش حيـــاة البداوة :

في المدن وعلى الساحل يمكننا ان تميّز بجلاء وجود أقليات افريقية زنجية وعلى الأخص هندية أو « ملقية » . وهذا العنصر الأخير قـــد أدخاله الى المنطقة سكان حضرموت أنفسهم الذين يهاجرون منـــذ القرن السادس ، باستمرار الى جزر الهند الشرقية حيث يتزوج بعضهم : اما بدو حضرموت فيختلفون عن الحضريين سكان المدن الجبلية في الغرب أكثر من بدو القسم الشمالي والمتوسط من الجزيرة العربية . انهم ذوو بشرة كالحة السواد دون ان يكون لها اي من الخصائص الزنجيـــة ، يسيرون نصف عراة ، حاسري الرأس ، ويطلون أجسامهم بالنيل، الأمر الذي يسبغ عليهم شكلاً غريباً أزرق قاتماً .

والسكان جميعاً هنا يدينون بالمذهب السني على الطريقة الشافعية . الا ان البدو الرحل قليلاً ما يهتمون بالدين ، من جراء متاعب الحياة القبلية القاسية ، وأنظمة الصحراء الصارمة . والطوائف التي تخالف الاسلام في طريقة تعبدها متعددة ، ويمكننا ان نذكر بصورة خاصة التقديس الذي تحاط به قبور أشخاص اعتبروا قديسين .

وفي هذه المحمية الشرقية من عدن يبدو التفاوت اللغوي « واضحاً » فهناك يتكلم السكان بالاضافة الى اللغة العربية التي تفهم بصعوبة «الملقية» ، والهندوستانية ، والسواحلية في العائلات التي أقامت فترة طويلة في اندونيسيا

او في افريقية الشرقيا . وفي مهر ما زالت شائعة اللهجة القديمة للجنوب العربي . اما في جزيرة سوقطرة وجوارهـا ، فالاثنا عشر الف نسمة الذين يسكنونها بين صيادين وابناء الكهوف ، يتكلمون لهجة خليطة بين المهرية واليمنية ، ولكنهـا تختلف عن الاثنتين . والجزيرة التي تبلغ مساحتها ما يقرب من خمسة وثلاثين الف كيلومتر مربع ، بقيت بعيدة عن موجات الغزو وتيارات المدنية لصعوبة الوصول اليها بصورة عامة ، ولاستحالته عندما تتعرض للرياح الموسمية .

المستعمرة

لا تزيد مستعمرة عدن من حيث المساحة على مائتي كيلومتر مربع ، ومع ذلك فهي هامة جداً لأنها قاعدة لاراض فسيحة . وتتألف المستعمرة من مرفأ الصيادين القديم الذي اصبح مدينة ومرفأ آخر له صفة دولية ، ومن شبه جزيرة صغرى ومن حزام من الاراضي الرملية التي تشرف عليها صخور بركانية . ويشكل المجموع ميناء طبيعياً ممتازاً ، وهو الوحيد على طول ساحل الجنوب الغربي . وقد احتلتها القوات البريطانية عام ١٨٣٩ ، واصبحت عدن مستعمرة تابعة للتاج البريطاني منذ عام ١٩٣٦ والحقت بها جزر قمران وبريم التي تحمي مدخل باب المندب في البحر الاحمر .

وسكان المستعمرة الذين قدر عددهم عام ١٩٥٦ بمائة وخمسين الف نسمة ، هم عرب في اكثريتهم الساحقة بين عدنيين وقادمين من المحمية واليمن . ويوجـد في المستعمرة اقليات مهمة من الهنود والباكستانيين والصوماليين . وكان غير العرب يشكلون عام ١٩٥٠ عشرين بالمئة من السكان ، ولكن هذه النسبة هبطت كثيراً فيما بعد ، وما زال هبوطها مستمراً لأن الزيادة في السكان تعـود على العموم ، الى الهجرة اليمنية

الجماعية الى المستعمرة للعمل فيها .

مسقط وعمان

تحتل سلطنة مسقط وعمان بأراضيها الممتدة على شكل هلال الزاوية الجنوبية الشرقية من الجزيرة العربية كلها وساحلها ينطلق من محمية عدن الشرقية الى شاطىء القراصنة على طول الف وستمائة كيلومتر من الشواطىء التي تغسلها مياه البحر العربي (المحيط الهندي) وخليج عمان . وهي تجاور في الغرب سلطنة مهركشن وسوقطرة ، بأقليم ضفار . وفي الشمال الغربي تتصل بامارات شاطىء القراصنة الصغير ، وشبه جزيرة ماسندام التي تسيطر على مدخل الخليج العربي ، هي خاضعة ايضاً لسيادتها . وفي الداخل تنتهي السلطنة في صحراء الربع الخالي ، عند حدود لم تكن يوماً واضحة . وتقدر مساحة السلطنة بحوالي مائتين واثني عشر الف كيلومتر مربع وسكانها بخمسمائة وخمسين الفاً .

وهي مؤلفة من ساحل ضيق يمتد امام سلسلة جبلية وعرة ممتدة في موازاة خليج عمان ومن الجبل الاخضر الذي يزيد ارتفاعه في احدى قممه المدعوة شام » على ثلاثة آلاف متر . واما في الداخل فينحدر الجبل تدريجياً . نحو الصحراء . وهذا القسم من الجزيرة هو اكثر اقسامها غموضاً » وبين مسقط المرفأ والعاصمة ، وشاطىء القراصنة باتجاه الشمال ، نجد سهل الباطنة الساحلي الذي يضم اجمل بساتين النخيل في العالم ، واخصب منطقة في الجزيرة العربية . وضفار التي تقع في الطرف الثاني من هذه البلاد الطويلة منطقة قليلة السكان ، ما زال ينبت فيها شجر البخور على الطبيعة في تلال منخفضة مسطحة ، وهي الاخرى ينتهي بها المطاف الى الضياع في رمال الصحراء الكبرى . والى الجانب الآخر من خليج عمان في بلوخستان التابعة للباكستان ما زال هناك جيب صغير

يدعى خواضار مساحته ثمانمائة كيلومتر مربع يخضع لسلطان مسقط وهو البقية الباقية من امبراطورية بحرية عريقة :

ان سكان الساحل خليط عجيب من : عرب وباكستانيين ، وايرانيين وزنوج افريقيين ، واما سكان الجبل الاخضر فهم على الاخص من العرب العريقين . والعمانيون جميعهم مسلمون ولكن اغلبيتهم من الخوارج العبيديين المرفوضين حتى من الشيعة . والى هذه الطائفة ذاتها التي خرجت عن المذاهب الاسلامية ينتمي مرابطة الجزائر ، وجربيو تونس، وسكان زنجبار في افريقيا الشرقية .

ان سلطنة مسقط وعمان ذات الكيان غير المحدد مستقلة مبدئياً ونظرياً ولكنها عملياً واقعة تحت الحماية البريطانية :

شاطىء القراصنة

يحمل الشاطىء العربي الذي يمتد صعوداً من شبه جزيرة سندام الى قاعدة شبه جزيرة قطر شمالاً اسم شاطىء القراصنة . ويطلق عليه اسم شاطىء الهدنة او عمان المهادنة :

لقد بقيت هذه المنطقة مدة طويلة مخبأ للقراصنة ، قبل توقيع معاهدة الهدنة العامة التي فرضها الانجليز في القرن التاسع عشر . انها حزام من اراض صحراوية ، خربة قائمـــة تماماً بين عمان وقطر . اما الحدود الداخلية مع الجارة الكبرى ، المملكة العربية السعودية فأنها غير محددة ونجد فيها سبع مشيخات ساحلية تتقاسم السيادة على مساحة قدرها عشرون الف كيلومتر مربع يسكنها حوالى ثمانين الف نسمة . وهذه المشيخات الشارقة ، رأس الخيمة ، ام القوين ، عجمان ، ظبي ، ابو ظبي ، وفجيرة التي اعترف بها عام ١٩٥٢ . والسكان يتجمع جلهم في مرافىء الشاطىء بصورة خاصة ؛ لأنهم من البحارة والى جوارهم يسكن نحو

عشرة آلاف من البدو الرحل . وواحة البريمي التي هي موضع خلاف حاد ، منذ عدة سنوات ، بين العربية السعودية من جهة وسلطاني مسقط وابو ظبي ممثلين ببريطانيا من جهة ثانية ، هي المكان الذي يتجمع فيه البدو من كل المناطق المحيطة . وهي ايضاً المكان الوحيد الخصيب: وشاطئ القراصنة ليس سوى امتداد للصحراء الرملية ، تتخلله مستنقعات مالحة ، اكبرها مستنقع « سبخه » الذي يفصل الشاطئ عن العربية السعودية. والحياة في هذه المنطقة تقتصر على الشاطئ وواحة البريمي .

قطــر

الى الشمال ايضاً تمتد شبه جزيرة تدعى قطر ، وهي امارة في وسط الشاطئ العربي من خليج البصرة . تواجه جهتها الغربية جزر البحرين، وحدودها الداخلية مع العربية السعودية لم تحدد حتى اليوم . ويظن انها تتألف من خط مستقيم وهمي يربط الشاطئين بقاعدة شبه الجزيرة .

تقارب مساحة قطر عشرين الف وسبعمائة وعشرين كيلومتراً مربعاً من الصحراء المسطحة بدون مياه حلوة ، وبدون نباتات ، شاطئ متعرج صخري وكان ريشارد سنجر على حق عندما وصف قطر بأنها المكان العابس حتى بالنسبة للجزيرة العربية . سكانها نحو خمسة وعشرين الف كلهم صيادو اسماك ولآلئ . ولا مجال هنا للحديث عن الزراعة . ومياه الآبار النادرة الموجودة هناك مالحة. وتعطي بعض الواحات الصغيرة التمور.آ والنباتات النادرة التي تنبت على طول الشاطئ تشكل علفاً زهيداً لحيوانات البدو الرحل . ويمكننا ان نقول ان قطر ، هي اصدق مثل للصحراء الكاملة .

والبترول وحده هو الذي لفت الانظار الى هذه الامارة العربية .

البحرين

بين قطر والاحساء السعودية يحتل ارخبيل البحرين مركزاً رئيسياً في الخليج العربي . واسم البحرين يدل على الجزيرة الكبرى بين الخمس الاخرى التي تصغرها بكثير واثنتان منها فقط يقطنها السكان هما المحرق في الشمال وتتصل بالجزيرة الام برصيف نصف متحــرك . وسترة في الغرب ، وتقوم عليها احدى اكبر مصافي تكرير البترول في المنطقة . ويبعد الارخبيل حوالي ثلاثين كيلومتراً عن الشاطىء السعودي :

تبلغ مساحة البحرين الاجمالية خمسمئة وواحــد وخمسين كيلومتراً . أما الجزيرة الكبرى التي تقوم عليها العاصمة المنامة فيبلغ طولهـا ثلاثين ميلاً من الشمال الى الجنوب وعرضها عشرة أميال من الشرق الى الغرب وعلى العكس من جاراتها تتمتع البحرين بمياه غزيرة في نصفها الشمالي عل الاقل . وينابيعها الطبيعية وبركها المتعددة زادت من قيمتها وجعلت العرب يطلقون عليها منذ اقدم العصور اسم : « لؤلؤة بحر الزمرد » . وكانت الجزيرة مشهورة فيما مضى باللآلىء الشرقية النادرة وقد وصف « البير لوندر » في كتابه « صيادو اللؤلؤ » الظروف التي يتم فيها استخراج هذه الكنوز من مياه الخليج الدافئة .

يناهز سكان البحرين مائة وعشرين الفاً ، سدسهم على الاقل من الاجانب الذين هم ، على الاخص ، ايرانيون وهنود . وستة وتسعون بالمائة من السكان عرب يدينون بالاسلام ولكنهم منقسمون الى سنة وشيعة. وعلى الرغم من ان السنيين اقلية ، فقــد استطاعوا ان يكونوا اسياد الارخبيل . والاضطرابات والقلاقل بين ابناء الطائفتين ليست نادرة . ومع ذلك ، فان الهيجان والنقمة منذ مدة قصيرة ينصبان على الاجانب أي المستشارين الانجليز والتجار ، الهنــود والفرس واليهود . وهؤلاء

الاخيرون يهاجرون الى اسرائيل .

الكويت والمنطقة المحايدة

اذا تابعنا سيرنا شمالا نحو رأس الخليج ، نمر بساحل الاحساء السعودي ، ثم بساحل القسم الكئيب من المنطقة المحايدة حيث يبعث استثمار البترول الحياة نوعاً . وينتهي بنا المطاف الى جون الكويت ، المرفأ الطبيعي الممتاز في المياه العميقة ، الذي كان السبب الرئيسي لتأسيس الامارة . وهي مؤلفة خاصة من مدينة الكويت القائمة على الجهة الجنوبية من الجون وقريتين او ثلاث مجاورة لها . والى الجنوب من المدينة ، يقوم ميناء الاحمدي الذي يعتبر من اكبر الموانىء البترولية على الخليج .

في سنة ١٩٢٢ — ١٩٢٣ باشراف الحكومة البريطانية (بروتوكول عقير) عينت حدود الكويت التي تحاذي العراق في الشمال والغرب ، والمملكة العربية السعودية في الجنوب الغربي . اما الحدود الجنوبية فتفصل الامارة عن منطقة محايدة حيث شيخ الكويت والملك السعودي يتقاسمان حقوق السيادة في انتظار اتفاق لاحق : وكلاهما تنازل عن حقوقه في المنطقة الى شركات بترولية اميركية متآلفة اكتشفت البترول الذي تستثمره . ويبدو ان التسوية قد ارضت الفرقاء جميعاً .

والكويت صحراء مستوية من الرمال والاملاح ، محرومة تماماً من المياه الحلوة وتبلغ مساحتها حوالي ثلاثين الف كيلو متر مربع . والقسم الاكبر من هذه المساحة غير مأهول وغير صالح للسكن : كان يوجد فيها فيما مضى ما بين عشرة وعشرين الف بدوي ، ولكن السكان واكثرهم بحريون ، يتجمعون على الشاطىء وبصورة خاصة في مدينة الكويت .

كان الكويتيون فيما مضى بحارة ، صيادي لؤلؤ ماهرين ، وبناة

مراكب معروفة بشهرتها الفائقة . ومنذ اكتشاف البترول ، ضاعفت هجرة العراقيين وعرب المناطق الاخرى من الخليج سكان الكويت ، ويقدرون اليوم بربع مليون نسمة جميعهم من العرب السنة ، ما عدا حوالي الف ايراني اقاموا كتجار في الكويت منذ القرن الثامن عشر .وقد أحدث اكتشاف البترول ثورة في الكويت لا مثيل لها كما سترى في الفصول القادمة .

الخليج العربي

قبل ان نختتم هذا الفصل ، يجدر بنا ان نقول كلمة بشأن فكرة اطلقها السيد « رودريك أون » . لقد نشر الكاتب البريطاني عام ١٩٥٧ كتاباً ممتازاً عن الخليج العربي . وفي مستهله يلفت السيد رودريك انظار قرائه الى ان التسمية الفارسية للخليج بالنسبة للعرب لا وجود لها : لقد كانت هذه المساحات من الرمال والمياه دائماً جزءاً لا يتجزأ من الخليج العربي اني اقر هذا الامر . ولكن ، بما ان الكتاب الغربيين ليسوا من القوميين العرب لذلك احتفظوا بالتسمية الفارسية التي حملها مدة طويلة من تاريخه .

القسم الثاني

العربية السعودية

٤

إمبراطورية آل سعود

منذ عام ١٩٢٧ ، تحت راية المرحوم عبد العزيز بن سعود ، توحد القسم الاكبر من الجزيرة العربية حاملاً اسم : « مملكة الحجاز ونجد وملحقاتها » .

وفي عام ١٩٣٢ ، صدر قرار ملكي يعطي لهذا الكيان السياسي الجديد اسمه الحالي : « المملكة العربية السعودية » . وما زال تنظيم المملكة يحتفظ حتى اليوم بصورته الاصلية المختلفة .

حتى مماته في التاسع من تشرين الثاني ١٩٥٣ ، كان الملك عبد العزيز بن سعود بمعنى الكلمة يجسد البلد الذي خلقه . لذلك تركت وفاة الملك وراءها لفترة من الوقت ، جواً من القلق والخوف من ان تتغلب القوى الانفصالية على الولاء للأسرة المالكة السعودية . غير ان ابن الملك الكبير ، الأمير سعود ، ولي العهد منذ سنة ١٩٣٣ ، تولى العرش دون أي اعتراض . وتدل اضطرابات اخرى من نوع جديد على يقظة شعبية قريبة بدأت تحدث في المملكة .

وعلى الملك الجديد سعود بن عبد العزيز بن عبد الرحمن آل فيصل

آ ل سعود ، ان يواجه قضايا ومشكلات يتزايد تعقيدها مع الايام ، مشاكل لم تواجه سلفه الا عرضاً . فهناك في الداخل ، تطور البـــلاد الاجتماعي والاقتصادي ، يسير بخطى حثيثة ، وفي الخارج قضايا العالم الاسلامي والشرق الاوسط ، بدأت تأخذ مع الايام ، شيئاً فشيئاً صفة دولية ، ولا يستطيع سيدُ الاماكن المقدسة ان يبقى غريباً عن هذه القضايا المستحدثة .

ان الاثراء الاصطنـــاعي في بلد كان فيما مضى لا يحسّ بالتطور الاقتصادي الحقيقي والسياسة العربية خاصة ، والاسلامية عامة ، واخيراً « الحياد » ، كل ذلك يضع المملكة العربية السعودية في طليعة بلدان الشرق الاوسط ، والسؤال الذي يثيره هذا البلد في ذهن من يراقب الاوضاع في الشرق الاوسط والاختصاصي في العلاقات الدولية هو معرفة مدى نجاح التجربة السعودية وامكانية استمرارها . ان النظام السعودي تحت ضغط التقدم والثروة لم يتغير الا تغيراً طفيفاً . لقد ظهرت مع ذلك قوى اجتماعية جديدة ولكنها لم تأخذ بعد شكلها وتنظيمها . وسينبئنا ربع القرن المقبل اذا كانت العربية السعودية قادرة على ان تستمر في فرض نفسها كواحدة من كبريات دول الشرق الاوسط العربي والاسلامي واذا كان نظامها الذي جاء بعد عصره ، سيعرف اخيراً كيف يتكيّف تجاوباً مع المتطلبات الحديثة . نرى هل سينتهي المطاف بعمل عبد العزيز ابن سعود الى مثل ما انتهت اليه الامبراطورية الوهابية في القرن التاسع عشر اي بتجزئة جديدة لمملكة متنافرة ، تسارع بعض اقسامها الى العودة الى الفوضى القبلية ؟

انها علامة استفهام يضعها باستمرار هذا البلد الذي تزيد مساحته على مساحة فرنسة بأربعة اضعاف بينما سكانه لا يصلون الى العشر . وفي محاولة فهم التطور ، يجب ان نعرف ، ولو باختصار ، الاسس التي قامت عليها هذه المملكة التي اطلق عليها « روبير مونتاني » اسم « مملكة

الحق الآلهي البدوية » :

الوهابية والامبراطورية الاولى

في اواسط القرن الثامن عشر عصف في قلب الجزيرة العربية تيار اصلاحي توحدي سببه الانحلال في الاخلاق والعادات . اذ قام حوالى سنة ١٧٤٥ فقيه حنبلي من قبيلة تميم في نجد يدعى محمد بن عبد الوهاب واخذ يبث دعوته الحماسية من اجل العودة الى الاسلام الحقيقي الحنيف النظيف الطاهر ، كما اراد الرسول . لم يأت محمد بن عبد الوهاب بمذهب جديد ، ولكنه دعا الى اتباع التفسير الاصح والانقى لسيرة محمد (صلعم) واحاديثه .

منذ القرن العاشر ، كانت الجزيرة العربية قد عادت الى فوضى الاحزاب والقبائل المتنافسة المتخاصمة المتحاسدة . لذلك لم تُلاقِ دعوة محمد بن عبد الوهاب ، في البدء اي نجاح . وذهب الجهد الاصلاحي المبذول لتنقية الدين من الادران هدراً ، بل لاقى مقاومة عنيفة من اكثرية الامراء البدو الصغار . واخيراً وجد المصلح من يستمع اليه بانتباه ، في شخص شيخ غامض ، رئيس واحة « دارية » قرب الرياض في اواسط نجد . وهذا الشيخ كان جد عبد العزيز بن سعود مؤسس العائلة المالكة الكبيرة . فاقتنع بالدعوة الجديدة وتبناها . وهكذا اعطى محمد بن سعود الحركة الوهابية السيف والقاعدة الزمنية وهما ما كانت تحتاج اليهما لتحقيق انتشارها .

وفي سلسلة من الانتصارات العسكرية نشر عبد العزيز الاول ابن محمد بن سعود الدعوة الاصلاحية في كل الجزيرة العربية وخارجها في سوريا والعراق وحتى في آسيا الوسطى خارج العالم العربي . وبفضل القبائل البدوية المحاربة في اواسط الجزيرة ، تغلغلت الوهابية جنوباً حتى

في عمان ، وغرباً في الحجاز ، وشمالاً في العراق ، وشرقاً في الاحساء؛ واكمل سعود خلف عبد العزيز انتصارات آبائه واجداده اذ ضم الاماكن المقدسة ، مكة المكرمة والمدينة المنورة الى الامبراطورية السعودية الوهابية؛

وهكذا لاقت دعوة محمد بن عبد الوهاب الاصلاحية ، التي حملتها اسلحة آل سعود اتباعاً اكثر . وفي فجر القرن التاسع عشر ، امتدّت الامبراطورية السعودية من البحر الاحمر حتى الخليج العربي ، ومن عمان حتى بلاد ما بين النهرين . وهذا التوسع القوي السريع قد هدد وأخاف الامبراطورية العثمانية التي كان قد دب فيها الضعف والانحلال ، فطلب السلطان العثماني الى عامله في مصر ، محمد علي ، ان يحارب الوهابيين . وبعد عدّة محاولات فاشلة ، نجح محمد علي في دحر جيوش سعود الذي قتل في المعركة . وفي سنة ١٨١٥ ، اعترف خلفه بسيادة الباب العالي ، ولكن ذلك لم يدم طويلاً . وبسبب حركات القبائل البدوية المستمرة ، اوفد سيد مصر الى الجزيرة العربية افضل جنوده بقيادة ابنه ابراهيم باشا . فغلب الوهابيين وسحقهم وذلك لأن ابراهيم باشا استطاع ان يستميل القبائل الكبرى المعادية لسادة الرياض ، فدحر الجيوش السعودية واحتل بسرعة « داريا » والرياض التي اباحها لجنوده . اما رئيس الاسرة عبد الله بن سعود فقد وقع في الاسر وقطع عنقه . وبعد عدة سنوات ، سحقت حملة ثانية ثورة وهابية جديدة في المهد، واحتلت اليمن في طريقها ، وخربت واحرقت كل ما يقع في متناول يدها قبل انسحابها من الجزيرة عام ١٨٤٠ ؛

وهكذا اصبحت الامبراطورية السعودية الاولى اثراً بعد عين؛

لقد ترك المرتزقة المصريون والاتراك الجزيرة العربية وراءهم خربة ممزقة بين القبائل البدوية المتنازعة . وبعد سنوات طويلة من النزاع المستمر بين الزعماء والمحليين العديدين برز عام ١٨٨٥ ابن رشيد زعيم قبيلة شمّر حليف الاتراك وعدو آل سعود اللدود وانتصر انتصاراً موقتاً .

فدخل ظافراً مدينـــة الرياض ، وبعد سنوات لجأ الشيخ عبد الرحمن الفيصل آل سعود الى الكويت ، لدى امير صديق ، وهناك عام ١٩٠٠ تنازل الشيخ اللاجىء عن حقوقه الى ابنه الشاب عبد العزيز الثاني .

الامبراطورية الوهابية السعودية الثانية

في سنة ١٩٠٢ ، اندفع الامير عبد العزيز على رأس انصاره في هجوم مفاجىء صاعق على الرياض . وبفضل الحيلة التي حاكها نجح في دخول المدينة بدون مقاومة ، وثبّت اقدامه في عاصمة اجداده . وهناك نظم نفسه وانطلق لاستعادة اراضيه . وبعد الحملات المتتالية ، والحروب المتواصلة التي دامت عدة سنوات ، استطاع الامير الشاب ان يبسط سيطرته على نجـــد ثم على قصيم وشمّر ، اي على اواسط الجزيرة العربية كلها .

وفي عام ١٩١٢ اسس عبد العزيز بن سعود منظمة « الاخوان » الدينية التي اشتهرت في الآفاق. وانتقى افرادها من اكثر القبائل اخلاصاً له ، واقام هؤلاء البدو المتحمسون في مستعمرات زراعية حضرية انشئت لهم خصيصاً في اواسط نجد ، بالقرب من العاصمة.واولى هذه المستعمرات كانت « ارطاوية » الى الجنوب من الرياض . وعلى اكتاف هؤلاء الاخوان الصلب العنيدين ، جنود الايمان المخلصين ، الذين يستوحون في اعمالهم صحابة النبي (صلعم) قامت فتوحات ابن سعود الجديدة. وحتى يومنا هذا ما زال الاخوان درع الامبراطورية الجديدة الذي يصونها من العاديات .

وفي عام ١٩١٣ ، بعد حملة صاعقة ، احتل عبد العزيز بن سعود الاحساء ، دون مقاومة تذكر : وهكذا وصل امير نجد الى الخليـج العربي . وكانت بريطانيا ، التي زحزحت تباعاً جميع منافسيهـا

الاوروبيين ، تعتبر المنطقة كأنها « حدودها الطبيعية » . فأسرعت ترسل الى الرياض ، احد مبعوثيها السياسيين ، النقيب شكسبير بمهمة معينة ، تقضي بدفع عبد العزيز بن سعود الى محاربة اعدائه القدامى ، آل رشيد زعماء شمر . وكان الانجليز يهدفون من وراء ذلك الى امرين الاول إلهاء السعوديين عن متابعة توسعهم في منطقة الخليج ، والثاني اضعاف قوة الاتراك بمحاربة حلفائهم آل رشيد ، في الوقت الذي اندلعت فيه نيران الحرب العالمية الاولى .

غير ان النقيب شكسبير قتل ، خلال اول معركة خاضها . واستمر عبد العزيز بن سعود في اتمام خطته دون « مستشار » بريطاني . وبعد ان حارب اخصامه التقليديين وانتهى به الامر الى دحرهم والقضاء عليهم قرر قلم الاستخبارات البريطاني والمكتب العربي في القاهرة تحويل الجهود الى الهاشمي حسين ، شريف مكة ، الذي سيصبح خصم آل سعود الاكبر وذلك بناء لتعليمات الكولونيل لورانس الشهير ، الذي ارتكب في هذا الامر غلطة فادحة لم تقدر نتائجها آنذاك . ولولا حقد لورانس على عبد العزيز بن سعود ، لكان تاريخ الشرق الاوسط غير ما هو الآن تماماً . ولكان بترول الجزيرة العربية لبريطانيا بأسره دون ان يصل شيء منه الى الاميركيين ؟

وقد حدثنا لورانس عن عمله في الحجـــاز الى جانب الملك حسين الهاشمي بتفصيل زائد في كتابه « اعمدة الحكمة السبعة » . ولكن هذا العمل على الاخص ، قد لحقه كثير من المبالغة والتحوير عن طريق المعجبين بهذا الرجل الاسطورة المشهور . ولسوء الحظ قـــد أثر تفهمه الخاطىء للأمور تأثيراً بالغاً اكثر الاحيان ، في السياسة البريطانية تجاه العرب ، منذ اربعين عاماً . الامر الذي يكمن على الارجح ، وراء فشل هذه السياسة البريطانية غالباً ، والاحداث والوقائع كذبت كذلك باستمرار ما ذهب اليه لورانس في نظرياته السياسية . وخطأ حدسه بشأن

عبد العزيز بن سعود ، وتفضيل حسين الهاشمي عليه ، اصدق مثل على ما ذهبنا اليه .

لقد فضل لورانس ، اذن ، ان يستخدم شريف مكة لدفع القبائل العربية الى اعلان الثورة على الدولة العثمانية . والاثر الذي تركته ثورة الصحراء — هو ايضاً — موضع شك كشخصية صاحب فكرتها . بشأن الحقيقة في هذا المضمار من المفيد ان نذكر هنا رأي خبير فرنسي .ويجب بكل تأكيد ، ان تقاس احداث تلك الفترة في الصحراء العربية ، بمقاييسها الحقيقية كي تنكشف عنها الهالة الاسطورية . وقد كتب الجنرال ادوار برموند قائد البعثة العسكرية الفرنسية الى الجزيرة العربية سابقاً كتب عن الثورة العربية يقول :

« نحن نعلم ان الغرض الاساسي من الحرب في الجزيرة العربية انما هو تخريب خط الحجاز الحديدي ، الذي كان الاتراك يدفعون للقبائل الاموال من اجل حمايته وحراسته ، ان هذا بالضبط هو ما اسموه « الثورة في الصحراء » ، مع الهالة التي احاطها بها الدجال الذي خدع الرأي العام الاوروبي » .

على الرغم من ان هذا الرأي هو قاس فعلاً فانه يطابق ما نعلمه عن السياسة البريطانية في الجزيرة العربية ، سياسة « التبعية » التي كان على ابن سعود ان ينتظر فترة من الوقت لمقاومتها . وذلك لأن البريطانيين مع مساندتهم لسيد مكة ، حرصوا على توطيد العلاقة مع امير الرياض .

التفوق البريطاني

بينما كان لورانس يساند الملك الهاشمي ويعده بتاج امبراطورية عربية كبرى ، نزل ، عام ١٩١٧ ، في اواسط الجزيرة ضابط سياسي قادم

من الكويت يدعى هاري سان جون بريدجر فيلبي ، وقد قدر له بعد ان اعلن اسلامه وسمي عبدالله ، ان يلعب مدة ثمانية وثلاثين عاماً دوراً بارزاً في الجزيرة العربية .

في السادس والعشرين من كانون الاول سنة ١٩١٥ ، كان عبد العزيز قد وقّع مع بريطانيا مساعدة مشابهة لتلك التي ربطت بانجلترا كلاً من البحرين والكويت . وهذا الامر يجهله ، على العموم ، او يغفل عن ذكره الكثيرون من المؤرخين ، انه ليس مشرفاً ، لا للعرب ولا للبريطانيين . اذ انه لقاء مساعدة مالية شهرية قدرها خمسة آلاف جنيه استرليني اعترف سلطان نجد للبريطانيين بحق الاشراف على علاقاته الخارجية . كجميع امراء الخليج والجنوب العربي تعهد عبد العزيز بن سعود بألا يتنازل عن اي شبر من اراضيه في أي حال من الاحوال ، والا يقيم علاقات مع اية دولة الا بعد الحصول على موافقة الحكومة البريطانية على ذلك .

وتعهدت بريطانيا من جانبها بحماية ابن سعود ، مهما كانت الظروف من كل اعتداء خارجي . ويروي الجنرال برموند – كما ذكرت التايمز في ذلك الوقت – ان سلطان نجد تلقى في الحقبة بين ١٩١٧ و ١٩٢٤ ، من التاج البريطاني مبلغ ٤٧٧٣١٠ جنيهات استرلينية ذهباً . وكثير من المراقبين قد اعتراهم الذهول بسبب الخداع والمكر البريطانيين اللذين أمنت بريطانيا عن طريقهما جانب الخصمين العربيين الكبيرين حسين وعبد العزيز ، وذلك كي تبقى هي سيدة الموقف اياً كان الغالب . ومع ذلك فقد كان هناك تمييز في المعاملة لأن حسين قدر ثمنه بأربعة اضعاف اكثر من الامير البدوي . كان يقبض شهرياً مبلغ عشرين ألف جنيه استرليني مقابل خمسة الاف فقط لعبد العزيز . وبالاضافة الى ذلك كان يوجد تنافس ما لبث ان تحول الى عداء مستحكم ، بين لورانس وفيلبي اذ ان كلاً منهما كان يدعم اميراً طموحاً ، ويستند الى رؤساء كانت

لهم مراكزهم ووجهات نظرهم الخاصة . (المكتب العربي — المكتب الهندي) .

توحيد الامبراطورية

بينما كانت الحرب العالمية الاولى تنازع في أيامها الاخيرة ، كلف الملك حسين الهاشمي ابنه الامير عبد الله — أمير الاردن وملكها فيما بعد — باسترجاع واحة الخرمة من الوهابيين . فنهض رجال عبد العزيز ابن سعود وفاجأوا في الليل قوات شريف مكة وقضوا عليها ولم ينجُ من ايديهم إلا الامير عبدالله مع حفنة من انصاره . وهكذا بدأت سلسلة المنازعات بين الهاشميين والسعوديين ، هذه المنازعات التي كان لها اثرها الكبير في تاريخ الشرق الاوسط في خلال السنوات الاربعين الاخيرة :

لقد تأثر الشريف حسين من فشل ابنه واستشاط غضباً لما علم بذبح قواته فحاول ان يعوض هـــذه الخسارة بإثارة عسير ضد الوهابيين . وكان ان جهز هؤلاء حملة صاعقة بقيادة الامير فيصل الابن الثاني لعبد العزيز ، وضمت عسير الى امبراطورية آل سعود وذلك عام ١٩١٩ . وقبل ذلك التاريخ بقليل ، كان الامير فيصل آل سعود قد توجه الى لندن حيث خطا في سن الرابعة عشرة ، خطواته الاولى في الدبلوماسية الدولية ، باشراف جون فيلبي . وفي عام ١٩٥٨ صار الامير نفسه ، على رأس وزارة الشؤون الخارجية في المملكة العربية السعودية .

ويجب الا ننسى ان موت زعيم آل رشيد عام ١٩٢٠ قد شجع ابن سعود على التخلص نهائياً من خصومه الالداء في اواسط الجزيرة وشمالها وكان آل رشيد قد ضعفوا كثيراً بعد وفاة زعيمهم المحارب القديم اذ تولى امير شاب متردد شؤونهم . وبعد معركة قصيرة وضع السعوديون ايديهم على شمّر ووسعوا رقعة المملكة . ووفقاً لمخطط سياسي سيبقى

اميناً له مدة طويلة ، اظهر ابن سعود شهامة ، تجاه الامراء المغلوبين فتزوج هو وزوج ابناءه من بنات اعدائه القدامى واخواتهم .

واثر ذلك لم يبق من خصم عنيد لامير نجد سوى شريف مكة حسين الهاشمي . ولم يعد ينقص المملكة السعودية سوى الحجاز لاعطائها شكلها الحاضر . ولا ريب ان مرض التعاظم الذي اصيب به شريف مكة قد اتاح للوهابيين سادة الرياض ان يجـــدوا الحجة المقدسة للوصول الى البحر الاحمر .

اثر انهيار الامبراطورية العثمانية وخلع سلطان الاستانة ، فرغ مركز الخلافة الاسلامية . وفي الخــامس من آذار سنة ١٩٢٤ ، في احتفال رسمي ، اعلن الشريف حسين نفسه خليفة على المسلمين ، على الرغم من معارضة عدد كبير من مستشاريه لمثل هذا التصرف . وقد اثار هذا العمل سخط الوهابيين وزاد القضية تأزماً ان موسم الحج قد قرب ولا بد من ان يذهب « الاخوان الاتقياء » الى مكة الواقعة في مملكة الهاشميين لتأدية الفريضة المقدسة .

وخوفاً من ان تعتبر هذه الرحلة اعترافاً « صريحاً » بخلافة حسين الهاشمي على المسلمين ، منع عبد العزيز بن سعود الحج منعاً باتاً على محاربيه الذين ثارت ثائرتهم ، وبلغت النقمة اشدها في صفوف « الاخوان » . عندئذ جمع ابن سعود رفاق النضال ليشرح لهم انه لا يجد اي ضرر في الهجوم عــلى مكة وباقي الاماكن المقدسة في الحجاز والاستيلاء عليها ، واعادتها الى الاسلام الصحيح ، أي الى المذهب الصارم الذي دعا اليه محمد بن عبد الوهاب . فاستقبل « الاخوان » التواقون للحرب هذا الاقتراح بحماسة زائدة ، وراحوا دون ابطاء يستعدون لهذا الحج الفريد.

ونتيجة لذلك ، في آب سنة ١٩٢٤ ، وصــل الحجاج المحاربون الوهابيون الى الطائف جنوب شرقي مكة ، المقر الصيفي للملك . فهرب الحسين الى مكة حيث أسرع في التنازل عن العرش لابنه علي . وبعد

بضعة أيام ، اضطرت القوات الهاشمية الى اخلاء مكة لتدخلها ، دون مقاومة ، قوات ابن سعود الوهابية . وقبل اتمام فريضة الحج نظف الاخوان المدينة المقدسة ، من المذابح العديدة التي تُعطي صبغة وثنية .

خلال هذا الوقت ، بدأت فلول الهاشميين الذين لجأوا الى جدة حول ملكهم المنهار ، تنزح والغصة تأكل القلوب ، عن أرض الحجاز حيث سادت العائلة الشريفة قرابة ثمانية قرون . أما حسين العجوز فقد انسحب بعد قليل من الوقت ، الى قبرص ، في ظل الحماية البريطانية التي كفلت مستقبل ولديه فيصل وعبد الله بتنصيبهما على عرشي العراق والاردن اللذين أوجدا لهذه المناسبة بعد محاولة دمشق التي أحبطها الجنرال غورو .

تنظيم الفتوحات

في فجر سنة ١٩٢٥ ، بعد مرور ثلاث وعشرين سنة على احتلال الرياض ، صار عبد العزيز بن سعود سيد الاراضي الواقعة بين الخليج العربي والبحر الاحمر وبين رمال النفوذ والربع الخالي . وفيما عدا الكتل الجبلية في اليمن وعمان ، والشاطىء الممتد من باب المندب الى قطر ، اصبح الزعيم البدوي يسيطر على اهم ما في الجزيرة العربية . ولكن سلطانه لم يكن قد تركز بعد ، ولذلك تخلى موقتاً عن كل مشروعاته الحربية التوسعية . وفضل ان يصرف كل جهوده في تنظيم فتوحاته . كان مقصده ان يعطي هيكلاً ادارياً لهذه الاراضي المتفاوتة في ظروفها وفي تقاليدها ، وتوحيدها واقرار الامن والسلام فيها . وكان لا بد من هذا العمل ليتم خلق المملكة العربية السعودية .

بعد زوال الهاشميين من الحجاز ، دخل سلطان نجد وملحقاتها الى جده في الخامس والعشرين من كانون الاول سنة ١٩٢٥ . واعطى لممثلي الدول الاجنبية ضمانات مطمئنة ، كما تأكد من حسن نواياهم

تجاهه . وبعد بضعة ايام دخل مكـــة حيث اعترف به في الثامن من كانون الثاني سنة ١٩٣٦ ، مجمع ضم الاعيان ورجال الدين ، « ملكاً على الحجاز » . وأصبح لقب عبد العزيز بعـــد ذلك « ملك الحجاز وسلطان نجد وملحقاته » .

كان الملك الجديد يشعر شعوراً مكيناً بمدى التفاوت في التطور بين الحجاز ونجد وباقي المقاطعـــات . وفي الحادي والثلاثين من آب سنة ١٩٢٦ اعلن عبد العزيز قانوناً تنظيمياً سمي « دستور » مملكة الحجاز . وعلى الرغم من انه قد طرأ مراراً تعديل على هذا الدستور الذي ظلت بعض اقسامه حبراً على ورق ، فإنه كان وما زال احـــدى الوسائل الرئيسية التي نظمت بموجبها الدولة السعودية الموحدة . والنص الرئيسي في رأينا هو ذاك الذي جاء في المادة الخامسة التي تعلن :

« ان السلطة الكاملة لمملكة الحجاز هي بين يدي جلالة الملك عبد العزيز الاول بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود . يستوحي جلالته ادارتها من الشريعة الاسلامية » .

هذا ويجب ان نلفت الانظار الى انه لا يوجد دستور للمملكة كلها ، لذلك يعتبر دستور الحجاز دستوراً لها كلها . وفي عام ١٩٣٢ اعلن عن قرب سن دستور جديد للمملكة العربية السعودية . ولكن فيما عدا بعض التعديلات التي طرأت على دستور الحجاز ، لم تنشر اية قوانين دستورية إلا نظم مجلس الوزراء والاجهزة التابعة له وقد صدرت في السابع عشر من آذار سنة ١٩٥٤ .

ومنذ وضع عبد العزيز آل سعود يده على الاماكن المقدسة الاسلامية اعترفت الدول الكبرى وعلى رأسها بريطانيا وفرنسا به سيداً على هذه الاماكن . وفي التاسع والعشرين من كانون الثاني سنة ١٩٢٧ ، صدرت ارادة ملكية باعلان نجد وملحقاته مملكة وضمها الى الحجاز . ولم تتوان بريطانيا في الاعتراف بالوضع الجديد في معاهدة جدة الموقعة في العشرين

من ايار سنة ١٩٢٧ بينها وبين عبـــد العزيز بن سعود . وقد جاء في المادة الاولى من هذه المعاهدة ما يلي : « ان حكومة صاحب الجلالة ملك المملكة المتحدة تعترف باستقلال وسيادة ملك الحجاز ونجد وملحقاتها » وفي المادة السادسة يعترف الملك عبد العزيز بمركز بريطانيا الممتاز في الكويت والبحرين وقطر وشاطىء القراصنة ، متعهداً باحترام هـــذا المركز وابقاء العلاقات الودية المسالمة مع هذه الاقطار .

وبعد ذلك وقعت اتفاقات ملحقة سوّت الامور بشأن الحدود مـــع الجيران الشماليين العراق وشرقي الاردن والكويت الذين كانوا جميعاً لا يزالون تحت الانتداب او في ظل الحماية البريطانية .

لقد كان لمعاهدة جدة اهمية خاصة . ولنا ملء الحق ان نعتقد انها تشكل الصك الرسمي لولادة المملكة العربيـــة السعودية ككائن دولي ودخولها فيما اتفق على تسميته « « اسرة الامم » وذلك لأن المعاهـــدة أبطلت مفعول المعاهدة المشينة الموقعة في عام ١٩١٥ وحلت محلها ، مزيلة بذلك روابط التبعية المباشرة لبريطانيا . لقد كانت تلك المعاهدة القديمة تضع عبد العزيز بن سعود في مصاف مشايخ شاطىء القراصنة الصغار المتنازعين : واما المعاهدة الجديدة في جدة فقد رفعت الامير المنفي في الكويت الى مصاف ملك يبسط سلطانه على مملكة مترامية الاطراف .

والجدير بالذكر ان هذا الاتفاق لم يكن من رأي الرعيـــة كلها ومعاهدة جدة اثارت نقمة « الاخوان » الذين غضبوا وثاروا لحرمانهم من احتلال بلاد ما بين النهرين الخضراء الخصبة وذلك فجأة بتوقيع معاهدة مع المارقين . وكثيرون من زعماء الاخوان الكبار تمردوا وأعلنوا العصيان فتعرض عرش ابن سعود الحديث العهد الى تجربة عنيفة قاسية وبين عامي ١٩٢٧ و ١٩٢٩ اضطر الملك البدوي مرغماً الى ان يحارب المتمردين الذين لم يستطع اقناعهم بالحسنى بصدق نواياه . وبفضل ما تكبده الملك في اخضاع المتمردين برهن عبد العزيز عن صلابته وتمسكه

في المحافظة على ما كافح من اجله طيلة ربع قرن . وبتصفيته ونفيه الزعماء المتمردين اكد الملك سلطانه وسيادته بصورة لا تقبل الشك ؛ وقد كانت هذه التجربة فائقة الاهمية بالنسبة للملك : ولمس سيد الحجاز مكافأته في نهاية عام ١٩٢٩ ، عندما رفعت قنصلية فرنسا في جدة الى رتبة مفوضية . ولم يمض وقت طويل حتى كانت الدول الاخرى الممثلة في العربية السعودية تحذو حذو فرنسا.

المرحلة النهائية

اتخذ اجراء آخر لتوحيد الامبراطورية السعودية وتدعيمها بعد ثلاث سنوات ففي الثامن عشر من ايلول سنة ١٩٣٢ ، صدرت الارادة الملكية ذات الرقم ٢٧١٦ وجاء في مادتها الاولى :

« يستبدل باسم مملكة الحجاز ونجد وملحقاتها اسم المملكة العربية السعودية . ومن الآن فصاعداً يصبح لقبنا « ملك المملكة العربية السعودية » .

واما المواد الثالثة والرابعة والخامسة من المرسوم فتؤكد ان هذا التغيير في الاسم لا يؤثر في شيء في المعاهدات والانظمة المعمول بها ، ولا في انظمة الملحقات . وتعد المادة السادسة بدستور جديد عام ونحن نلاحظ ان شيئاً من هذا القبيل لم يتم .

وعلى الرغم من العرف المتبع الذي اعتبر بموجبه القانون التنظيمي للحجاز دستوراً للمملكة السعودية ، فإن تجزئة المملكة اقليمياً حوفظ عليها مبدئياً بابقاء نيابة الملك في الحجاز ، ولوناً من الوان الاستقلال الذاتي المحلي في المقاطعات الاخرى . ويمتاز الحجاز بادارته المتطورة المنظمة نوعاً ، وذلك يعود الى صفته الدولية التي تقتضي نظماً ادارية اكثر تعقيداً .

ويجب مع ذلك ان نتذكر جيداً المادة الخامسة من الدستور الشهير ، اذا كنا نريد ان نفهم حقيقة الاوضاع الداخلية في العربية السعودية اي انه يجب ان نبدأ من فوق : من الملك . والملاحظـــة التي تفرض نفسها بسرعة على الحقول السياسية والاقتصادية والاجتماعية والقانونية ، هي حصر السلطات جميعها من حكومية وادارية وقضائية في شخص الملك.

ومهما يكن المستوى والمجال ، لا يمكن اتخاذ اي قرار هام الا بعد الرجوع الى الملك . والتمييز التقليدي بين السلطات الذي اعتادت عليه دول الغرب لا معنى له هنا . وجميع الصلاحيات التشريعية والتنفيذية كل ذلك يقوم باعبائها شخص واحد فرد . وحتى المهام الثانوية في الادارة يشرف عليها الملك اشرافاً مباشراً وفعلياً في اكثر الاحيان . واذا اضفنا الى ذلك ان ملك العربيـــة السعودية هو في نفس الوقت الامام الاعلى للوهابيين ، والقاضي الاكبر ، والمفسر الاكبر للشريعة ، نصل الى الاستنتاج التالي الذي يقول بأن مملكة الحق الالهي السعودية الوهابية تشكل اصدق واكمل مثل عن الملكية المطلقة . واليمن وحدها المملكة الاخرى في الجزيرة العربية يمكنها ان تنافس السعودية في مجال النظام الملكي المطلق .

وقد جرت محاولات قبيل موت عبد العزيز ، لاجراء بعض الاصلاحات الجزئيـــة الصغرى من اجل تلطيف الصفة الاستبدادية في نظام الحكم السعودي . ولكن تلك المحاولات بقيت محدودة . وكي نفهم العربية السعودية يجب ان نتذكر السلطة الفردية المطلقة في نظام الحكم .

٥

العربية السعودية في القرن العشرين

الى جانب سلطة الملك غير المحدودة يبدو جهاز التنظيم السياسي الذي يمكننا ان نصفه بأنه قليل الاهمية.واولئك الذين سمحوا لانفسم بالاعتقاد بأن الملك سعود سيكون اقل استبداداً ، عرفوا بكل بساطة خيبة الأمل الكبرى : ففي عام ١٩٥٨ ، كما هي الحال منذ ثلاثين سنة ، ما زال يدير البلاد سيد العربية السعودية ، ويتصرف بالممتلكات والسكان كأنه يتصرف بأملاكه الشخصية الخاصة .

والملك الحالي سعود بن عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود المولود عام ١٩٠٢ كان قد عيّن ولياً للعهد عام ١٩٣٣ ليخلف عبد العزيز الكبير بعد ممات هذا الاخير في التاسع من تشرين الثاني سنة ١٩٥٣ ؛ ويلقب الملك سعود احياناً ابن سعود الثاني ، وهذا امر واضح خطأه : خلال العشرين سنة الاخيرة التي كان فيها رسمياً الشخص الثاني في المملكة ، حاز الابن الاكبر للملك الراحل شيئاً فشيئاً مركزاً ازدادت اهميته مع الايام ، بتوليه قسطاً كبيراً من ادارة الحكومة : وتعلم ، اثناء

ذلك ، مهنة المستقبـــل ، وفي نفس الوقت اعتاد اخوته على احترام سلطته . ويشرح ذلك الاختصاصي في شؤون الجزيرة العربيـــة ، جون فيلبي ، الذي كان صديقاً للملك عبد العزيز وشاهد عيان للتاريخ السعودي اذ يقول : عندما بدأت القوى الجسدية والعقلية للملك الراحل تضعف في السنوات الاخيرة من حياته الحافلة ، تحمل سعود باسم والده ، قسطاً زادت اهميته مع الايام ، من ادارة البلد . وهذا الامر الواقع اصبح قانونيـــاً ، قبيل موت الملك عبد العزيز بأسابيـع عندما انشىء مجلس للوزراء مسؤول امام الملك . وهكذا اصبح ولي العهد والقائد العام للقوات المسلحة ، رئيساً للوزراء ، بينما تولى اخوه فيصل وزارة الشؤون الخارجية ونيابة رئاسة الوزارة . وعملياً كانت قد انشئت عدة وزارات خلال مدة ولاية الملك عبد العزيز ولكن بطريقة اعتباطية ، والذين تولوها لم يكونوا سوى مستخدمين مكلفين بتنفيذ قرارات الملك ، وبتقديم مقترحاتهم اليه . ولم يكن هنـــاك ، فيما خلا الملك ، اي جهاز مركزي لتنسيق سياسة المملكة . وقبيل مماته بشهر من الزمن ، في التاسع من تشرين الاول سنة ١٩٥٣ عقـــد الملك عبد العزيز لاول مرة مجلساً للوزراء جعل ابنه الاكبر وولي عهده الامير سعود رئيساً له كما عيّن ابنه الثاني الامير فيصل نائباً لرئيس مجلس الوزراء .

وبعد موت الملك ببضعة اسابيع ، اصبح سعود رئيس الوزراء ، وولي العهد السلطة العليا في المملكة بدوره . وبدت الهيئة الجديدة اي مجلس الوزراء كأنها فقدت وجودها واعتبر المراقبون المأذون لهم ، في تلك الحقبة ، وخاصة جون فيلبي ، تسنم الملك الجديد سدة العرش عودة الى السلطة المطلقة الفردية . ومع ذلك ، خلال الاشهر الاولى لولاية الملك الجديد ، انشئت وزارات جديدة ، هي التعليم ، والزراعة في ٢٤ كانون الاول سنة ١٩٥٣ ، والتجارة في ١٧ آذار سنة ١٩٥٤ ، كما اعيد تنظيم وزارات اخرى كوزارتي المالية والاقتصاد . واصبح الامير فيصل بدوره

الشخص الثاني في المملكة بعد ان أعلن ولياً للعهد.. ترى هل ادّى ذلك الى تلطيف النظام ؟

وبسبب المضاعفات والتعقيدات الناشئة عن المهام الحكومية ، مال الملك الى التخلص من المهام الثانوية . لذلك وسع مجلس الحجاز الاستشاري ليضم ممثلين عن كل المقاطعات . ومع ذلك بقي الملك المرجع الوحيد لجميع السلطات لا يتخلى عن شيء من سلطاته الا عندما يرى ذلك مفيداً ، والذين يختارهم الملك ويضع ثقته فيهم يكونون مسؤولين امامه، وامامه فقط عن كل عمل يقومون به .

مجلس الوزراء

يجب ان نحذر في سياق هذا الكلام ان نحكم على امور العربية السعودية ، من خلال تجربتنا الغربية فقط لمثل هذه الامور . ان الكلمات هنا لا ترتدي المعنى الذي اعتدناه نحن ان نعطيها اياه في الغرب . اذا تذكرنا ذلك بالنسبة لمجلس الوزراء ، امكننا ان نعتبره خطوة كبرى في طريق التقدم .

بدأت الدورة الرسمية الاولى لمجلس الوزراء في الثامن من آذار سنة ١٩٥٤ . وبعد ايام ، في السادس والعشرين من آذار ، نشرت : « ام القرى » الصحيفة شبه الرسمية ، نص مرسومين ملكيين عن تنظيم مجلس الوزراء والاجهزة التابعة له . وبعد خمسة اشهر في السابع عشر من آب سنة ١٩٥٤ ، صدر قرار اكثر اهمية يكرس التغييرات الجديدة التي حصلت في جهاز البلاد الحكومي . ويقضي بتعيين الامير فيصل ولي العهد ووزير الخارجية ، رئيساً لمجلس الوزراء . وبهذا القرار التاريخي اظهر الملك سعود عن رغبته في الابقاء على مجلس الوزراء ، حتى ولو كان المجلس واعضاؤه قد بقوا بدون سلطات ، وتوجّب عليهم ان

يحصلوا على موافقة الملك على كل عمل يبغون تحقيقه :

ان المراسيم الملكية الصادرة في الثامن عشر من رجب ١٣٧٣ ﻫ . الموافق للسابع عشر من آذار سنة ١٩٥٤ ، والمنشورة في صحيفة « ام القرى » يجب ان تعتبر دون أدنى شك ، قوانين دستورية . والاجراءات التي تتخذها هي الاهم لتسيير الدولة منذ دستور ١٩٢٦ والمرسوم الاول ينظم مجلس الوزراء ، بينما يحدد الثاني مهام الاجهزة المرتبطة به :

ويذكر المرسوم الاول ان مجلس الوزراء يتألف من وزراء عاملين ، يعينون بمرسوم ملكي ، ومن مستشارين للعرش يعتبرون عملياً كأعضاء مجلس الوزراء ، ومن كل شخص يعتبره الملك نافعاً للمناقشة . انه اذن نوع من المجالس الحكومية المعينة بكاملها بواسطة الملك دون اي تحديد مسبق . والوزراء مسؤولون امام الملك وأمام مجلس الوزراء . واستقالتهم يجب أن تحظى بموافقة الملك .

ويدير مجلس الوزراء نظرياً سياسة الدولة الداخلية والخارجية ، وهو مكلف على الاخص بالموافقة على الموازنة والمعاهدات والاتفاقيات الدولية ، والعقود الخاصة بمنح امتيازات أو قروض تزيد قيمتها على ثلاثين مليون ريال سعودي . وهو ايضاً مخوّل بالموافقة على تأليف الشركات المساهمة ، واعطاء ترخيص للعمل في المملكة لشركات اجنبية ، وحل النزاعات التي تكون الدولة طرفاً فيها ، اذا كان موضوع الخلاف تزيد قيمته على خمسين مليون ريال سعودي ، ثم تعيين وعزل كبار الموظفين ، وخلق وظائف جديدة لم يرد ذكرها في الموازنة ، والتوقيع على كل العقود الخاصة بتشغيل الاجانب . وكان يمكن أن تبدو الصلاحيات التي ذكرنا أكثر جدية ورصانة لو أن المادة التالية من المرسوم لم تشترط لتصبح مقررات مجلس الوزراء نافذة ، الموافقة عليها بالأكثرية ، وبحضور ثلثي أعضاء مجلس الوزراء على الأقل ، واقترانها بتوقيع الملك . والمواد الاخرى تقتصر على شرح كيفية عمل الجهاز

روتينياً . اذن لقد بقي الملك ، السلطة التي تعين الوزراء وكل من يراه صالحاً للاشتراك في جلساته ، السلطة الوحيدة التي لها حق اتخاذ قرار ووضعه موضع التنفيذ .

والمرسوم الخاص بتنظيم مجلس الوزراء يقول في مادته التاسعة عشرة إن ديواناً سيحدث لمعاونة المجلس وهو مؤلف من الاجهزة التالية : أمانة عامة ، ديوان محاسبة ، مكتب فني ، ومحكمة المظالم . وهناك نص آخر يحدد مهام كل من هذه الاجهزة .

أما ديوان المحاسبة فمهمته تدقيق حسابات الدولة والتصريح عن صحة المبالغ المسجلة في حساب الداخل والخارج في كل الاجهزة التابعه للدولة ويراقب نشاط هذا الديوان رئيس يحمل اسم المراقب العام، يعينه الملك ويكون مسؤولا امامه . وعلى المراقب العام أن يحرص على الا تتم حركة نقل أموال في صناديق الدولة ، دون أن تكون مسجلة بدقة . وهو مكلف ان يقدم تقريراً سنوياً عن موازنة الدولة ، ومخول أن يقدم اقتراحاته بشأن الشؤون المالية . وقد أدى انشاء هذا الجهاز بعد مرور ستة أشهر فقط الى فتح تحقيق واسع عن الوضع المالي في البلاد وقد تبين بعد ذلك أن وزير المالية كان قد جمع ثروة طائلة اسطورية أدت الى عزله عن منصبه .

وبخصوص الخبراء الفنيين فهم يلحقون بمجلس الوزراء ومسؤولون أمامه . وهم يبدون آراءهم في القضايا التي يعرضها عليهم رئيس الوزراء او الوزير المختص ، كما تقول المادة الخامسة عشرة من المرسوم الملكي وانشاء هذا الجهاز من الخبراء في كل الفروع بات ضرورة ملحة لعدم كفاءة الاشخاص المكلفين بالمهام العليا في الدولة . وديوان المظالم أخيراً هو نوع من الدواوين الادارية . يشرف عليه رئيس يعينه الملك ويكون مسؤولا أمامه . ويتلقى الديوان ويسجل كل شكوى تقدم اليه ، ويجري التحقيق اللازم ، ثم يرفع للملك تقاريره مشفوعة باقتراحات عن

الاجراءات التي يراها مناسبة لكل حالة . ولرئيس وأعضاء ديوان المظالم سلطة استدعاء الموظفين الذين لهم علاقة بهذه الشكاوى بعد أن يُعلموا الوزير صاحب العلاقة ، بذلك مسبقاً .

ان انشاء الاجهزة التابعة لمجلس الوزراء وعلى الاخص ديوان المحاسبة وديوان المظالم ، بات بالغ الضرورة لفقدان الشعور بالمسؤولية في الحياة العامة . وقد كلفت هذه الاجهزة الجديدة بمراقبة سلوك كبار الموظفين المهملين . ولكن كبار المسؤولين أي الامراء وأشقاء الملك بصورة خاصة ، لا تصل اليهم سلطة هذه الاجهزة . ويمكننا أن نرى هنا السبب الذي من أجله يصر الملك على أن يشرف شخصياً على الادارة ، ولذلك ما زالت فعالية هذه الاجهزة ضعيفة .

الوزارات

وأعضاء الحكومة الذين يجتمعون في مجلس الوزراء هم الذين يتولون الوزارات التالية : الزراعة ، التجارة ، المواصلات ، الدفاع ، التعليم ، المالية والاقتصاد الوطني ، الداخلية والصحة العامة ، والى جانبهم عدد من وزراء الدولة (سبعة عام ١٩٥٧) بينهم الشيخ يوسف ياسين وكيل وزارة الخارجية . وقد كلف امراء الاسرة المالكة تولي شؤون وزارات الداخلية والمواصلات والتعليم والدفاع . اما وزارة الخارجية فقد تولاها منذ انشائها ولا يزال الامير فيصل الذي اصبح في عام ١٩٥٤ ولياً للعهد ، بالاضافة الى منصب رئاسة الوزارة . والى كل هذه المهام زيدت مؤخراً مركز نيابة الملك في الحجاز . ويبدو من ذلك أن الملك سعود أراد أن يغدق الألقاب والمناصب على أخ قيل إنه طموح وقادر على أن ينازعه العرش .

وهناك عدد من الادارات والاجهزة الوزارية ، تعمل مع ذلك الى

جانب الوزارات الكبرى . وهكذا أنشئت عام ١٩٥٥ وزارة للانباء والارشاد القومي ، تقليداً للوزارة المماثلة في مصر .

ومع أن المراكز المهمة قد سلمت الى أشقاء الملك او حلفاء الاسرة المالكة ، فان أهمية هؤلاء الاشخاص قد بقيت محدودة نسبياً حتى أبرزهم الامير فيصل والخبراء الذين وضع الملك ثقته بهم يستحقون اهتماماً واعتباراً أرفع . ولذلك نجد ، كما أشار اليه جون فيلبي ، المراسيم المنشورة بعد تولي سعود تحمل توقيع الملك نفسه ولا نعثر إلا على حالة او اثنتين عهد بهما الى رئيس الوزراء . وعبثاً نحاول اذا فتشنا على أمر حكومي لا يحمل خاتم الملك ، حتى في حقل الشؤون الخارجية ، الوزارة التي كلف مسؤولياتها نظرياً الامير فيصل .

هذا وقد كان التنظيم الملكي السعودي والنتائج المترقبة عليه موضع نقد شديد من قبل جون فيلبي في بداية عهد سعود . اذ خيل للصديق القديم ومستشار الملك الراحل أنه يملك صلاحية نقد نظام الحكم القائم في العربية السعودية . وكنتيجة لموقفه هذا طرد جون فيلبي في السابع عشر من نيسان سنة ١٩٥٥ من البلد الذي اختاره وطناً له ، بعد اقامة ثماني وثلاثين سنة فيه .

اضرار الفساد

تتيح لنا انتقادات جون فيلبي ان نفهم الصعوبات الفادحة التي تواجهها الحكومة السعودية . ان المملكة العربية السعودية الوهابية ، لم تتوحد الا مؤخراً وقبل أن يقسو عودها حيث الثروة البترولية كأنها حمل جديد ثقيل الوطأة . والتغيير الملكي الذي حصل في تشرين الثاني ١٩٥٣ ترك املاً في التجديد والتطوير ، كان عجز عبد العزيز ومرضه يحولان دون ذلك . وكان جهاز الدولة قد وصل حينذاك الى درجة من

الفساد لم يعد في استطاعة أحد انكارها . وهذا جون فيلبي يصف لنا بالعبارات التالية الاوضاع في السعودية لدى تسنم سعود سدّة العرش :

بدأ الملك الجديد عهده بميزة لم يكن والده الذي شغل بقضايا اخرى في إمكانه ان يستفيد منها . الا وهي معرفة وتجربة كاملتان للعيوب المتفاقمة النقائص التي استشرت في الجهاز الاداري في البـــلاد بسبب النقصان الفاضح في رجال الاختصاص اذ ان الاختصاصيين الموجودين — لنقل بصراحة — كانوا من مستوى منخفض الى درجة مؤسفة من حيث فهمهم للمسؤليات التي تفرض الايثار والدقة . وهؤلاء اختيروا دون نظام من حثالات النخبة المثقفة « الانتليجانسيا » التي يمكن العالم العربي ان يزوّد العربية السعودية بها ، في الوقت الذي تشعر فيه أنها في امسّ الحاجة لذلك . ويكفي ان نعلم بأن الكثيرين من الموظفين في دوائر الحكومة ، قد بدأوا من لا شيء ليصبحوا فيما بعد من كبـــار الاثرياء .

« ولم يكن التجار المحليون وحدهم الذين سمح لهم ان يلعبوا دوراً بارزاً في ادارة الشؤون العـــامة كموظفين ، بل ان الاشخاص الذين اختيروا خصيصاً للخدمات العامة ، لم يجدوا هم الآخرون عقبات تقف في طريق توسيع اعمالهم التجارية الخاصة ، لتحسين اوضاعهم الاقتصادية . والفعالية اذا لم نقل العفّة لا يمكن ان تفتش عنها في نظام يدرس فيه كل عقد بيع أو شراء تحتاجه الحكومة درساً دقيقاً ، ليس من جهة قيمة العروض المقدمة ، بل من وجهة نظر الموظفين الخاصة ، الذين يمكن ان يكونوا وسطاء في هذه العمليات لقاء عمولة من قبل الذي يرسو عليه العقد . »

ويتابع جون فيلبي كلامه فيفضح كيف استشرى الفساد في النظام القائم باستمرار في الادارة الحكومية فيقول :

« قلائل جداً هم الموظفون ، الذين ليس لهم مصلحة ، عن طريق

عمولة او رشوة أو غير ذلك ، في هذه او تلك من الشركات المتعددة المختلفة الجنسيات والمتنافسة اليوم من اجل الحصول على العقود او العروض المقدمة من حكومة العربية السعودية ... »

ثم يتحدث عن العصبية العائلية في السعودية ويقول :

« هناك نقيصة اخرى في النظام القائم ، ناجمة عن ذلك الميل الطبيعي لدى كبار الموظفين لاختيار الجهاز الوظيفي التابع لهم من بين ابناء عائلاتهم واصدقائهم ، وبذلك يخلقون ما يمكن تسميته فريقاً « ماسونياً» يحركه ولاء داخلي يعلو فوق الولاء الاسمى المتوجب نحو الملك والدولة..

« ... ونقطة اخرى من طراز مشابه قد تكون اهميتها اكبر ، وهي الميل ، الذي كان قد بدأ كبيراً في السنوات الاخيرة من ولاية الملك الراحل عبد العزيز ، الى تغيين أفراد العائلة المالكة في مراكز ادارية ليس عندهم اي استعداد او خبرة لها . وبسبب بقائهم شخصياً في منجى من الانتقاد لصفتهم العائلية ... قد تؤدي اخطاؤهم في الحكم على الامور أو عدم تجاربهم ، الى تحميل العهد والنظام كل ملامة ... »

واخيراً يحذر فيلبي من اختلاس وتبذير اموال الدولة :

« ... اثناء العقد الاخير مثلاً ، لم تنشر الموازنة السنوية سوى ثلاث مرات لاخذ العلم بها ، وفي اية مرة من المرات الثلاث لم تعط الارقام المنشورة الرأي العام فكرة صادقة جلية عن الطريقة التي تم بواسطتها صرف اموال الدولة لصالح البلاد . »

ويستنتج المستشار السابق للملك عبد العزيز من كل ذلك قوله :

« ... لقد قيل ما فيه الكفاية عن موضوع الفساد الذي يعتبر المشكلة الادارية الرئيسية المعروضة على الملك سعود بالحاح . ويبدو ان الكثيرين من كبار الشخصيات يجهلون مداه ... »

وعلى الرغم من ان الملك سعود بدا كأنه أخـــذ بعين الاعتبار التحذيرات القاسية الموجهة من فيلبي في تشيكلاته الاصلاحية التي اجراها

عام ١٩٥٤ ، فان جوهر الامور لم يتغير . لأنه في سبيل ذلك كان يجب ان تتخذ اجراءات أكثر جذرية وفعالية من تلك التي اكتفى باتخاذها . وينقص الحاكم خاصة ، الجهاز الاختصاصي الرفيع الذي لا يمكن المملكة العربية السعودية ولا الاقطار العربية الاخرى ان تزود به . ازاء هذه الحقائق القاسية الجارحة فضل الملك الطريقة الرجعية ، والخطرة على المدى الطويل ، التي تقضي بأن يستند على القوى المحافظة لسحق كل معارضة ◊

المقاطعات

لقد سبق ورأينا ان التركيب الاداري الداخلي للدولة السعودية ، ظل محتفظاً بالجذور المتعددة السابقة لبروزها . وفي الواقع لقد اعتاد البعض في اكثر الاحيان ان يقارنوا بين الحجاز وباقي المقاطعات المسماة نجد وملحقاته ، وفي ذلك خطأ فادح لان كل قسم في الامبراطورية ينعم بلون من الاستقلال الذاتي ادارياً . وجميع الدول والامبراطوريات التي قد تجمعت اجزاؤها عن طريق الاحتلال والتوسع هي على غرار ذلك . والحجاز الاكثر تقدماً يقدم اصدق مثل على هذه اللامركزية التي فرضتها الفوارق الاجتماعية والثقافية ، الى جانب اتساع البلاد . وقد لاحظ ك. س. تويتشل ، المهندس الاميركي ، الذي كان وراء اكتشاف ثروات العربية السعودية المعدنية ، ان البلد منظم سياسياً حسب الاقسام الرئيسية الاربعة المتجاوبة مع الممالك التي كانت فيما مضى مستقلة والتي تشكل اليوم المملكة العربية السعودية . ويعتقد هذا المراقب ان « كل قسم سياسي يمكن اعتباره شبيهاً بولاية في الولايات الاميركية المتحدة » الامر الذي لا يبعد كثيراً عن الواقع . والممالك الاربع القديمة التي تشكل المقاطعات اليوم هي : الحجاز ، نجد ، الاحساء ، وعسير .

أكثر من مرة اوضح المسؤولون ان المملكة انمــا تتألف من نيابتين للملك ، وهذا الأمر يمكن اعتباره صحيحاً في عهد الملك عبد العزيز . وفي الحقيقة ان الحجاز وحده يستحق ان نسميه نيابة للملك ، لأن باقي الامبراطورية كان قد قسم الى مقاطعات .

وكانت نيابة ملك الحجاز من نصيب الامير فيصل الذي يديرها مباشرة من عاصمتها مكة المكرمة . والادارة تضم اجهزة الشريعــة والشؤون الداخلية والخارجية والمالية والتعليمية والدفاعية وستة اعيان . وبموجب الحركة الاصلاحية الأخيرة وسع هذا المجلس ليضم عدداً اوفر .

والمدن الكبرى، على الأخص، جدة الميناء الرئيسي والعاصمة الدبلوماسية والمدينة المنورة ، مدينة مقدسة اخرى مزودة بمجلس استشاري . ومجالس النواحي تدير الاقاليم الريفية باشراف رؤساء محليين يساعدهــم بعض الأعيان . ويوجد على العموم تسع عشرة دائرة ، بمــا في ذلك المدن الخمس الهامة : جدة ، المدينة ، مكة ، الطائف ، ينبع . وهذه المدن تتمتع ايضاً بمجالس بلدية . وكل قرية او قبيلة يدير شؤونها مجلس يرئسه شيخ بمعاونة الاعيان ، والمراقبة الدينية صارمة في جميع هذه المجالس .

أما نجد وملحقاته فيدير شؤونه ، على الصعيد العالي ، الملك نفسه من عاصمته الرياض . مع لامركزية افقية وعامودية لا بد منها . وهكذا نجد ، في القصيم وشمّر التي تشكل قلب البادية ادارة مختلفة عن ادارة الاحساء المندفعة في طريق التصنيع ، وعسير أرض المزارعين الجبليين .

ان الاحساء التي اصبحت منطقة بترولية بالغة الاهمية تنعم باستقلال ذاتي واسع في ظل ادارة حاكم عام يختاره الملك مسؤول امامه مباشرة . وعسير الاكثر بعداً تنطبق عليها نفس الحالة ، وهي مقسمة الى ناحيتين : ان الحالة في الاحساء ، وعسير منوطة بحاكم عام ، والحجاز بنائب ملك ، ونجد تحت اشراف الملك نفسه وهذه كلها وحدات شبه مستقلة

تعتمد في شؤونها العامة (المالية والدفاعية والخارجية ...) على السلطة المركزية في الرياض . وجميع الاقسام الثانوية الاخرى مثل القصيم وشمر في الشمال ، ونجران في الجنوب الغربي ، تتبع هـذه او تلك من المقاطعات الاربع الكبرى . والحكام لهم على العموم سلطة واسعة ، بما في ذلك حق الحياة أو الموت على أتباعهم ، وذلك لأنهم يشكلون عادةً أعلى سلطة قضائية في منطقتهم . وعلى العموم لا يحدُّ سلطتهم الا العلماء الذين يمكنهم في كل وقت ان يعطوا الرأي الأخـير في كل أمر له علاقة بالدين . وليس ذلك بمستغرب في بلد إسلامي ، يشمل الدين فيه جميع حقول الحياة .

البـــدو

ان أهم مشكلة داخلية في المملكة السعودية هي سكان الصحراء البدو أو نصف الحضر . ومنذ سنوات قلائل دعي البدو الذين يفتخرون بطريقة حياتهم الحياتية الى تركها ، لأن ابن سعود قد فهم انه لن يتمكن من قبض ناصية الامور في امبراطورية نصف سكانها ينتظمون في حياة قبلية مستقلة ، تخرج عن نطاق الرقابة الصارمة التي تفرضها السلطة المركزية . وكما فعلت الحكومات الكثيرة الاخرى من وطنية واستعمارية ، قام الملك البدوي بجهـد كبير لتوطين البدو الرحّل في أماكن معينة . وبفضل الحركة الدينية للاخوان نجح في تحضير حوالي الثلث . وبذلك خفف من فداحة المشكلة ، ولكنه لم يحلهـا . واذا كان التحول السريع للبيئة الجغرافية والاجتماعية والطرق الحياتية قد ساعد في الاحساء البترولية من أجل القضاء على « حياة البادية » فان قبائل كبيرة ما زالت حريصة على طرقها الحياتية في أواسط الجزيرة العربية . وما زال هناك دائماً مساحات شاسعة من الصحارى تحت متناول هذه القبائل لترحل فيها من

مكان الى آخر .

ومن أجل حكم هـذه القبائل احتفظ بالنظام التقليدي وألحق بدائرة الشؤون البدوية . وسلطة الملك ابن سعود على هؤلاء الرعايا المزعجين قامت على أساس « معاملة الزبائن » . وهذه الطريقة التي قلدها البريطانيون في مناطق نفوذهم العربية ، تقضي بأن يوزع باستمرار ، وفي أوقات معينة ، على مشايخ القبائل مبالغ من المال تختلف قيمتها حسب أهميـة القبيلة من حيث الرجال والجمال والبنادق التي يمكن ان تؤمنها .

ويمكن القول بهذا الخصوص ان أهم عامل مكن العاهل الراحل من السيطرة على هذه القبائل الهائمة كان زواجه « السياسي » وزواج أبنائه : لقد أقدم الملك ابن سعود تباعاً ، ببصيرته النافذة ، على الزواج من اميرات من القبائل الأخرى أو الأكثر ازعاجاً . وتبعه كبار أبنائه في هذا المضمار ، واقتفوا آثاره ، وذلك لدرجة انه في الوقت الحاضر ، يمكننا القول ان العائلة المالكة تمثل شبكة متراصة بين عائلة آل سعود والعائلات الكبرى الاخرى أو القبائل البدوية . والخصوم القدماء بصورة خاصة آل رشيد زعماء شمر ، يأخذون قسطاً وافراً من مصالح العائلة المشتركة : وغني عن البيان انه في نظام كهذا لا يمكن ان ينتج سوى خضوع البدو للعهد القائم دون قيد أو شرط ، اذ ان كل قبيلة أصبح لها أبناء أو احفاد أنجبها بناتها من أبناء وأخوة وابناء اخوة الملك . وبين هؤلاء البدو الذين يشكلون أصلب أساس للمملكة وأمتنه يحتل الاخوان المركز الاول :

الاخوان والمعارضة

تأسست منظمة الاخوان الدينية المحاربة ، عام ١٩١٢ ، من أجل تعبئة وتحضير جماعات من البدو وينتسبون الى قبائل مختلفة ، لا يجمعهم

سوى اعتناقهم لمذهب واحد هو المذهب الوهابي . وفي مستعمراتهم التي يزيد عددها اليوم على المائة ، يتعاطى الاخوان أعمال الزراعة وتربية المواشي . وقد قُدمت أخصب أراضي نجد مع مساعدات مالية تغريهم بالعزوف نهائياً عن حياة البداوة والارتحال . وتتجمع مراكزهم الكبرى المهمة ، بصورة خاصة ، حول مهد العائلة المالكة في نجد ، وفي داخل الاحساء . وقد رأينا ان الدور الذي لعبه الاخوان في بناء المملكة السعودية كان كبيراً وبالغ الاهمية . ولكن فيما بعد ، اضطر الملك بسبب تعصبهم الشديد الى التخفيف من نفوذهم .

وفي عام ١٩٥٥ ثم في عام ١٩٥٦ ، على أثر الاضطرابات التي تلتها في الاحساء ، منشورات واعتقالات في الحجاز لانَ الملكُ من جديد في معاملته للاخوان وعاد ومنح بعض السلطات للقوات المؤلفة من مستعمرات الاخوان . ووفقاً لما يرويه فنسان مونتاي ، سمح لدورياتهم من جديد ان تعاقب اولئك الذين لا يتقيدون بالاوامر الدينية . واخذوا يفرضون سلطاتهم المفرطة ، ولكنها سلطــة تفرض خاصة على رعايا حياتهم واملاكهم هي على كل حال منذ البدء تحت رحمة حاكم أو امير ، أو حتى أي مندوب عن السلطة الملكية .

ان نهضة « الاخوان » الاخيرة هــذه بالغة الخطورة لأن هؤلاء المحاربين الوهابيين المتعصبين قد عارضوا دائماً بشدة ادخــال التكنيك الغربي الى المملكة ، وكل تقدم يبدو في نظرهم مفسداً . لذلك كان على الملك ان يحافظ باستمرار على التوازن الدقيق بين مطالب رعاياه الرجعيين المخلصين ، وبين آمال اولئك الذين يناصرون التقدم ويعلنون عن استعدادهم في نفس الوقت للتخلص من الملكية المطلقة . ان منظمة الاخوان أداة مفيدة وخطرة في الوقت ذاته ولا يستطيع العهد ان يستخدمها إلا مقابل تضحيات كبرى . وفي منشور خاص صادر في عام ١٩٥٧ ورد فيه قول هام مدعوم بالمستندات بعنوان « الاخوان ضد الجيش »

وفيه نقرأ ان العاهل السعودي يتحفظ كثيراً في خلق جيش نظامي كبير ويفضل ان يصرف أمواله وجهوده وعنايته على القوات البدوية ، ويصف المنشور ان منظمة الاخوان ما زالت الأداة الحقيقية والأساسية الكامنة وراء قوة النظام واستمراره بفضل ميزتها الدينية المتزمتة وولائها للعائلة المالكة . وكي نكوّن فكرة عملية عن منظمة الاخوان يجب ان نعلم ان في إمكانها ان تجمع في بضع ساعات فقط مئة الف بندقية ، وربما ضعف هذا العدد . وما على « الضباط الفتيان » في الجيش النظامي إلا ان يتحملوا ويصبروا حتى يمن الله بالفرج .

ولكن ما دام التفكك الاخلاقي مستمراً ، الامر الذي كشفه ، بصورة خاصة ، جون فيلبي ، فان السلطات الزاجرة المفرطة الممنوحة للاخوان قد تصبح خطرة ، حتى على أفراد العائلة المالكة أنفسهم ، وعلى اعضاء الحكومة وعلى العهد والنظام . وما زلنا في الحقيقة بعيدين عن التفسير الصحيح الذي أعطاه محمد بن عبدالوهاب للاسلام ، عندما نرى أخوة الملك يجمعون اصدقائهم في حفلات أنس وشراب .

ان الثورة والتقدم المادي الذي سببته يهددان في الصميم نظام الحق الالهي الوهابي . وقد لاحظ الجنرال برموند منذ عشرين سنة ان النظام ما زال قائماً بصورة خاصة ، بفضل مواهب الرئيس الذي يديره . وليس هناك أي فضل للمؤسسات والعادات الراهنة ، بل في الواقع ، ان المؤسسات والعادات تسير على الارجح في اتجاه معاكس للوحدة . لقد لحق عبدالعزيز بن سعود بأسلافه منذ اربع سنوات ، وقد تم الانتقال من عهد الى عهد بدون حوادث ، والاضطرابات التي حصلت فيما بعد قمعت بشدة وبقسوة ، وعناصر الفوضى طردت من البلاد ونفيت ، والقوى الهدامة روقبت مراقبة صارمة وضيق عليها الخناق . ولكن هل يمكن ان يستمر ذلك ؟

ان التخمين يحمل معه الكثير من المخاطر ، ويمكننا ان نشير الى

وجود معارضة داخلية تجمعت عناصرها لديها من مصادر مختلفة : ويؤكد وجودها طرد الرعايا الفلسطينيين من حين الى آخر بصورة خاصة. وسنة ١٩٥٥ عقبت اضراب عمال البترول سلسلة من الاعتقالات واعمال النفي خارج الحدود ، وبعد وقت قليل ، تألفت في دمشق « الجمعية السعودية للاصلاح الوطني » ونشرت في السادس من تموز سنة ١٩٥٥، في احدى الصحف السورية ، لائحة تتضمن مطالبها : وقد وجهت من خلال ذلك تهمة للملك تقول بأنه « يخنق الحريات ويبذر اموال الدولة ، ويحرص على ابقاء الشعب يقاسي الوان البؤس والشقاء والجوع والجهل » وطالبت الجمعية باعلان دستور للبلاد واطلاق سراح المعتقلين السياسيين .

هذا وقد حصلت اضرابات اعم ومظاهرات افدح ، من جديد في الاحساء عام ١٩٥٦ . وكانت عمليات القمع اشد واقسى : وفي هذه المرة منع الملك منعاً باتاً الاضراب مهدداً باقصى العقوبات كل من تسوّل له نفسه ان لا يتقيد بهذا المنع .

التقدم ضد البدو الرحّل

في هذا البلد العريق لا يمكن الا ان يكون لادخال التكنيك الحديث نتائج مضرة : وليس من المعقول ان يجري القفز عشرة قرون من الزمن دون ضرر لدى بدو هم خلايا حيوية في جسم اجتماعي. والمقارنة السهلة الغريبة بين الجمل والانابيب (وسيلتان للنقل عبر الصحراء) تفسح المكان امام حقيقة مرّة هي ان البدوي لا بد سائر نحو خسران قوته وسبب الحياة نفسه : والشؤم يكمن في سرعة التطور نفسها .

وقد كتب روبير مونتاي بجلاء ووضوح في اول كتابه الرائع الذي

خصصه للرعاة البدو يقول : « لنسرع ونراقب اليوم ، وجود القبائل البدوية المتنقلة في الصحراء . انها منذ اليوم مهددة ، ان لم يكن بالزوال ، فعلى الاقل بضعف مخيف ، من جراء تقدم الحضارة الصناعية التي باتت تنتشر حتى في الصحارى والقفـــار . لان السيارة والطائرة ، وحافرة البترول ، والانابيب ، تغير كل يوم ملامح الصحراء وتحمل اليها حياة غريبة عنها» . واود ان استشهد مرة اخرى بهذا البدوي المتصنع سان جون فيليبي الذي كتب بحنين ظاهر ، اثر عودته من رحلته الاخيرة ، «لقد اتاح لنا الحظ ان ندرس عن كثب وفي احسن الظروف ، شعباً بدوياً في طريق الزوال بسبب التغيير الذي لا مفرّ منه في حيـــاته العشائرية التي سيحولها الى نوع من ظلال وشبح . لقد اجتزنا خمسة آلاف كيلومتر في الصحراء ، دون ان نستخدم ، خلال كل ذلك ، اية وسيلة للنقل أقدم من السيارة او الطائرة . »

اننا اليوم نجد كثيراً من المدافعين البسطاء يتحمسون ليعلنوا اعجابهم بنتائج اللقاء بين الحضارة التكنيكية الغربية وبين الحياة البدوية في قلب الجزيرة العربية. وهؤلاء خاصة هم من الكتاب الاميركيين الذين تربطهم علاقات وثيقة بالشركات البترولية لا تخفى على احد . اما المراقبـــون الرصينون فقد فضلوا ان يدقوا ناقوس الخطر امام هذه التطورات القاسية والقسرية في التركيب الاجتماعي والاقتصادي لدى البدو ، وازاء هذا التعدي الفاضح على ما هو وقف عليهم . ليس المقصود بقولي هذا ان ارثي بحزن زوال البداوة التي هي اسطورة اكثر منها حقيقة . بل ارى لزاماً عليّ ان اشير الى الانقلابات الحتمية الفائقة السرعة التي تقتلع جذور شعوب عشائرية العقلية ، واذكر انها تُعد بسرعة متزايدة مع الايام ، الخميرة التي ستقوم بثورات المستقبل . والذي يقلق الخواطر ليس تطور البدو على كل حال وانتقالهم من البداوة الى الحضارة ، بل كون هذا

التغيير المصطنع يقــوم على ثروة قد تكون موقتة مع العلم ان الحاجات التي ستنشأ عن التطور لن يكون مجال للتهرب منها .

هنا تكمن عقدة المشكلة : ان المشكلة الاساسية في الصحراء العربية ان تطوراً اجتماعيــاً سريعاً يحدث ويستمر دون ان يكون له اسس اقتصادية متينة .

٦

الثورة الاقتصادية في الصحراء

ان خطر اختــــلال التوازن بين الوضعين الاجتماعي والاقتصادي في التطور السعودي يهدد ببلوغ اقصى درجاته عندما يتمكّن التقدم التكنيكي في مختلف اشكاله بفضل وسائل النقل الميكانيكية من ان ينزع نهائياً من رجال القوافل البدو وسيلة معيشتهم الرئيسية . ان الجمل اليوم لم يعـــد يُستخدم في المسافات الطويلة : وهذا الاساس الذي قامت عليه منذ اقدم العصور حياة البداوة والارتحال الكبير الذي سمي « سفينة الصحراء » سيسبب زواله الانهيار الاكيد للمجتمع البدوي باكمله ، وعندما يتحقق هذا الانقلاب الاجتماعي الاقتصادي ، ترى هل سيستطيع البدو ان يعتادوا ويؤمنوا موارد رزقهم من الزراعة والصناعة المحليتين ؟ ان الطبيعة الصحراوية السائدة تحول دون تحقيق تقدم زراعي كافٍ لاعالة السكان حتى لو كانوا قليلي العدد . وفيما عدا البترول الغزير يمكن القول ان العربية السعودية محرومة من الثروات المعدنية الصناعية ، حرماناً شبه تام؛
في هذه الظروف تزداد مشكلة اعالة سكان الصحراء الذين فككك

تركيبهم النظام الاقتصادي الجديد ، صعوبة وحدّة مع الايام ، وثروة البلاد الجديدة والتكنيك الحديث يجب ان يتمكّنا من خلق نشاطات معوضة تتوافق مع خصائص الفئات التي يجب اعادة تعضيدها الاجتماعي . ولكن التبذير الجنوني والجهل المسيطر يحرمان المشروعات المنتجة من مبالغ طائلة قد تساعد على حل المشكلة ، والقضية ليست اقتصادية فقط ، فهناك عقلية يجب تغييرها وهي عقلية البدوي الذي يفضل كالذئب ان يبقى جائعاً على ان يتقبل السلسلة .

ان البدوي على الرغم من بؤسه مطبوع بطابع النبل ، وفضلاً عن ذلك مُشفق على الحضر المساكين . وعقليته مجبولة بقيم اجتماعية واخلاقية صحيحة ، ضرورية للعيش في بيئته الجغرافية الاجتماعية الفريدة القاسية التي ليس لها مثيل .

لا شك انه على مر الحقب ، تحضر بعض من البدو واستقروا في مكان معين ومرت قبائل بدوية كبرى في مراحل متتالية من الارتحال الكبير (الجمال) الى الارتحال المحدود (الغنم) الى الارتحال الموسمي ، الى الاستقرار ، ومن وقت لآخر في هذه المرحلة الاخيرة تجتاح القبائل رغبة جامحة ودعوة عنيفة للعودة الى الصحراء ، قبل ان تستقر نهائياً ، ولتحقيق هذا التطور يلزم عادة حقبة طويلة من الزمن .

في شمالي افريقيا ، في الصحراء الكبرى ، رأينا تحولاً اسرع من البداوة الى الحضارة ولكن التحول والتغيير اللذين يحصلان اليوم في العربية السعودية يتمان بسرعة زائدة لا عهد لنا بها وعلى نطاق واسع يشمل المنطقة باسرها .

واذا فتشنا عن السبب في هذه الثورة الاقتصادية وجدناه في البترول ، لان انتاج هذا المعدن الثمين غذّى الخزينة السعودية عام ١٩٥٦ بنحو مئة مليار فرنك . ورقم الاحتياطي المعروف هو ارفع رقم في العالم ، مع ان ثلاثة ارباع البـــلاد ما زالت حتى اليوم دون تنقيب . ولكن

المملكة حتى في حالتهـــا المتأخرة لا تعيش من بيع منتوجها البترولي فحسب . وهناك بعض مواد الاستهلاك العادي تنتجها زراعة ما زالت بدائية على الرغم من بعض التجارب المغرية وما زالت تربية المواشي مظهر النشاط الاساسي لدى البدو ، وبالنسبة لبعض الانواع من الحيوانات تشكل فرعاً هاماً من الاقتصادي الزراعي الحضري .

ان الاشغال العامة واعمال البناء وجميع نشاطات النقل ، تعرف منذ عدة سنوات تطوراً كبيراً بالغ الاهميـــة والقسم الاكبر منه يعزى الى الصناعة البترولية في الاحساء والى الحج السنوي الموسمي الى الحجاز . والعامل الذي يقيد تطور الاعمال الانشائية هو قلة ايراداتها في هذه المساحات الصحراوية الشاسعة .

والتجارة الخارجية ناشطة في المملكة العربية السعودية اجمالاً . فهي لقاء بترولها الذي "تصدّر" تستورد بعض المواد الغذائية والمنتوجات المصنوعة وكميات كبرى من المواد الاستهلاكية ، قد يعتقد البعض ان العائدات البترولية تحفظ المالية السعودية في ازدهار متفتح ، ان العكس هو الصحيح ، والمالية السعودية تعيش باستمرار على شفير الهاوية والافلاس ، ولكن الاحتياطي الثمين من المعدن النادر الموجود في جوف الارض يتيح لها لحسن الحظ ان تجد دائماً دائنين متفهمين في شخص الشركة البترولية المستثمرة او في شخص حكومة الولايات المتحدة الاميركية ، ان كل ما له علاقة بالحياة الاقتصادية في المملكة العربية السعودية يقودنا الى البترول ، فله الاحترام والتبجيل والتكريم ، فلنبدأ اذن به .

قصة التنقيب عن البترول

في سنة ١٩٠٨ لفت اكتشاف البئر البترولية الايرانيـــة الكبرى في مسجد سليمان انتباه منقبي البترول ومغامريه وحملهم على ان يتطلعوا الى

منطقة الخليج العربي . ونتيجة لذلك كلفت شركة بريطانية تأسست في لندن عام ١٩٢٠ هي شركة (ايسترن اند جنرال سنديكيت) ممثلها الماجور النيوزلندي فرانك هولمز مهمة الحصول على امتيازات بترولية بغية بيعها فيما بعد للشركات التي يهمها الامر .

ونجح هولمز مبدئياً في الحصول على ترخيص بالتنقيب على الضفة الشرقية من الخليج العربي ، وفي ارخبيل البحرين . ثم تخلى عن هذا الترخيص الذي قدمه دون ربح الى شركتي – شل – والشركة الانجليزية الايرانية . أما الشركة الاميركية الكبرى (غولف اويل كوربوريشن) او – فريق ميلون – فقد اختارت البحرين ثم باعت امتيازها لشركة ستندارد اوف كاليفورنيا (فريق روكفلر) عام ١٩٣٠ . وخلقت هذه الاخيرة شركة تابعة لها في كندا بريطانية الجنسية كي تتوافق مع حقوق الحصر التي منحها امراء الخليج ومشايخه لبريطانيا بموجب المعاهدات الثنائية ، وكتب لشركة بترول البحرين (بابكو) ان تكتشف عام ١٩٣٢ طبقة كلسية مشبعة بالبترول ، الامر الذي قلب الافكار رأساً على عقب بشأن الامكانات البترولية في الضفة الغربية من الخليج : وفي عام ١٩٣٤ باعت ستندارد اوف كاليفورنيا خمسين بالمائة من البابكو لشركة التكساس اويل . وشكلتا بذلك فريق كالتكس .

وفي داخل القارة العربية المجاورة ، كان العالم الجيولوجي الاميركي ك. س. تويتشل قد بدأ منذ عام ١٩٣٢ عمليات التنقيب عن الثروات المعدنية في الجوف السعودي . وقد ساعده في ذلك مُثرٍ أميركي يدعى شارل كران وهو صديق للعرب أصبح فيما بعد صديقاً لابن سعود .

وفيما كانت التنقيبات جارية على قدم وساق في جزيرة البحرين ، كان المهندس الاميركي ينقب في الاحساء قبالة الجزيرة الكبرى ، موقناً من أن التركيب الجيولوجي مماثل هنا وهناك . وبناء لتوصياته تقرر انتظار

نتائج عمليات الحفر التي بدأتها شركة بابكو قبل القيام بتنقيبات باهظة في الاحساء .

منح امتيازات

بعد اكتشاف البحرين ، اشتـد التنافس بين الشركات الكبرى البريطانية والاميركية من أجل الحصول على امتيازات للتنقيب في الاحساء السعودية ، ولامر ما أهمل الماجور هولمز الترخيص الذي كان قد حصل عليه . وشركة الستندارد اويل اوف كاليفورنيا هي التي ربحت في هذه المرة أيضاً ، بفضل عرض سخي ، وتأسست شركة تابعة جديدة باسم (كاليفورنيا عرابيان ستندرد اويل كومباني – كازوك) .

والامتياز الاول الذي سرى مفعوله منذ الرابع عشر من تموز سنة ١٩٣٣ مُنح لمدة سبعين سنة ، وهي يغطي مساحة تبلغ سبعمائة وثمانية وعشرين الف كيلومتر مربع . وتمتد بشكل نصف هلال شاسع ، على طول الشاطىء الشرقي من العربية السعودية ، بما في ذلك الربع الخالي في الجنوب : وتتجه الى الغرب حتى الحدود اليمنية ، كما يؤكد ريتشارد سنجر . وفي عام ١٩٣٩ زيدت المساحة التي يشملها الامتياز الى مليون ومئة وأربعين الف كيلومتر مربع . اي ضعف مساحة فرنسا كلها . وهذا الامتياز اللاحق الممنوح في الحادي والعشرين من تموز سنة ١٩٣٩ يضمن أيضاً حق السعوديين في المنطقة المحايدة جنوبي الكويت . ومُنح لمدة ستين سنة . وأعطيت أيضاً الشركة ذاتها حق الافضلية في قسم كبير من نجد .

وكما هي الحال في شركة بترول البحرين ، اقتسمت ستندارد اوف كاليفورنيا مع شركة تكساس اويل مناصفة هـذه الحقوق منـذ عام ١٩٣٦ . وفي مستهل عام ١٩٤٤ اطلق على الشركة الجديدة المنبثقة من فريق كالتاكس اسم شركة الزيوت العربية الاميركية

(ارامكو) الاسم الذي اشتهرت به عالمياً . وفي عـام ١٩٤٧ بيعت حصة قدرها ثلاثون بالمئة من الارامكو الى استنـدرد اويل اوف نيوجرسي ، وحصة اخرى قدرها عشرة بالمئة الى شركة سوكوني فاكوم .

وحصص الارامكو كحصص التابلاين وزعت اذن كما يلي :

ستندارد اوف كاليفورنيا	٣٠٪
تكساس اويل	٣٠٪
ستندارد نيوجرسي	٣٠٪
سوكوني فاكوم	١٠٪

في ايلول سنة ١٩٤٥ أصدر الرئيس ترومان تصريحاً يؤكد ملكية الدولـة لما يجاور سواحلها من ثروات في قعر البحار ، وبما ان التركيب الجيولوجي للخليج العربي لا يجيز الكلام عن منطقة قعرية ، فقد اعلنت الحكومة السعودية عام ١٩٤٩ سيادتها على الحوض البحري في عرض شاطىء الاحساء . ونتيجة لذلك امتـد امتياز الارامكو الى حوض بحر خيالي ، لا حدود له ظاهراً .

وفي المنطقة المحايدة بين الكويت والعربية السعودية تخلت الارامكو عام ١٩٤٨ ، عن امتيازها الخاص الذي تناول الحقوق السعودية في هذه المنطقـة . وتفاوضت شركة الباسفيك واسترن اويل مع الملك عبد العزيز . وفي العشرين من شباط سنة ١٩٤٩ وقع عبد الله السليمان وبرناباس هادفيلد اتفاق امتياز مدته ستون سنـة . وفي عام ١٩٥٦ تحولت الباسفيك وسترن الى (جيتي اويل كومباني) باسم صاحبها م. ج. بول جيتي . وعملت جيتي اويل بالتعاون مع الشركة صاحبة الامتياز في الكويت ، شركة البترول الاميركية المستقلة (امينويل) واحتفظت كل من الشركتين باستقلالها عن الاخرى .

في طريق اكتشاف الذهب الاسود

ان اسم أرامكو مألوف لدى الجميع اليوم . فهو يرمز الى احدى كبريات الشركات في العالم . ومع ذلك فإن العدد الضئيل من المنقبين الذي نزل في الاحساء في ايلول سنة ١٩٣٣ لم يكن يظن في ان اربعين بالمئة من حصص شركتـــه المقبلة ستساوي خمسمائة مليون دولار عام ١٩٤٧ . وبعد عشر سنوات اي سنة ١٩٥٧ سيكون ثمن الحصة نفسها خمسة الى ستة اضعـــاف اكثر . واليوم يمكن ان تقدر قيمة الآبار البترولية السعودية بخمس مليارات من الدولارات على الاقل .

بدأ التنقيب في الدمام ثم اتسع نطاقه حول الخبر على الشاطىء ثم في الظهران على مسافة ستة او سبعة كيلومترات الى الداخل . وكانت اول عملية حفر قد تمت في الظهران عام ١٩٣٥ وأعطت دلائل مشجعة وخلال السنوات الثلاث التالية ، صرفت ملايين الدولارات على سبع عمليات حفر ، دون ان يهتدى الى مخزون من الزيت صالح للاستثمار . وفي آذار سنـــة ١٩٣٨ وصلت عمليـــات الحفر في البئر السابـــع في الظهران الى عمق ٤٥٥٠ قدماً واصطدمت بطبقة مشبعة بالزيت . وعلى أثر ذلك دبت الحياة في التنقيب الفاتر البطيء . وبدأ النشاط في مرافق التنقيب وعادت آلات الحفر الى متابعة عملها في الآبار التي كانت قد هجرتها . وفُتحت آبار جديدة كما أنشئت الخزانات ومُدت الانابيب وفي شهر ايلول اتجهت أول شحنة من الزيت السعودي الخام في الناقلات الى مصافي البحرين .

وأدى البحث الذي شجعته النتائج الاولى بعد فترة وجيزة الى اكتشاف حقل ابو حضرية على مسافة مئة وخمسين كيلومتراً تقريباً الى الشمال من الظهران ، ثم حقول الدمام وأبقيق ، وقطيف ، وعثمانية . وتوالت

الاكتشافات حتى كان آخرها حقل الخرسانية عام ١٩٥٦ وتؤلف آبار العثمانية وعين دار وشدقوم حقـــل الغوار الذي يزاحم حقل برقان (الكويت) على الرقم القياسي في الاتساع في العالم . وفي حوضها البحري استطاعت الارامكو منذ عام ١٩٥١ ان تجد طبقـــة منتجة في صفانية . ويبشر هذا الحقل الذي بدأ استثماره في نيسان سنة ١٩٥٧ في أن يكون من أهم الحقول البترولية . وبينما يستمر التنقيب وعمليات الحفر في أحواض أعمـــاق الخليـج العربـي ، تنتشر فرق البحث في صحارى الربـع الخالي . وتساعد الوسائل الحديثة وطائرات عامودية وسيارات ضخمة صنعت خصيصاً للحصحراء وجزر اصطناعية — على توسيع نطاق وامكانات البحث . والنتائج التي حصل عليها المنقبون تشجع الشركة على الاستمرار في عمليات البحث والتنقيب والانفاق بسخاء .

الانتاج والاحتياطي

ارسلت أول شحنة من البترول السعودي الخام الى البحرين في شهر ايلول سنة ١٩٣٨ ووصل الانتاج في السنة نفسها الى خمسة وستين الف طن . وبعد مد خط الانابيب الى رأس تنورة الذي دُشن في اول أيار سنة ١٩٣٩ بلغ الانتاج في السنة الاولى اكثر من خمسمائة وعشرين الف طن . واثر العراقيل التي نشأت عن الحرب العالمية خلال سني الحرب الثانية بدأت أرقام الانتاج منذ عام ١٩٤٦ تقفز قفزاً الى درجة وصلت به معها الى اكثر من سبعة وأربعين مليون طن عام ١٩٥٥ و ١٩٥٦ وأتاح انتهاء مد خط الانابيب عبر البلاد العربية عام ١٩٥١ مضاعفة الانتاج . وأصبحت العربية السعودية في المرتبة الخامسة في العالم في انتاج البترول بعد الولايات المتحدة وفنزويلا والاتحاد السوفياتي والكويت ، وهي باحتياطيها المعروف اليوم تحتل رأس قائمة البلدان المنتجة للبترول .

ففي عام ١٩٥٤ كان الاحتياطي السعودي الذي قدر بثلاثين مليار برميل يشكل ٢٤،٨٪ من الاحتياطي العام في العالم الرأسمالي . وفي عام ١٩٥٥ قدر الاحتياطي السعودي بخمسة وثلاثين مليار برميل .

ان احتياطي الشرق الاوسط بأسره يمثل منذ عام ١٩٥٣ نسبة ٦١،٢٪ من الاحتياطي العالمي . وفي عام ١٩٥٧ ارتفع الى ٧٠ ثم الى ٧٥٪ بفضل الحقول الجديدة التي اكتشفت في العربية السعوبية والكويت والمنطقة المحايدة بينهما بصورة خاصة . وتحتل المملكة العربية السعودية في هذا المضمار المرتبة الاولى . وما زال القسم الاكبر من اراضيها ينتظر قدوم المنقبين للبحث عن الثروات الدفينة .

الانتاج السنوي مابين عامي ١٩٣٨ و ١٩٥٧

السنة	الكمية بالآف الاطنان
١٩٣٨	٦٥,٦١٨
١٩٣٩	٥٢١,٢١٤
١٩٤٠	٦٧٢,١٥٤
١٩٤١	٥٧٠,٠٤٦
١٩٤٢	٦٠٠,٣٥١
١٩٤٣	٦٤٥,٨٦٠
١٩٤٤	١,٠٣٤,٦٠٣
١٩٤٥	٢,٨٢٥,٩٩٠
١٩٤٦	٧,٨٩٩,٦٧٥
١٩٤٧	١١,٨١٣,٦٦٨
١٩٤٨	١٨,٧٥١,٢٧٠
١٩٤٩	٢٢,٨٢٠,٧٨٣
١٩٥٠	٢٦,١٩٦,٨٥٢
١٩٥١	٣٦,٦٠٨,٥٨٥
١٩٥٢	٣٩,٨٧٠,٨٠٥

١٩٥٣	٤٠,٨٨٧,٧٥٤
١٩٥٤	٤٦,١٧٤,٠٧٣
١٩٥٥	٤٧,٥٣٥,٠٠٠
١٩٥٦	٤٨,٦٢٢,٠٠٠
١٩٥٧	٤٩,٤٥٦,٠٠٠

النقل والتكرير

منذ عام ١٩٣٩ بدأت مصفاة صغيرة تكرر ثلاثة آلاف برميل في اليوم عملها . واثناء الحرب العالمية الثانية انشأت شركة الارامكو عند رأس تنورة مصفاة تكرر خمسين الف برميل في اليوم .

وبعد ان زيدت قدرتها عدة مرات ، وصلت عام ١٩٥٤ الى مائتين وعشرة آلاف برميل في اليوم . واما القدرة العامة على التكرير في العربية السعودية فقد وصلت عام ١٩٥٥ الى ١١,١٠٠,٠٠٠ طن .

ويغذي البترول السعودي الخام مصفاة ستره في جزيرة البحرين ، حيث يصل اليها في انابيب ممدودة تحت مياه الخليج . وفي عام ١٩٥٣ من بين الثلاثة والسبعين مليون برميل المكررة في ستره جاء من السعودية واحد وستون مليون وخمسمائة وخمسة وثمانون الفاً ووصلت الطاقة التكريرية في هذه المصفاة عام ١٩٥٥ الى ستة وسبعين مليون برميل ، وخلال اربعة أشهر بين السادس من تشرين الثاني سنة ١٩٥٦ والحادي عشر من آذار سنة ١٩٥٧ قطعت الحكومة السعودية بترولها الخام عن مصفاة البحرين رداً على العدوان المسلح الانجليزي — الفرنسي على بور سعيد .

والبترول الذي لا يتم تكريره محلياً يصدر خاماً اما عن طريق الخليج العربي واما بواسطة خط الانابيب عبر البلاد العربية ، هذا الخط الذي

يبلغ طوله الف وثمانمائة كيلومتر بقطر يتراوح بين ثلاثين واحـــدى وثلاثين بوصة . وكان يعتبر اهم خط في العالم عند انتهائه في العاشر من تشرين الثاني سنة ١٩٥١ . وهو يربط بين مستودعات حقل ابقيق البترولي وبين مرفأ صيدا في لبنان على البحر الابيض المتوسط ، ماراً عبر الاردن وسوريا . وكانت طاقته عام ١٩٥٤ حوالي ثلاثمائة وعشرة آلاف برميل في اليوم . وفي سنته الاولى عام ١٩٥٢ نقل هذا الخط الضخم الى شاطىء المتوسط الشرقي ١٤,٢٢١,٥٨٩ طناً من البترول الخام وبفضل محطات الضخ الجـــديدة ارتفعت الطاقة الى عشرين مليون طن عام ١٩٥٨ لتصل اخيراً الى خمسة وعشرين مليون طن . واستناداً الى الطاقة الاولية لهذا الخط تبين ان الشركة توفر بواسطته مبلغ خمسة وسبعين مليون دولار سنوياً . ولم يتفق نهائياً بعد على تقدير تكاليف انشاء هذا العمل ويتراوح الرقم بين مئة وخمسة وثلاثين الى مائتي مليون دولار .

وعلاوة على هذا الخط الهائل . مدت شركة الارامكو شبكة واسعة من خطوط الانابيب المختلفة الاحجام لتربط الحقول البترولية بمستودعات الخزن ، ومحطات التفريغ والخط الضخم عبر البلاد العربية . وفي نهاية عام ١٩٥٣ بلغ طول هذه الشبكة خمسمائة وثلاثين كيلومتراً .

تقدم المنطقة المحايدة

تغطي المنطقة المحايدة التي تقع بين الاحساء السعودية والكويت مساحة خمسة آلاف ومائتي كيلومتر مربع جميعها صحراء قفراء ومستنقعات لا تصلح للسكن . ليس فيها سوى غناها بالبترول الغزير .

والشركتان صاحبتا الامتيـــاز امينويل في الكويت وجيتي اويل في العربية السعودية جمعتا مصالحها وبدأتا التنقيب المشترك عام ١٩٤٩ في « وفرا » الواقعة في وسط المنطقة وفي آذار سنة ١٩٥٣ اعلنت جيتي اويل

عن عثورها على بئر صالحة للاستثمار . وفي كانون الثاني سنة ١٩٥٤ صدرت أول شحنة من بترول المنطقة المحايدة الخام . وعلى أثر ذلك بنت جيتي اويل ميناء بترولياً جديداً على مسافة خمسة عشر كيلومتراً الى الجنوب من حدود الكويت هو ميناء سعود . ومنذ ذلك الوقت وارقام الانتاج في ارتفاع مستمر .

١٩٥٤	٨٥١,٠٠٠	طن
١٩٥٥	١,٣٦٢,٠٠٠	»
١٩٥٦	١,٦٠٠,٠٠٠	»
١٩٥٧	٣,٤٨٠,٠٠٠	»

وعندما قابلت السيد جان بول جيتي في نيسان سنة ١٩٥٧ وصف لي الحالة كما يلي : ان شركتي تصدر حالياً عن طريق ميناء سعود مليون ومائتي الف برميل في الشهر وهذه الكمية التي ارتفعت الى مليوني برميل في الشهر (ايلول ١٩٥٧) الأمر الذي جعل الكمية السنوية تزيد عن ثلاثة ملايين طن . وهناك خمسة واربعون بئراً تستثمر حالياً بينما ثلاثة واربعون اخرى سُدت فوهاتها ، في انتظار انهاء مد خط جديد للانابيب ، ومصفاة للتكرير ، وذلك في شهر ايلول سنة ١٩٥٧ على الارجح ، وخط الانابيب البالغ قطره عشر بوصات وثلاثة ارباع بين وفرا وميناء سعود يمد الآن الى جانبه خط آخر قطره ثماني عشرة بوصة والمصفاة التي ستكون طاقتها خمسين الف برميل في اليوم ستنتج البنزين وتنظم تصريف البترول الخام المعد للتصدير . وستعمل بالغاز الطبيعي الذي يصل اليها في انابيب قطرها ثماني بوصات ونصف البوصة .

وفي شباط سنة ١٩٥٨ اكد لي السيد جيتي ان اعمال شركته في تقدم مستمر واضاف ان حقل الانتاج يمتد على الاقل سبعة اميال طولاً على سبعة اميال عرضاً والحدود الثابتة لم تحدد بعد . والشركتان

المتشاركتان تملكان معاً جميع الآبار . ولكنهما تعملان منفصلتين كل
بآلاتها الخاصة بها :

وأضيف الى هذه المعلومات التي زوّدني بها صاحب شركة جيتي اويل ان شروط الاتفاق التي منح بموجبها الامتياز والتي قبلتها شركته في العشرين من شباط سنة ١٩٤٩ كانت لمصلحة العاهل العربي الى درجة مذهلة . كانت الارامكو تدفع آنذاك اثنين وعشرين سنتاً كعائدات للحكومة السعودية عن كل برميل . وكذلك حكومة الكويت حصلت لقاء حقوقها في المنطقة المحايدة على ثلاثة وثلاثين سنتاً ، الرقم الذي اعتبرته الاوساط العالمية خارقاً آنذاك ، ومع ذلك قبلت جيتي اويل ان تدفع خمسة وخمسين سنتاً في البرميل ، علاوة على الدفع المباشر بأرقام مرتفعة ، والقيام بخدمات متعددة ، وقد أعطى المستقبل حقاً للسيد جيتي لأن كل العائدات البترولية قد أعيد النظر فيها فيما بعد ورفعت نسبتها . وفي عام ١٩٥٧ أعلن السيد جيتي أغنى رجل في الولايات المتحدة الاميركية اذ قدرت ثروته بين سبعمائة مليون ومليار دولار .

الارامكو في الاقتصاد السعودي

تسهم الارامكو مباشرة بمركزها والمساعدة الفنية التي تقدمها في تطوير العربية السعودية وعملها غير المباشر هو الآخر بالغ الاهمية .

فقد قامت الشركة بحفريات متعددة للبحث عن المياه ، وتكللت بالنجاح . واعمال كبرى تمت بمعاونة الشركة الفنية ، واحياناً تحت اشرافها التام . وهكذا أنشئت شبكة أقنية الري ، والطرقات ، والاعمال الفنية ، والمرافىء والخط الحديدي عبر الجزيرة العربية ، الذي يربط ما بين الظهران والرياض منذ سنة ١٩٥١ . وفي مجالها الخاص ، بنت لارامكو منشآت ضخمة رائعة واستخدمت من أجلها ما لا يقل عن خمسة

وعشرين الف عامل من السعوديين كمعدل وسطي . والعمال العرب في الشركة يبلغ عددهم حوالى خمسة عشر الفاً . ولإسكان الجهـاز العامل الاوروبي الاميركي شُيدت مدن حديثة في الظهران والدمام ورأس تنورة وقطيف . وبدأ تأثير طريقتهم الحياتية ينتشر في كل البلاد ، حتى في الحجاز ، على الرغم من الحواجز الاجتماعية ، والدينية . وأدى نشاط الشركة على الأخص الى خلق شركات وتجارات وطنية ، قفز الكثير منها فوق نطاقـــه الأساسي الذي كان يقتصر على تمثيل شركة اجنبية كبرى .

ونتيجة للاثراء المتزايد لجماعات يتسع نطاقها مع الايام ، تُوسِّع الشركات السعودية نطاق اعمالها ونشاطها . وأكثر الميادين ازدهاراً هي شركة البناء والاشغال العامة ، وتجارة الاستيراد . واذا كانت حركة البناء هي الحكم على الازدهار ، كما يقول البعض ، فإن العربية السعودية من بين أكثر البلدان ازدهاراً .

وتمثل العائدات البترولية ٨٠٪ من دخل الموازنة السعودية ، وإذا أضيفت الرسوم والضرائب ورسوم الجمرك المستوفاة بناء للنشاط الاقتصادي الذي يقوم بصورة غير مباشرة بسبب الصناعة البترولية ارتفعت النسبة الى ٩٠ ٪ من مجموع ما يدخل خزينة الدولة . وفي عام ١٩٥٦ دفعت الارامكو وحدها مائتين وثمانين مليون دولار الى الخزينة السعوديـــة . ولا شك ان الملايين اذا استخدمت استخداماً دقيقاً عادلاً أمكنها ان ترفع المعيشة شيئاً فشيئاً عند السكان ان لم تحـــوّل العربية السعودية الى بلد مستقل اقتصادياً .

غير ان تبذير العائدات البترولية في شؤون غير منتجة يزيـــد من خطورة الصفة الموقتة الانتقالية لهـــذا المعدن الثمين . والى جانب نشاط يبدو كبيراً في الظاهر ، ما زال القسم الأكبر من البلاد جامداً كأن البترول لا يعنيه . والتجارب الحديثة قد علمتنا بأن هذه الاوضاع غير

المستقرة وغير المتزنة تحمل في طياتها جراثيم وبذور عدم الاستقرار الذي لا يماثله خطر .

الشؤون المالية

ان التدقيـــق في المشروعات النادرة للموازنة التي نشرت يكشف لنا بسرعة عن النقيصة الاساسية في الاقتصاد السعودي ، فهناك مصروفات باذخة غــير منتجة سببها سياسة الدعاوة والنفوذ ، ومنذ عام ١٩٣٩ والارامكو وحدها تغذي الصناديق الملكية بمبالغ متزايدة مـــع السنين . وهذا بيان تفصيلي في ذلك .

العائدات البترولية المباشرة بالدولارات الاميركية

السنة	المبلغ بالدولار
١٩٣٩	١٦٦،٨٩٠
١٩٤٠	١،٥٢٣،٦٤٩
١٩٤١	١،٠٧٠،٥٥٠
١٩٤٢	١،١٠٧،٣٠٢
١٩٤٤	١،٨٣٢،٠٠٠
١٩٤٥	٤،٨٢٠،٠٠٠
١٩٤٦	١٣،٥٠٠،٠٠٠
١٩٤٧	٢٠،٣٨٠،٠٠٠
١٩٤٨	٣١،٨٦٠،٠٠٠
١٩٤٩	٦٦،٠٠٠،٠٠٠

السنة	المبلغ بالدولار
١٩٥٠	١١٢،٠٠٠،٠٠٠
١٩٥١	١٥٥،٠٠٠،٠٠٠
١٩٥٢	٢١٢،٠٠٠،٠٠٠
١٩٥٣	١٦٦،٠٠٠،٠٠٠
١٩٥٤	٢٦٥،٠٠٠،٠٠٠
١٩٥٥	٢٨٠،٠٠٠،٠٠٠
١٩٥٦	٢٨٠،٠٠٠،٠٠٠

ومنذ عام ١٩٥١ ، بفضل الاتفاق المعقود في كانون الاول سنة ١٩٥٠ تلقت المملكة العربية السعودية مثل جميع البلدان العربية المنتجة للبترول خمسين بالمئة من أرباح الاستثمار البترولي ؛ وبعد عام ١٩٥٤ أضيفت الى الاموال التي تدفعها شركة الارامكو ، تلك التي تدفعها جيتي اويل ، ومنذ سنوات ألغيت رسوم الحج العالية التي كانت تغذي فيما مضى خزينة الدولة بمبالغ طائلة ، ولكن التصدير غير المنظور الذي يرافق الحج والاحتكارات الحكومية للتنظيم المادي للحج تشكل معاً عائدات بالغة الاهمية . ولا بد لنا من ان نتساءل : كيف تصرف الدولة جميع هذه العائدات ؟..

ان آخر موازنة تمكنّا من معرفتها هي موازنة سنة ١٣٧٤ هجرية (من ٣٠ آب سنة ١٩٥٤ الى ١٩ آب سنة ١٩٥٥) . ويتضح من تلك الموازنة ان القوات المسلحة تستهلك ٣٥ ٪ من المصروفات بينما التعليم لا يستهلك سوى ٣،٤٪ فقط ، والصحة العامة أقل من ٣٪ ويبلغ العجز في الموازنة أكثر من ١٥٪ واذا كان حقيقة ان الاهمية النسبية للاموال المرصدة للجيش ، والتعليم ، والصحة ، تتيح وحدها الحكم على عهد أو نظام ، فالنظام السعودي متأخر رجعي الى درجة مؤسفة .

في عام ١٩٥٢ تأسست بمساعدة خبير مالي اميركي الوكالة العربية

للشؤون النقديـــة ، والوكالة هي مؤسسة الاصدار والبنك المركزي في البلاد . ويملك عدد كبير من البنوك الاجنبية فروعاً في جدة والدمام ، ومن بينها بنك الهند الصينية والبنك البريطاني في الشرق الاوسط . وقد أدى تهريب رؤوس الاموال الطائلة الى الخارج في ايار سنة ١٩٥٥ الى انشاء مؤسسة مراقبة القطع . ومُنع اخراج رؤوس الاموال ، وأرغم اولئك الذين أخرجوا أموالهم على اعادتها . وقد ذكرت صحيفة (لوموند) في هذه المناسبة الرقم الخيالي للاموال التي اخرجها من السعودية عبدالله السليمان وزير مالية ابن سعود السابق ، بمساعدة نجيب صالحة ، امين خزانة المملكة السعودية منذ سنة ١٩٢٨ ، وقد أقيل عبدالله السليمان من هذا المنصب بناء لرغبة العاهل الجديد ، في الثالث من ايلول سنة ١٩٥٤ ثم فتح تحقيق لمعرفة كيفية صرف اموال الدولة طيلة عهد الملك عبد العزيز وكلف القيام بهـــذا التحقيق مفتشون ماليون سوريون ، استقدموا من سوريا خصيصاً لهذه الغاية . وبعد ان أعيد تنظيم وزارة المالية من جديد دمجت بوزارة الاقتصاد الوطني وسلمت الى الشيخ محمد الصبان .

الحرف والنقل

تخفّض ضخامة الارامكو الى نسب زهيدة أهمية القطاعات الاقتصادية التي ليس لها علاقة بالبترول . اننا نجد في المملكة السعودية شركة اجنبية أخرى لاستثمار المعادن ، ظلت تستثمر حتى السنوات الاخيرة مناجم الذهب الواقعة في « مهد الذهب » على مسافة اربعمائة كيلو متر الى الشمال من جدة . وكانت الشركة العربية السعودية للتنقيب عن المعادن تنتـــج خام الذهب والفضة الذي تجري تنقيته في الولايات المتحدة الاميركية . ولكن فقر المنجم كان السبب الذي دفع الشركة الى هجره . وهناك مناجم أخرى للمعادن الثمينة اكتشفت منذ مدة طويلة ، ولكن يجب ان تكون

فقيرة لتبرر تقاعس الشركة عن استثمارها . وهناك ايضاً مناجم للباريت والجبس والملح والحديد لم تستثمر حتى الآن .

وفي بعض المدن والواحات ، ما زالت هناك صناعات يدوية تقاسي اليوم صعوبات ضخمة قد تقضي عليها بفضل تدفق المواد والآلات والأدوات المصنوعة آلياً في اوروبا والولايات المتحدة الاميركية واليابان . وصناعة اللؤلؤ كانت فيما مضى مزدهرة على شواطىء الخليج العربي ومصائد الاسماك التي ما زالت ناشطة حتى اليوم في الخليج والبحر الاحمر تشغل سكان السواحل الى جانب صناعة وبناء المراكب العربية .

غير ان كل هذه النشاطات محدودة ومحلية ، ويجب ان نذكر ايضاً صناعة الزوايا الحجرية التي تبعت النهضة العمرانية . وفي الخرج (نجد) أنشأت شركة فرنسية مصنعاً للذخيرة دشنه الملك شخصياً عام ١٩٥٤ .

ان اعتماد النقل الآلي يفرض وجود طرقات معبدة في بعض مراحلها على الاقل . وكذلك محطات وقود ومستودعات تصليح ، الامر الذي لا يتوفر بكثرة في المملكة السعودية . وبين منعطفات التلال الرملية نجد الشاحنات ذوات الدواليب العريضة التي تتجنب الغرق في الرمال قد أصبحت اكثر شيوعاً من الجمال سفن الصحراء فيما مضى . وتجارة السيارات الخاصة تعتبر من اكثر التجارات رواجاً وكسباً . والسماء السعودية يملأها هدير الطائرات اذ ان الطائرة هي افضل وسيلة للنقل في هذا البلد الشاسع . والمستأجرون الأميركيون لمطار الظهران يعلمون السعوديين ، كما ان سلاح الطيران السعودي يرسل ضباطه للتخصص في شؤون الطيران في الولايات المتحدة الاميركية . وفي كل أسبوع تقريباً منذ عام ١٩٥٤ يشهد مطار الظهران آلاف الطائرات من مختلف الاحجام والانحاء تحط فيه .

وفي مجال النقل ايضاً يصل الخط الحديدي الدمام بالرياض . وهذا الخط ينتظر له ان يعبر المملكة من الخليج العربي الى البحر الاحمر .

وهو حالياً يربط الاحساء بالعاصمة في قلب نجد كل يوم . وفي الناحية الثانية من البلاد يبحث المسؤولون في اعادة بناء الخط الحجازي الذي سيتصل بالخط النجدي . وقد اعلن عنها مئات المرات ؛ ويبـــدو ان الصفة الدولية لهذا الخط الذي يفيد على صعيد الحج وغير ذلك ، تثير بعض المشاكل السياسية . وفي انتظار ذلك لم يَعترِ نسبة الحجاج القادمين الى الحجاز كل سنة أي هبوط ، والشركة العربية للنقل في السيارات تحتكر نقلهم في سياراتها وشاحناتها . والنقل الجوي ، وشركة النقل في السيارات ، والشركة البحرية التي تملك بعض البواخر وناقلة بترول حمولتها ستة وأربعين الف طن ، كلها احتكارات للدولة ، والمواصلات التلفونية والتلغرافية ، ومحطات البث الاذاعي هي الاخرى مؤممة كتوزيع الكهرباء الذي امتد في السنوات الأخيرة الى كل المدن السعودية .

وعلى الرغم من هذا النشاط الحديث ما زال هناك طائفة هامة من السكان البدو والحضر ممن يستمرّون في العيش البدائي كما كان اجدادهم منذ فجر التاريخ .

الزراعة

ان الزراعة كما هو معروف ترتبط دائماً بالماء ، لذلك تقتصر على بعض الواحات الكبرى والادوية ومستعمرات « الاخوان » الزراعية ، والمزارع النموذجية التجريبية التي أنشئت منذ بضع سنوات تنشر اليوم نتائج تجاربها بشأن الطرق الحديثة للري عن طريق مياه الجوف . وهناك في المملكة السعودية يوجد خمس مناطق زراعيـة ، في الاحساء واحـة الهفوف الكبرى بينابيعها السبعة الغزيرة تنتج الارز والثمار المختلفـة الى جانب عدة أنواع من التمور. وقطيف والدمام هما أيضاً مركزان زراعيان

في المنطقة نفسها . وفي نجد تنتج الواحات الكبرى ومستعمرات الاخوان الحبوب والثمار والخضار المتنوعة وكذلك التمور . وفي الخرج بالقرب من الرياض أنشئت اول مزرعة نموذجية تجريبية ناجحة في البلاد وذلك عام ١٩٤٥ . وعسير الخصبة بمزروعاتها المجالة ، ونجران الخضراء هما من المناطق المحظوظة التي تنتج جميع انواع المزروعات بما في ذلك قهوة مخا اليمنية ، وأما تهامة فيمكن ان تكون شديـــدة الخصب في المناطق الممطرة منها ، وتعطي منتوجات البلدان الحارة كالقطن والذرة والتبغ والتمور . وفي الحجاز اخيراً تنتج الواحات الكبرى والاوديـــة الكبيرة التمور والحبوب . والثمار والخضار . وقد أنشئت هناك بعض المزارع النموذجية التجريبية ، وخاصة في وادي فاطمة . والمعروف ان الحجاز كان فيما مضى مزروعاً أكثر مما هو اليوم .

ويُستهلك الانتاج الزراعي الذي لا يكفي على كل حال كله داخلياً ومنتوجاته الرئيسية هي التمور والحبوب المتعددة الانواع ، ويبدو انــه كتب على العربية السعودية ان تجوع اذا ما وجدت نفسها مضطرة الى الاعتماد فقط على ما تنتجه داخلياً من مواد فائقة الضرورة . وقد شعر السعوديون بذلك اثناء الحرب العالمية الثانية ،ومنذ مدة والانجليز يتعهدون فرق مكافحة الجراد ، كما انه في عام ١٩٤٢ أرسل الرئيس روزفلت الى العربية السعودية اولى البعثات الزراعية الاميركية المتعددة ، هــذه البعثة التي كانت بعثة دراسة ومعونة سريعة . وأما البعثة الثانية التي قدمت الى السعودية عام ١٩٤٤ ، فقد اهتمت خاصة بشؤون الـــري ، وأنشئت في الخرج اول مزرعة نموذجيـــة تجريبية .وقد توصلت البعثات المتتالية الى النتيجة نفسها، وهي تقضي بضرورة توسيع المناطق الزراعية عن طريق الري . ومنذ ذلك الحين والعربية السعودية تستدعي الخبراء العالميين من الهيئات العالمية كافة لا سيما المنظمة الدولية للتغذية والزراعة. غير ان عمل هذه المنظمة يرتكز عموماً على المثل القائل: « ساعد نفسك

تساعدك السماء » . والعربية السعودية البلد المسلم ما زالت تطبق على الأرجح مبدأ الجبر والقدر المكتوب .

وقد بذلت بعض الجهود مع ذلك ، من أجل تحسين الوسائل والانتاج في الزراعات الغذائية الأكثر شيوعاً ، وعلى الاخص النخيل . روى لي خبير في هذا الشأن ان بعض الاجراءات البالغة البساطة اذا ما عرفت ونفذت أتاحت مضاعفة الانتاج ضعفين أو ثلاثة أحياناً ، مع تحسين النوع في الوقت نفسه . وهناك زراعات جديدة أدخلت في نطاق التجربة اولاً ثم عممت على مدى واسع بعد نجاحها . ولكن كل تطوير لاحق يبقى مقيداً بشروط الري . وكما قلت سابقاً أسهمت الارامكو اسهاماً فعالاً في تطوير الزراعة بحفرها عدداً كبيراً من الآبار ، وقدمت خبراء وجيولوجيين هم تحت تصرف الحكومة السعودية في كل وقت ، وانشئت مئات الكيلومترات من أقنية الري ، وأدخلت الآلات والاسمدة الى البلاد وشاع استعمالها عن طريق المزارع التجريبية . ووسائل الزراعة الحديثة وتربية المواشي كانت ولا تزال محور عمل المزارع التجريبية التعليمي .

ومع ذلك في نطاق الزراعة نلحظ وجود اهمال مذهل ، ففي الحجاز مثلاً لوحظ منذ مدة طويلة وجود خراب في السدود الصغيرة ، وبعض السدود الكبيرة على مسافة مئات الكيلو مترات بين المدينة المنورة ونجران واصلاح هذا الخراب كما كتب ريشارد سنجر عام ١٩٥٤ ليس عسيراً كما انه ليس باهظ التكاليف ويشكل وسيلة لرفع مستوى المعيشة عند سكان العربية السعودية .

ومديرية الزراعة التي اصبحت وزارة موجودة مع ذلك منذ عام ١٩٤٨ واذا درسنا المستندات الرسمية تبين لنا ان همها الاوحد انما هو زيادة المساحات الزراعية بتوسيع شبكة الري واستصلاح الآبار والسدود وبناء الأقنية والوسائل الاخرى التي تساعد على الاستعاضة عن الأمطار .

ولكن اعتمادات الزراعة ضئيلة في الموازنة والمهمة ضخمة في هذا البلد الشاسع الجاف في اكثره ، والمشروعات الكبرى غير قابلة التحقيق : لذلك من الافضل اللجـوء الى تحقيق عدة مشروعات صغيرة لتحسين الحالة ، والافضل بكل تأكيد ان ترصد اموال لذلك ، وهذا العمل خير من استيراد كميات متزايدة مع الزمن من المواد الغذائية ومن الممكن مثلاً استخدام الآلة في حفر الآبار وتوزيع المضخات الآلية بفضل نظام وضعته الدولة للقروض ، سبق له واتاح توسيع نطاق الاراضي المروية. ان اجراءات كهذه ليست عسيرة التحقيق ومن المفيد الاكثار منها .

ومهما يكن من امر ، فإن تطوير البلد زراعياً يصطدم بطبيعة البلاد الجافة ويبدو لي من المستحيل ان تستطيع العربية السعودية يوماً ان تصل الى درجة الاكتفاء الذاتي في حقل الانتاج الزراعي .

وهذا البلد ليس متخلفاً تماماً كما تدل هذه الكلمة ، بل هو اعجز من ان يتخطى في تطوره بعض الحدود في امكانياته المعروفة . الامر الذي يجب الا يمنع مع ذلك الاستمرار في اعمال التحسين الجزئية .

مركز تربية المواشي

لقد سبق لي واشرت الى انه حسب التقديرات المتفق عليها اكثر من ثلث السكان ما زالوا يعيشون حياة البداوة المتنقلة . ودون ان نتوقف عند التمييز بين درجات البـداوة اقول ان عدد البدو هو في حدود المليونين ، وتربية المواشي هي الشاغل الاهم والثروة الرئيسية ، والسبب الاساسي للحياة عند البدوي ، والبدوي الحقيقي يحتاج الى قليل من الاشياء هي القهوة والسكر ، والرز والتمر والقماش الناعم ، الى جانب ما تعطيه اياه مواشيه .

واكثر الزارعين الحضريين كانوا بدواً فيما مضى ، يتعاطون ايضاً

تربية المواشي في مختلف انواعها . وتربية الدواجن والنحل . وتربية النحل هي قديمة وتقليدية في اكثر مناطق الجزيرة العربية ، وكان العسل ولا يزال مرغوباً عند العرب .

ويربى الغنم والماعز بكثرة للاستفادة من حليبه ولحمه وصوفه او شعره وجلده ، والابل التي لم تعد الوسائل الضرورية للنقل او الحرب ما زالت تربى من اجل حليبهسا ولحمها . وتستخدم للنقل . اما الابقار فتشاهد عند الحضريين في الواحات والقرى .

وقد حاولت البعثات الزراعية والمزارع النموذجية ومراكز التجارب التي انشأها الخبراء الاجانب ان تدخل تحسينات الى طرق تربية المواشي ، وبصورة خاصة في نطـاق تحسين النسل . ويمكن ان نأمل في هذا المجال ان يؤثر ذلك من المربين لدى المزارعين الحضريين .

اما البدوي ، وهو الهدف اساساً في هذا المجال فسيبقى مدة طويلة بعيداً عن التأثر في هذا النطاق .

وبكلمة موجزة يمكن القول ان الثورة الاقتصادية لم يشعر بها البدوي بعد مباشرة . وما زال في مرحلة الدهشة ، بل الذهول والتعجب ، ازاء التقدم التكنيكي للحضارة الصناعية .

ويروي اولو الامر خاصة المسؤولون في شركات البترول كثيراً من الغرائب عما يقـوم به البدو من اعمال بعد تحولهم الى عمال فنيين على الآلات . وفي ختام هذا الفصل ادعو الى التفكير في هذه الارقام ؛ ان في العربية السعودية خمسة عشر الف عربي تشغلهم الارامكو ، واكثر من مليوني بدوي . ومن تربية المواشي يعيش هؤلاء دون ان يعرفوا البترول الا بالسمع ، وربما لم يسمعوا به .

٧

مملكة الحق الإلهي على المسرح العالمي

لقد استطاعت المملكة العربية السعودية على الرغم من كونها متخلفة، وقبل اكتشاف البترول في جوفها ان تفرض نفسها على الصعيد الدولي منذ نشوئها . واليوم يفسح لها البترول والاسلام دعامتاها المتينتان مركزاً تزداد اهميته مع الايام على المسرح الدولي . واذا كان الملك عبد العزيز قد اتبع مدة طويلة سياسة حذرة ومتحفظة ، فإن خلفه سعود قد عوّض عن ذلك اذ يتبع في السياسة الدولية نهجاً اكثر حيوية وما ذلك الا لأن الظروف تغيرت . وان حراسة الاماكن المقدسة التي يتطلع اليها اكثر من اربعمائة مليون من البشر ، وخمسة وثلاثين مليار برميل من البترول ، ان هاتين الميزتين تخوّلان سعود حق التكلم عالياً ، ولكن تأخر البلاد المريع وضعفها النسبي يجعلان من هذا السلوك تناقضاً غريباً . وكما هي الحال في جسم الانسان يفرض تركيب الامبراطورية السعودية في داخل الدولة نفسها صفات تبرز في السياسة الخارجية .

اذا تأملنا جيداً مصور المملكة العربية السعودية تبين لنا ان «نجداً» تقع

بين الارض المقدسة في الحجاز والمنطقة الصناعية في الاحساء في طرفي الجزيرة . وهذا الاقليم الذي يعتبر مهد الوهابية والاخوان هو نواة المملكة ونقطة الثقل في الميزان بما يحتله من مركز قوي . فنجد هي التي توازن وتحافظ على التوازن بين الحجاز حيث يتجسد التقليد والاحساء المشدودة بقوة لا ترد نحو المدينة . في قلب هذه البلاد المرتفعة اقام عبد العزيز عاصمته في الرياض محور الامبراطورية ، حيث يمكنـــه ان يشرف على المقاطعات المحتلة . من هذه العاصمة البدوية على سعود ان يقارن ويوازن بين المصالح التي تفرض عليـــه ان يقيم علاقات طيبة مع المارقين وبين ايدلوجية عربية اسلامية تزداد عدواتها مع الايام لكل تحالف مع الغرب .

والمشكلة ليست جديدة : ولكنها لم تطرح على اشدها الا في السنوات الاخيرة .

حتى الحرب العالمية الثانية ، كان الملك يماطل بشأن صداقة المصلحة مع بريطانيا التي حملته على ان يعترف بمركزها الممتاز حول الجزيرة العربية . وابن سعود الحريص على عداواته وصداقاته معاً كان لا يزال يسير على سياسة شيوخ الصحراء عندما جاء رجال البترول الاميركيين : وقد جرته واقعية العمـــل الكبير الى اقامة علاقات تجارية متشابكة مع الولايات المتحدة الاميركية . وشيئاً فشيئاً خف النفوذ البريطاني ؛ حتى جاء اليوم الذي تخلص فيه عبد العزيز من كل ما يربطه بهذه الدولة :

ويجب ان لا ننسى قضية فلسطين من جهة ، والاصرار البريطاني على صيانة استقلال امارات الخليج وحماية العروش الهاشمية في العراق والاردن من جهة ثانية ، فإن ذلك شيئاً فشيئاً عمل على ابعاد العاهل السعودي عن البريطانيين ورفض صداقتهم . واتساع الرقعة التي توطدت فيها المصالح الاميركية التجارية الصرف ، كان من شأنه ان يؤدي الى

تقوية نفوذ الولايات المتحدة الاميركية في الوقت نفسه : والاميركيون بكل هدوء لم يفوتوا ذلك دون ان يدعوا وجود نفوذ سياسي حقيقي لهم ، ولا يمكننا مطلقاً ان نتجاهل الارتباط المتزايد مع الايام الذي يربط الاقتصاد السعودي بالولايات المتحدة الاميركية .

وعلى الرغم من هـذا الارتباط ، او ربما بسببه – ارادت العربية السعودية ان تبرهن بمواقفها الصلبة القوية رفضها لكل تحالف صريح مع الغرب ، وهكذا بقيت سياستها الخارجية على مبدأين اساسيين : هما التضامن العربي المصبوغ باللون الاسلامي ، والحياد الذي فرض نفسه ، وقد عملت المؤامرات والدسائس الانجلو اميركية من اجل اقامة حاجز وهمي عربي في وجه السوفيات في دفع السعوديين الى اتخاذ هذا القرار الذي لا بد منه . وكيف يمكن التدخل في نزاع لا علاقة مباشرة فيه لا للاسلام ولا للعربية السعودية ؟ وهذا الرفض بالذات هو الذي ادى الى رفع العربية السعودية الى مصاف الدول المسموعة الكلمة.

والعداء للاستعمار ، على الرغم من انه اعلن مراراً في عهـد الملك الراحل عبد العزيز بقي على العموم آنذاك في ضمير الغيب . واما ابنه وخلفـه سعود فقد جعل منه وسيلة للنضال حتى لا يبدو متخلفاً عن عالم باندونغ .

في عام ١٩٥٤ استطاع جون فيلبي بحذاقة ان يصف مركز العربية السعودية الدولي والنتائج الرئيسية المترتبة على ذلك ، فقال : ان هذه المملكة كبلد اسلامي عربي بارز على المسرح الدولي لا تمكنها سياستها الخارجية إلا ان تتجاوب وتحتل مركز الصدارة بين الدول الذي اصطلح على تسميتها «متخلفة» والاحداث التي نجمت عن الدبلوماسية الانجلو اميركية ، قد اعطت حقاً لفيلبي ، ونتائجها كانت ترسيخ السياسة الحيادية ، مع التبني العلني للمبادىء الخمسة المعادية للاستعمار ، ومعارضة الاحلاف مع الغرب ، الى جانب التقرب الحذر المتحفظ من مصر زعيمـة

الدعوة العربية :

وفي سنة ١٩٥٧ رأت الرياض نفسها حائرة بين القاهرة وبغداد ، وما ذلك الا لأن السياسة الخارجية السعودية لا تخرج عن هذا النطاق : الاسلام والبترول :

الخطوط البارزة

دون ان ادخل هنا في تفاصيل تاريخ دبلوماسي يعتريه الغموض نسبياً اعتقد انه من الاهم محاولة كشف الخطوط البارزة في السياسة الخارجية، او بكلمة اخرى اسباب ثباتها تحت ستار التلون .

كانت العربية السعودية قبل البترول دون شك تدور في نطاق النفوذ البريطاني . وعملياً في حقبة معاهدة جدة سنة ١٩٢٧ التي اضفت على المملكة صفة دولية ، كان المتحدث الوحيد الذي يمكنه ان يتحدث معها باسم كل جيرانها (ما عدا اليمن) هو بريطانيا . وفي قمة قوتها في الشرق الاوسط كانت الامبراطورية البريطانية تشرف، إن عن طريق الحق او الامر الواقع ، على الشؤون الخارجية للكويت والبحرين وقطر، ومشيخات شاطىء القراصنة ، وسلطنة مسقط وعمان ، وسلطنة حضرموت والعراق والاردن، والامر الاهم هو ان الجارين اللذين يقفلان حدود الجزيرة العربية من الشمال كانا تحت سلطة الهاشميين الذين طردهم ابن سعود من الحجاز فتلقفتهم بريطانيا المنتدبة ، ووضعتهم على عرش العراق والاردن . وخطوط الاتصال البرية الوحيدة مع المتوسط من العربية السعودية يجب ان تمر في اراضي فيصل وعبد الله بن حسين شريف مكة سابقاً .

وبسبب تجريدهم من نفوذهم الموروث الثمين كحماة للديار المقدسة حمل الهاشميون وما زالوا لآل سعود في صدورهم حقداً دفيناً ، مما جعل

ابن سعود مدة طويلة يتخوف من محاولة هاشمية لاستعـادة الحجاز ؛ وعلى الرغم من ذلك أدى الضغط البريطاني المستمر على الطرفين الى توقيع ميثاق الاخاء ، والتضـامن العربي عام ١٩٣٦ بين العراق والسعودية . وقد تضافر انطلاق الملك الشاب غازي ، وذكاء ابن سعود السياسي اوضع حد ظاهري للنزاع مع العلم بأن لا حقد هؤلاء خبا ولا حذر أولئك زال . والمشاكسة العنيفـة المستمرة بين البيتين السعودي والهاشمي تجد تفسيرها في معارضـة السعوديين الشديدة لمشروع الهلال الخصيب (سوريا الكبرى) الغالي على قلب الانجليز . ان دمج العراق وفلسطين وسوريا ولبنان في دولة واحدة على رأسها أحد الهاشميين ، كما حلم بذلك جهابذة السياسة البريطانية ، من شأنه أن يضع العربية السعودية في مواجهة جار أقوى منها . الامر الذي يحمل كثيراً من المخاطر لابن سعود . والوحدة العربية او الاسلامية كما يفهمها ويدعو اليها آل سعود يجب أن تتم على أيدي سادة الرياض ولصالحهم دون سواهم . ولذلك لا يمكن أن يباركوها مطلقاً اذا كانت ضدهم .

الصراع السعودي اليمني

في سلسلة الفتوحات الرائعة كان عبد العزيز يعرف أين كان يجب أن يتوقف . واعتداله وتبصره السياسي برزا بقوة اثناء النزاع السعودي اليمني . ففي عام ١٩٣٣ أعلنت اليمن الحرب على المملكة السعودية من أجل السيطرة على عسير ونجران . وعلى خدوده الجنوبية . كان الامام يحيى في نفس الوقت يواجه صعوبات مع البريطانيين في محمية عدن ؛ ولم تمض مدة خمسة وأربعين يوماً حتى كانت القوات السعودية بقيادة الامير فيصل قد وصلت الى ميناء الحديدة . فأسرعت اليمن في اعلان قبولها للشروط المعروضة في « ابها » في السابع عشر من شباط سنة ١٩٣٤ .

وعلى الرغم من تفوقه العسكري ، قَبِلَ ابن سعود سحب قواته من تهامة اليمنية . وهكذا تم توقيع اتفاق « ابها » في العشرين من حزيران سنة ١٩٣٤ وقبلت أن تعترف بالسيادة السعودية على الاراضي المتنازع عليها ، وأن تشكل معها جبهة اقتصادية سياسية موحدة .

ان ميثاق « ابها » هو تجسيد لسياسة التوازن والتحكيم بين الشعوب العربية والاسلامية ، هذه السياسة التي سيسير عليها ابن سعود مدة طويلة . وفي غداة هذا الاتفاق ارتبط عاهلا مملكتي الحق الالهي اللذين يترأسان حكومتين مركزيتين في الجزيرة العربية بصداقة زادتها الايام وثوقاً على الرغم من التباين الديني (الزيدية والوهابية) والقبلي (عرب الشمال وعرب الجنوب) . وفي عام ١٩٤٨ عندما قتل الامام يحيى على يد أحد الطامعين قررت مساندة ابن سعود عودة العرش اليمني الى ولي العهد الشرعي . وفي عام ١٩٥٥ أيضاً فشل انقلاب جديد في اليمن أيضاً بفضل المساندة السعودية . وهذه المرة هب سعود بن عبد العزيز هو بنفسه لمساعدة الامام احمد بن يحيى .

يستطيع المراقب الأجنبي أن يلاحظ أن دهاء ابن سعود هو الذي دفعه الى التحالف مع أعدائه التقليديين الهاشميين في العراق والزيديين في اليمن . وهذه السياسة ان هي إلا استمرار لسياسة التحالف مع القبائل التي انتهجها في البدء على الصعيد الداخلي ، ثم نقلها فيما بعد الى الصعيد الدولي ، هذا الصعيد الذي لا يزال غامضاً في العربية الصحراوية . وحقاً يجب الاعتراف أن أعمال العاهل الراحل تحمل البراهين المتعددة على رغبته المستمرة في توحيد الشعوب الغربية . بل ان طموحه كان يذهب الى ابعد من ذلك اذ كان يستهدف تعريب الشعوب الاسلامية بأسرها .

الواقع الاسلامي والحج

تأخذ الاهمية الرئيسية للواقع الاسلامي شكلا حسياً في الحج السنوي الى مكة المكرمة والمدينة المنورة . والحج الذي يؤديه مئات الالوف من المسلمين سنوياً الى الحجاز يؤكد مركزه الفريد . ومن ثم مركز العربية السعودية لدى فريق كبير من البشر ، خاصة في قارة آسيا . ويقول « فنسان مونتي » الاختصاصي في الشؤون الاسلامية : « ان الحج يهدف الى توحيد وتركيز السياسة الاسلامية . »

ودون أن أذهب مع « مونتي » الى هذا الحد اعتقد انه لا يجوز التقليل من أهمية الاتصال الذي تحققه هـــذه اللقيا السنوية بين مختلف شعوب الديار الاسلامية . منذ عام ١٩٢٦ سعى ابن سعود الى تنظيم الاجتماعات العفوية للقادة والاعيان المسلمين بالدعوة الى مؤتمر اسلامي يعقد في مكة . وكثيراً ما ساد الاعتقاد ان ابن سعود كان يهدف الى اعـــلان نفسه خليفة على المسلمين . ولكن البرودة التي تلقى فيها العالم الاسلامي هذه الدعوة الى المؤتمر ، جعلت عبد العزيز يتخلى عنه وعن مطامحه بشأن الخلافة . في الوقت نفسه عادت الفكرة الى الظهور عام ١٩٥٤ عندما راودت سعود ، فعقد المؤتمر الاسلامي وتمخضت عنـــه سكرتارية عامة دائمة . وبدت مصر كأنها تريد أن تتولى القيادة في هذا المجال ايضاً ، لانها استحصلت لاحد ابنائها البارزين الزعيم انور السادات على مركز السكرتير العام للمؤتمر الاسلامي . ويقظـــة العالم الاسلامي ، الآسيوي ، والافريقي تشكل قرينة جديدة لنجاح هذه الحركة .

وحسب الارقام شبه الرسمية ، بلغ عدد الذين ادوا فريضة الحج عام

١٩٥٣ حوالي نصف مليون مسلم .

وفي عام ١٩٥٥ ارتفع هذا العدد الى سبعمائة الف .

ان الاسلام هو دين اجتماعي شامل يدخل حتى في دقائق تفاصيل الحياة اليومية . وهو علاوة على ذلك دين المساواة في الاصل . من الاطلسي الى الهندوسي ، يمحو الايمان الاسلامي جميع الفوارق في اللون واللغة وهو لا يقل قوة ، ان لم يكن في بعض الاحيان أقوى من أي شعور قومي . ففي كراتشي كما في الرباط ، استقبل سعود بهتافات «يعيش ملك الحجاز» كحارس للاماكن المقدسة . وإذا كان لم يصل بعد الى تجسيد صفة الخلافة وتحقيقها فالملك سعود هو أقرب ما يكون اليوم الى منصب امير المؤمنين الذي حرم منه مسلمو اليوم :

فرنسا والعربية السعودية

كانت فرنسا من بين البلدان الاولى التي سارعت عام ١٩٢٥ الى الاعتراف بابن سعود ملكاً على الحجاز ، كما كانت أول من رفع عام ١٩٢٩ قنصليتها في جدة الى رتبة مفوضية . وهي اليوم في رتبة سفارة .

ومنذ الثاني والعشرين من أيلول سنة ١٩٢٥ عقدت فرنسا مع السعوديين اتفاقاً تجارياً باسم دول المشرق التي كانت خاضعة للانتداب الفرنسي ، وتشبهاً بالعربية السعودية وقفت فرنسا موقفاً مناوئاً صلباً للمشروعات البريطانية كمشروع « الهلال الخصيب » او سوريا الكبرى في ظل الهاشميين . غير أن هذا الموقف وحده لا يكفي مع ذلك ، لتفسير العلاقات الحسنة الفرنسية — السعودية .

ان عرب الصحراء يتميزون باندفاعهم وراء عواطفهم ومشاعرهم : وطالما أشار الملك عبد العزيز الى تبادل الرسائل بين جده ونابليون الاول أثناء حملة الامبراطور على المشرق . وفي كتابه عن ابن سعود يشير بنوا

ميشان الى بعثة فرنسية برئاسة « لاسكاري » ارسلها نابليون الى سعود عام ١٨١١ . وبناء على طلب امبراطور الفرنسيين هاجم الوهابيون تركيا في منطقة بلاد ما بين النهرين ، ولكن فشل الجيوش النابوليونيــة واندحارها أديا الى انهاء التحالف الفرنسي — العربي . ومهما تكن نسبة الصحة في هذه الوقائع فان الاعجاب الذي يكنه ابن سعود « للامبراطور الكبير » كان السبب في خلق شعور الصداقة نحو فرنسا ، الانعكاس البعيد لامجاد الاسطورة النابليونية . وبالنسبة الى فرنسا يجب أن نتذكر أن مصالحها المتعددة الهامة في أرض الاسلام ، في شمال افريقيا ، في افريقيا السوداء وفي المشرق فيما مضى ايضاً ، تعطي أهمية خاصة لعلاقاتها الطيبة مع سادة الحجاز .

واذا كان ممثلو السعودية في هيئة الامم يظهرون احياناً بعض العنف في خطبهم فإن للضرورات والظروف احكامها والعلاقات الدبلوماسية بين البلدين بقيت جيدة بل ممتازة فترة طويلة من الزمن . وفي عام ١٩٥٥ عندما عين الامير طلال بن عبد العزيز سفيراً لبلاده في باريس وقدم اوراق اعتماده للرئيس كوتي ، كان في امكانه ان يهنىء نفسه بالاتفاق التجاري الذي كان قد وقع حديثاً بين فرنسا والسعودية ، والذي قصد منه تسهيل الدخول الى الاماكن المقدسة بالنسبة للافريقيين المسلمين سكان المستعمرات الفرنسية . واثناء السنوات الصعبة بالنسبة للعربية السعودية ، في ايار ١٩٤٩ الى تشرين الثاني سنة ١٩٥٥ كانت فرنسا ممثلة في جدة بسفير ممتاز عرف كيف يرعى امور بلاده في مهمة بالغة الدقة. ويكفي ان نتذكر ان تلك السنوات كانت سنوات التوتر الشديد في شمالي افريقيا في تونس اولاً ، ثم في المغرب ، واخيراً في الجزائر ،واصبحت السياسة الفرنسية موضع نقد شديد وعنيف من قبل جامعة الدول واعضائها ، ومع ذلك تمكن السفير « جورج غيرو » من ان ينجح في مهمته العسيرة الــتي كانت تقضي بأن يجيب على طلبات الايضاح والتفسير المقدمة من قبل

العاهل السعودي . وقام باتصالات مستمرة بشأن الاجراءات المتخذة من قبل الادارة الفرنسية في تونس او المغرب ، ومن حين الى آخر كان رئيس البعثة الدبلوماسية الفرنسية يشير الى اللياقة التي كان ترافق الاتصالات السعودية ، والمشاعر الودية التي كان الملك الراحل يبديها نحو فرنسا . واخيراً بعد مشروع الهلال الخصيب وسوريا الكبرى ، التقت وجهات النظر الفرنسية والسعودية عند قضية اخرى اساسية في قضايا الشرق الاوسط هي قضية حلف بغداد ، والنتائج الوخيمة لهذه المشروعات البريطانية لم تنفك تؤكد سلامة الاسس التي قامت عليها المعارضة لهذه السياسة من جانب فرنسا والسعودية ومن جانب حزب العمال البريطاني . ومع ذلك في تشرين الثاني سنة ١٩٥٦ ادى العدوان على بور سعيد الى قطع العلاقات الدبلوماسية الفرنسية السعودية .

التسلل الاميركي

اذا كان عبد العزيز بن سعود قد بقي اميناً لصداقاته حتى مماته ، فلم يكن في استطاعته الى جانب ذلك ان يتحاشى تزايد النفوذ الاميركي . وقد حصل اول تحوّل في سياسته الخارجية عام ١٩٥٠ . في ذلك الحين رأى الملك الكبير قواه ومداركه يلحقها الوهن ، فدعا ابنه الذي سيخلفه الى تحمل بعض المسؤوليات في ادارة شؤون المملكة. وفي تلك السنة ، في الثلاثين من كانون الاول ، اتفقت الارامكو مع الحكومة السعودية على تقاسم ارباح البترول مناصفة ، وكان الانتاج البترولي قد وصل الى ستة وعشرين مليون طن ، وكانت حرب فلسطين قد انتهت الى نكبة وفشل مرير من جانب العرب ، ودخل الشرق الاوسط بأسره في مرحلة الاضطرابات وعدم الاستقرار . آنئذ مُنحت حول الجزيرة العربية

امتيازات بترولية جديدة ، وبعضها كان منتجاً .

وأثارت التنقيبات المستمرة كثيراً من النزاعات على السيادة في الصحراء على حدود غير واضحة ، وكانت قضية البريمي من ابرز هذه القضايا، اذ انها ارتدت طابع العنف بعد وقت قليل ، وقضت على آخر امل للصداقة البريطانية — السعودية .

وفي مستهل عام ١٩٥١ اظهر تأميم الدكتور مصدق شركة البترول البريطانية الايرانية الاهمية البالغة التي يحتلها بترول الشرق الاوسط ، في الاقتصاد الاوروبي والعالمي ، واصبح النزاع ظاهرة قوة تحمل الثروة للبلاد العربية . وعلى الضفة الغربية للخليج العربي ، كان على الكويت والسعودية ان تضاعفا انتاجهما البترولي للتعويض عن النقص الذي نشأ عن توقف تدفق البترول الايراني الذي يبلغ معدله ثلاثة وعشرين مليون طن في السنة . وعلى الصعيد العالمي بلغت الحرب الباردة اشدها ، اذ وصلت حرب كوريا ذروتها ، والمانيا كانت تبذل اقصى جهدها لاستعادة وحدتها . وفرنسا كانت تواجه احلك ايامها في الهند الصينية .

وعلى الرغم من ارادتها اضطرت العربية السعودية ان تتخذ موقفاً معيناً في قضايا كانت تود ان تبقى في معزل عنها . وفي طيلة حياة الملك عبد العزيز كان الخط العام للسياسة السعودية الخارجية يقضي بايجاد توافق بين الصداقات التقليدية وضرورة اثبات الوجود في العالم الحديث. ودون ان تكون مهيأة لدورها الجديدة رأت المملكة العربية نفسها تدفع دفعاً بتطور الاحداث الى المسرح العالمي ، وعلاوة على ذلك كان هناك السياسة العربية الاسلامية التي لا يمكن التخلي عنها . وقد بقيت الاساس الاثبت للسياسة الخارجية السعودية . ومبدأ الاسلام كوطن يرتكز على العروبة في معناها الخاص المحدد من شأنه ان يقوي مع الايام المعارضة للنظام القائم . وكذلك التقاء المصالح او تنافرهـا بين البلدان المنتج سيؤثر ايضاً بدون انقطاع في المواقف الدبلوماسية التي يجب اتخاذها .

وهكذا اصبحت العربية السعودية في سنوات قلائـــل منطقة نفوذ اميركية ، وذلك بفضل واقعية الدولار . ولا يمكننا الا ان نلاحظ الفوارق الكبرى السياسية والاقتصادية والاجتماعيـــة والايديولوجية بين الدولة الديموقراطية الصناعية الكبرى ، والمملكة العربيـــة السعودية ، والبترول وحده يمكنه ألا يثير مثل هذه الفوارق حيث كل من الشركاء يتمنى ان يتحمل اخف القيود الممكنة من المطالب التي يختارها الفريق الآخر. وبين الحكومتين، بصرف النظرعن السياسة، نظمت قوة اقتصادية كبرى ، هي شركة الارامكو العلاقات بين البلدين مع الحرص على ابقائها حسنة .

دبلوماسية البترول

من اجل ان نفهم الدور الذي لعبته الشركة في حقبة كانت فيها قوتها اضعف مما هي عليه يجب ان نعرف عملها اثنـــاء الحرب العالمية الثانية ، لنلقي ضوءاً على البحث . حتى عام ١٩٤٣ كان الاميركيون يعتبرون السعودية منطقة نفوذ بريطانية .

وفي عام ١٩٤١ خوفاً من نفوذ بريطاني لا يزال كبيراً ، عملت الارامكو بكل قواها لتشرك وزارة الخارجية في لعبتها . وهدفها آنئذ ان يشمل العربية السعودية قانون الاعارة والتأجير . في تلك الحقبة كانت حكومة الولايات المتحدة الاميركية قـــد منحت حكومة لندن قرضاً باربعماية وخمسة وعشرين مليون دولار ، مـــن شأنه ان يتيح للندن ان تستمر في مساعدة ابن سعود .

ولكن كما صرح فيما بعد ، فردريك ، رئيس الشركة ، كنا جميعاً نشعر بأن المال الذي كانت تتلقاه الحكومة السعودية من حكومة لندن ، كان في الواقع من المال الذي منحناه نحن للبريطانيين . ونحن كشركة

كنا نعتقد بأن الولايات المتحدة كان عليها ان تحصد هي فائدة اموالها لانها احق من البريطانيين في ذلك . وشعور الشركة هذا تحول الى ضغط مستمر على مختلف نظارات الحكومة الاميركية ، واخيراً وصلت الارامكو الى هدفها . وفي الثامن عشر من شباط سنة١٩٤٣ اتخذ الرئيس روزفلت قراراً يسمح للعربية السعودية ان تستفيد من مساعدة مباشرة في نطاق قانون الاعارة والتأجير . وبهذا الخصوص كتب المراقب الاختصاصي الممتاز — ادوار سابليه — وهو في ذلك على حق :

« لقد رشت الشركة الملك السعودي الوهابي بأموال المكلف الاميركي» وبفضل دبلوماسية الارامكو ايضاً تم اللقاء التاريخي بين الرئيس روزفلت والملك عبد العزيز عام ١٩٤٥ في الاسماعيلية على ظهر الطراد « كونيس» وبفضل تدخل الشركة في دوائر الحكومة الاميركية تم للملك سعود ذلك الاستقبال الحافل في زيارته التي قام بها في بداية سنة ١٩٥٧ للولايات المتحدة الاميركية . وهكذا تكون شركة الارامكو قد تبنت شعار شركة الجنرال موتورز — التي تربطها بها عدة روابط — « ما هو صالح للشركة ، صالح ايضاً للولايات المتحدة الاميركية في الوقت نفسه »

الظهران قاعدة استراتيجية ومقر الارامكو

وهكذا اصبحت الظهران اولى المدن البترولية في الاحساء عام ١٩٥٢ المقر الرئيسي لشركة الارامكو ، وفي الوقت ذاته المكان الذي يقوم فيه مطار استراتيجي ، بنته الولايات المتحدة الاميركية ، ثم استأجرته من الحكومة السعودية والاعمال التي بدأت خلال الحرب توبعت فيما بعد على الرغم من تحقيق النصر ، وفي عام ١٩٤٦ تمّ تجهيز اكبر مطار في

المنطقة واصبح صالحاً لاستقبال جميع انواع الطائرات .

بعد ذلك أجرت حكومة الولايات المتحدة مفاوضات مع الحكومة السعودية وحصلت منها على إذن باقامة قاعدة جوية هناك . ويقع مطار الظهران الذي جهز وفقاً لأحدث الطرق الفنية في نقطة متوسطة تقريباً بين كراتشي والقاهرة وباكو ، أي بين حليف امين (الباكستان) وقناة السويس أهم مجرى مائي في العالم ، والحقول البترولية في القفقاس (احدى ركائز القوة السوفياتية)

ومن ثم تم تبادل المذكرات ووقع في الثامن عشر من حزيران سنة ١٩٥١ النص المطلوب ذاته الذي أعيد النظر فيه ، وأضيف اليه ملحق خاص بتدريب الطيارين السعوديين في الولايات المتحدة الامبركية . ومقابل ذلك تعهدت الولايات المتحدة بتزويد العربية السعودية بالاسلحة الحديثة من طائرات ودبابات بصورة خاصة . وهذه الاتفاقات هي التي حددها الملك سعود لخمس سنوات اثناء زيارته لواشنطن في مطلع سنة ١٩٥٧ ، وحصل بفضل ذلك على مساعدة مالية كانت أوضاع بلاده المالية في أشد الحاجة اليها :

مظهر الحياد الجديد

احتفظت السعودية مع جارتها وشقيقتها مصر دائماً بعلاقات الود والصداقة والتضامن . وخلال حياته الطويلة ، خرج الملك عبد العزيز مرة واحدة من مملكته فحسب ، وكان ذلك لزيارة ملك مصر عام ١٩٤٦ وبعد الثورة المصرية بقيت العلاقات على حالها ولم يطرأ عليها أي تغيير ، بل انه في السنوات الاخيرة رأينا الرياض تسير وفقاً لمخطط القاهرة السياسي في أكثر الاحيان . وأثبت الملك سعود علناً هكذا سياسة التضامن

العربي الاسلامي . وكذلك تابع العاهل السعودي ، مثل والده ، رعاية ميثاق الضمان العربي المشترك ، بحياكة شبكة من المعاهدات الثنائية تربط السعودية بكل من مصر وسوريا والاردن واليمن . وفي كل مناسبة كانت تستدعي فيها الظروف التأييد وقفت الرياض وراء القاهرة .

والمقصود من ذلك كله توحيد كلمة العرب وجمع شملهم ، وهذه السياسة الاخوية لم تمنع السياسة السعودية من ان تتقرب من بغـــداد عندما كان يتراءى في الافق خطر يهدد المصالح البترولية في كل من العراق والسعودية .

هذا وقد بذل الملك سعود منذ اعتلائه العرش ما اتفق على تسميته نشاطاً دبلوماسياً ملحوظاً ، فتنقل باستمرار لمقابلة رؤساء الدول العربية والاسلامية وغير الاسلامية ، داعياً الى الرياض أو الى الخليج العربي زملاءه من البلدان المجاورة : بالامس في بغداد ، واليوم في بيروت ، وغداً في عمان : وحمل العاهل السعودي قسطاً من المسؤوليات تزايدت أهميته مع الايام ، في توجيه سياسة الكتلة العربية ، هذه الكتلة التي لا تخلو من تصدع .

وفي عام ١٩٥٥ ازدادت الحالة تعقيداً ، اذ ان حلف بغداد الذي وقـــع بين تركيا والعراق أدى الى اثارة معارضة مصر ثم السعودية وسخطهما : وعندما انضمت بريطانيا الى الحلف في الرابع من نيسان سنة ١٩٥٥ بلغت النقمة أشدها بين الجماهير في كل ارجاء الوطن العربي وكانت الباكستان قد انضمت الى الحلف عن طريق تركيا ، كما انضمت اليه ايران في تشرين الاول سنة ١٩٥٥ . وقد أثار هذا الانضمام نقمة السوفيات واحتجاجاتهم . وفي الحادي والعشرين والثاني والعشرين من تشرين الثاني سنة ١٩٥٥ عقدت كل من تركيا والباكستان وايران — دول اسلامية غير عربية — والعراق (البلد العربي الاسلامي) وبريطانيا

(البلد غير العربي وغير الاسلامي) في بغداد الاجتماع الافتتاحي لمنظمة حلف بغداد التي أطلق عليها مؤخراً اسم (ميثاق الحلف المركزي)

ومن الناحية السعودية والمصرية ، اتخذت عدة اجراءات مناوئة من بينها طرد جون فيلبي في السابع عشر من نيسان سنة ١٩٥٥ بعد ان وجهت اليه تهمة القيام بنشاط يضرّ بأمن الدولة السعودية . ووقع اتفاق عسكري مصري سوري وضع قوات البلدين العسكرية تحت قيادة مصرية مشتركة . وفي العشرين من تشرين الاول سنة ١٩٥٥ وفي السابع والعشرين من تشرين الاول سنة ١٩٥٥ وقــع اتفاق مماثل بين مصر والسعودية ، كما وقعت كل من الاردن واليمن اتفاقات مماثلة . أجل ، انه يجب ألا نبالغ في تقدير قيمة هذه الاتفاقات عمليــاً ، ولكن هذا التصرف يشير على الاقل الى الاتجاهات العربية المعاكسة .

والانشقاق الذي أحدثه حلف بغداد بين البلدان العربية تجلى أثناء زيارة الملك سعود للهند في تشرين الثاني سنة ١٩٥٥ وقد جاءت هذه الزيارة بعد ايام من زيارة بولغانين وخروتشوف للهند ، فأفصح الملك العربي خلالها مراراً ، كما فعل الزعماء السوفيات من قبل ، عن عدائه الشديد لحلف بغداد ومقاومته العنيفة له . وفي نهاية الزيارة أعلن البيان المشترك بين نهرو وسعود تبني السعودية رسمياً لمبادىء التعايش السلمي الخمسة ، وعزم البلدين الأكيد على توثيق الروابط فيما بينهما . وفي السنة التالية فيما كانت أزمة السويس على أشدها جاء نهرو الى الرياض ليرد الزيارة للملك سعود . ولدى عودة سعود من دلهي الجديدة كان قد أعلن عن رغبته في اقامة علاقات دبلوماسية مع الاتحاد السوفياتي . ولكن الدبلوماسية الارامكوية قد نشطت من جديد لتحول دون تنفيذ هذه الرغبة التي بقيت أمنية في عالم الأماني . وعلى الرغم من ذلك لم يتراجع الاتحاد السوفياتي بل قدم رسمياً في شهر كانون الاول سنة ١٩٥٥ شحنة من الاسلحة الحديثة للملكة السعودية . ورداً على الضجة التي حدثت بسبب هــذا

التصرف أطلق الامير فيصل آل سعود جوابه التاريخي المعروف عندما سئل فيما اذا كان شراء الاسلحة السوفياتية لا يؤدي الى ادخال الشيوعية الى الشرق الاوسط ، اذ قال : « اننا نشتري الحديد دون المبادىء » .

ولما جاء عام ١٩٥٦ حمل في طياته طلائع شؤم ساد العلاقات بين السعودية والعالم الغربي . لقد كتب له ان يرى في السادس والعشرين من تموز ، تأميم قناة السويس والنتائج التي ترتبت عليه ومن بينها العدوان على بور سعيد في شهر تشرين الثاني من السنة نفسها . وقبل ذلك بعام في الخامس والعشرين من تشرين الاول سنة ١٩٥٥ ، كانت القوات البريطانية قد وضعت موقتاً حداً لنزاع طويل متشابك ، اذ احتلت البريمي التي تطالب بها السعودية .

وفي كانون الأول سنة ١٩٥٥ تقدمت قوات امام مسقط بقيادة ضباط بريطانيين وطردت امام عُمان حليف السعوديين من عاصمته . وبعد معركة مذكرات حامية شديدة اللهجة استدعت السعودية سفيرها في لندن وفي شهر ايار سنة ١٩٥٦ كانت العلاقات الدبلوماسية مقطوعة عملياً بين الرياض ولندن .

تألق نجم سعود

بعد الأشهر الستة الاولى من سنة ١٩٥٦ التي حملت معها الكثير من الاحداث ، وفي السادس والعشرين من تموز بالذات ، أعلن الرئيس جمال عبدالناصر تأميم قناة السويس ، هذا التأميم الذي أدى الى الاحداث المعلومة بسرعة . وبدون تحفظ وقفت العربية السعودية الى جانب مصر ، وأعلن الملك سعود ان لمصر ملء الحق في تأميم القناة . وفي الاشهر المتعاقبة توالت بكثرة مشاورات ومؤتمرات رؤساء الدول العربية والاسيوية

ولم يفوّت سعود أي واحد منها : وفي النصف الثاني من شهر ايلول ، بصورة خاصة ، أصبحت الرياض احدى كبريات العواصم العالمية الدبلوماسية العربية والاسيوية . واذا لم يتيسر لسعود في الرياض ان يستقبل جمال عبدالناصر أو نهرو ، فانك تجده حتماً في القاهرة يتشاور مع الزعماء المصريين والسوريين ، أو في الخليج يجتمع الى زميله ملك العراق ، وذلك لأن الملك في مساندته المتينة الصادقة لكل حدث من أحداث العروبة والتضامن العربي ، لا ينسى مطلقاً مصالحه البترولية . ويجب ألا ننسى ان حرية المرور في قناة السويس حيث يمر القسط الأوفر من البترول المباع لاوروبا ، هي أمر حيوي بالنسبة للعراق وللسعودية في آن واحد .

وعندما بدأت الحملة البريطانية — الفرنسية على بور سعيد في تشرين الثاني سنة ١٩٥٦ انهار كل أمل في الوصول الى اتفاق حي ، وزاد الامور تعقيداً نسف انابيب بترول العراق في سوريا ، اذ فقد العراق قسماً كبيراً هاماً من عائداته ، واذا كانت العربية السعودية لم تتأثر بهذا النسف وبقيت انابيب بترولها التي تجتاز سوريا ولبنان سالمة ، فإن انتاجها تأثر بصعوبة وصول الناقلات البترولية الى الخليج العربي بعد سد القناة . وفي شهر ايار بدأت الحالة تعود الى طبيعتها بعد تنظيف القناة ، بينما استمر العراق في تحمل الخسائر التي لحقته من جراء نسف الانابيب في سوريا . وفي المؤتمر البترولي العربي المنعقد في بغداد في شهر تشرين الثاني سنة ١٩٥٧ اقترحت العربية السعودية ان تصبح « الامة العربية » هي مالكة الانابيب الجديدة التي قد تمد في المستقبل .

في ذلك الوقت كان ازدياد الوعي القومي في سوريا يقلق سعود ، لا سيما عندما توجه الى الولايات المتحدة في مطلع سنة ١٩٥٧ بعد مرور عشر سنوات على زيارته الاولى التي قام بها وهو ولي للعهد . وبعد ان خف ايزنهاور بشخصه لاستقباله لدى هبوطه من الطائرة رضي

الملك العربي ان يستمع للاميركيين يشرحون له « مبدأ ايزنهاور » الذي قصد به محاربة التغلغل الشيوعي في الشرق الاوسط . وكانت الدبلوماسية الاميركية تنتظر الكثير من هذه الزيارة بسبب ارتباط الاقتصاد السعودي بالولايات المتحدة . وعند عودته من واشنطن لم يتوقف الملك سعود في لندن كما كانت الحال في السابق ، بل في مدريد ، والرباط ، وطرابلس الغرب ، واخيراً في القاهرة .

في كل مكان تباحث الملك الوهابي مع زملائه . وفي واشنطن كان قد اجتمع ايضاً الى ولي عهد العراق . وفي القاهرة تلقى الملك سعود دعوة رسميـــة من الحكومة السوفياتية لزيارة موسكو . واخيراً عاد الى الرياض ليشهد الغليان في سوريا ثم في الاردن .

آنذاك كان عرش الاردن مهدداً من الداخل بسبب الغليان الشعبي . وكان ان تلقى الملك حسين في شهر نيسان سنة ١٩٥٧ مساعـــدة غير منتظرة من الملك السعودي . وقد عرض سيد الرياض مساندته الشخصية للملك الشاب حسين حفيد شريف مكة الهاشمي . وشهدت بغداد في شهر ايار المصالحة الحارة بين آل هاشم وآل سعود اثناء اللقاء الذي تم بين فيصل وسعود . وساد الاعتقاد على اثر ذلك ان الدبلوماسية الاميركية في طريق النجاح لعزل جمال عبد الناصر . وعلينا ان نتذكر في هذه المناسبة ان سعود كان قد سبق له وادلى قبل مغادرة واشنطن بتصريح مؤيد « لمشروع ايزنهاور » بشأن الشرق الاوسط . وموقفه هذا لم يكن غريباً ، بكل تأكيد عن موافقة مجلس الشيوخ الجماعية لهذا المشروع بعد مضي شهر من الزمن. وبعد ذلك عندما بدت طلائع الفشل تواكب مبدأ ايزنهاور اثناء الازمة التركية — السورية في خريف سنة ١٩٥٧ ، عرض سعود وساطته فرفضت .

ان البلاغ الاميركي السعودي المشترك المنشور في الثامن من شباط سنة ١٩٥٧ على اثر محادثات سعود — ايزنهاور يرتدي طابعاً بالغ الاهمية،

وهو يحدد موقفاً لا لبس فيه من الجانبين بشأن تعاون اوثق بين البلدين. والمادة الاولى من البلاغ توضح نظرة الولايات المتحدة للمملكة السعودية ورأيها في بروزها على المسرح الدولي : وقد جاء فيها :

« ان للعربية السعودية ، بفضل مركزها الروحي والجغرافي والاقتصادي اهمية بالغة الحيوية في الشرق الاوسط . ومن مصلحة السلام العالمي تدعيم هذه المملكة من اجل المحافظة على استقرارها وسلامتها والتطوير التدريجي لمؤسساتها »

في الوقت الحاضر ينصرف سعود الى اشباع رغبته في الظهور والسفر. ويتبع سياسة خارجية مؤثرة . انه ذاك « البدوي الطائر » الذي قرر نهائياً اعتبار كل ما له علاقة ببلد عربي داخلا في دائرة نفوذ جلالته السامية . وفي هذه الاثناء يأخذ السخط من شعبه مأخذه . وعلى الرغم من التخلف الاقتصادي والجهل المتفشيين في انحاء المملكة هذا الجهل الذي يلقي بكابوسه على السواد الاعظم من الشعب السعودي ، وجدت بذور الثورة والتحرر الفردي والجماعي العاملة في الشرق الاوسط طريقها المفاجىء الى قلب العربية السعودية .

وبينما يتابع نجم سعود تألقه على الصعيد الدولي ، تزداد النقمة في صفوف شعبه ، انها نقمة البدو الذين يهددهم خطر التقدم والتطور . وهي تختلف عن نقمة عمال البترول والطبقة البورجوازية والطبقة المتوسطة. ولكن ما هم اذا كان الاساس واحداً. ولتخفيف حدة هذه النقمة جاءت الاجراءات القاسية المتخذة من قبل الملك ، كمنع الاضراب منعاً باتاً وتوسيع صلاحيات الاخوان . وهذه الاجراءات كلها تقريباً كانت بدون قيمة او فائدة . بل كان رد الفعل الحتمي على ذلك ازدياد النقمة . وعلى الاخص من وراء النظام تبدو من العمال ميول لم تتبلور بعد بشأن المبادىء القومية . وفي تشرين الاول سنة ١٩٥٧ ، اعلن العمال العرب في شركة الارامكو انهم سينسفون انابيب البترول اذا ما تعرضت سوريا

العدوان خارجي.

وهذا معناه انه في امكان حفنة من الرجال ان تقلق راحة سعود وتقضي على اهم موارد قوته بقطع عائدات البترول عنه . وذلك بناء لاشارة قد ترد من الخارج . انه الوجه الآخر للقومية العربية التي تهدف الى اقامة وحدتها عن طرق الشعوب ضد حكامهم .

القسم الثالث

الجنوب العربي

٨

العربية السعيدة سابقاً

عندما نقترب من الجنوب العربي ، تعود بنا الذاكرة فوراً الى ذاك التقسيم الكلاسيكي القديم المعروف للجزيرة العربية. وإلا كيف يمكن ازاء مرتفعات اليمن الخضراء ، الا نتذكر ما اسماه القدماء العربية السعيدة . واذا أقررنا بهذه السعادة النسبية فان في امكان الجنوب ـ الغربي العربي ان يطالب ايضاً بأن تلصق هذه الصفة فيه ، عندما تقارن بينه وبين باقي الجزيرة العربية .

كانت المملكة اليمنيـــة المتوكلية مع عسير ونجران ، وحضرموت وباقي محمية عدن ، تشكل في الماضي البعيد منطقـــة من جزيرة عُرف عنها انها صحراء اكثر منها مروج خضراء . وفي يومنا هـــذا تطلق صفة « السعيدة » عادة على اليمن وحدها ، اذا انها اغنى الاقاليم واكثرها كثافة من حيث السكان حتى في « العربية السعيدة » القديمة . وفي عام ١٩٣٤ تم تقريباً تقسيم المنطقة وتحديدها الحالي : وفي هـــذا التاريخ ـ كما رأينا ـ استطاع عبد العزيز بن سعود ان يحمل اليمن

على ان تعترف بسيادته على عسير ونجران . كما انتزع الانجليز مستعمرو عدن من الامام اقراراً بقبــول الاوضاع الراهنــة على حدوده الجنوبية . ومع ذلك فان الاضطرابات في هذه المنطقة الجنوبية لم تهدأ يوماً .

ترفض السلطات البريطانية ان ترى الاجانب يزورون الاراضي المعدنية. وامام اليمن من جانبه في عزلته فوق جباله الخضراء ، هو اكثر ملوك العالم استبداداً ، وبلده اكثر البلدان انغلاقاً على النفوذ الاجنبي ودسائسه. وعندما حصل الامام يحي حميد الدين على الاستقلال لبلده عام ١٩١٩ ، على اثر انهيار الامبراطورية العثمانية جعل من الانعزالية في اقصى حدودها، المبدأ الرئيسي الذي يخط عليه سياسته . واما ابنه احمد الذي خلفه عام ١٩٤٨ ، فقد فتح بلاده شيئاً فشيئاً للتكنيك الاجنبي . وارسل ممثلين عن مملكته الى هيئة الامم ، وبعض العواصم الكبرى ، كما قبل ان يتفاوض بشأن امتيازات معدنية ، وتحالف عسكرياً مع مصر والسعودية . وهكذا شيئاً فشيئاً خفّت حدّة الانعزالية وبسبب هذه العزلة لم يتعد عدد غير المسلمين الذين اقامــوا في اليمن فترة من الوقت ، بعد استقلالها بضع مئات من الزائرين .

واليمن في الواقع مثالٌ للبلد المتخلّف على الرغم من انها غنيــة بالطاقات . والبلدان العربية الاخرى قد انتقدت نظام الامام السابق الذي يعود الى ما قبل الطوفان . ولكنها لا تستطيع الا ان تعرب نحو هذا البلد شيئاً عن الاحترام والحنان . وذلك لأنه اذا كان للحجاز حق في ان يحمل اسم « ارض الاسلام المقدسة » فاليمن وحدها يمكنها ان تفخر بأنها « مهــد العرب » ومن هذه الزاوية المكتظة بالسكان من الجزيرة العربية انطلقت الموجات البشرية التي وصلت حتى المتوسط الشرقي او ما يسمى بالشرق الادنى — وفي هذه اليمن الكبرى — التي كانت تشمل في القرون الاولى من التاريخ الميلادي ما اسماه لورنس «مصنع العرب» ،

نجد وطن العرب جميعاً . ومع الفتوحات الاسلامية انتشر اليمنيون في حوض المتوسط بأسره . وهكذا من بلاد ما بين النهرين ، من الخليج العربي حتى المغرب او المحيط الاطلسي نعثر على أسر وقبائل عربية تفتخر بأصلها القحطاني الجنوبي العربي . وفي هذا المجال ذكر «روبير مونتاني» بالجهود التي بذلها برابرة شمالي افريقيا ليخترعوا شجرة نسب لهم تجعلهم من عرب اليمن الحميريين .

ترى لماذا ترك ، سكان العربية السعيدة ، بلدهم الجميل في الماضي الغابر ؟ ان هذه الظاهرة ، ظاهرة النزوح ما زالت مستمرة حتى أيامنا هذه ، ويقدر عدد اليمنيين الذين يعيشون خارج اليمن بمليون يمني . لا ريب ان الكثافة الزائدة في السكان هي السبب الأول ، اذ ان الارض اليمنية بجبالها الشامخة لا تستطيع ان تنتج ما يعيل كل أبنائها . ولهذا السبب نجد يمنيين يحملون الجنسية الفرنسية في مدينة جيبوتي بالصومال . وحتى لا نذهب بعيداً ، نكتفي بالقول اننا نجد يمنيين في مرسيليا .واذا عدنا الى الماضي السحيق نبحث عن سبب الموجات الأولى من النزوح علمنا أن تصدع سد مأرب كان العامل الرئيسي . وسقوطه التام النهائي في القرن السادس الميلادي كما يؤكد عدد من المؤرخين قضى على احدى الحضارات الكبرى التي عرفها العالم .

مملكة سبأ

تحدثنا ، روايات الجغرافيين اليونانيين التي أكدتها الاكتشافات الاثرية الحديثة أشياء كثيرة تتناول ممالك الجنوب — العربي الكبرى الزاهرة والمتحضرة منذ خمسة عشر او عشرين قرناً من الميلاد . وأشهرها مملكة سبأ الاسطورية ، التي جاءت ملكتها بنفسها الى اورشليم لتتحقق

من قوة سليمان . والازدهار الذي نعم به اهل سبأ يعود خاصة الى تجارة القوافل الرابحة في التوابل والبخور التي احتكروها ، مع العلم بأن تفننهم في الزراعة وتكنيكهم في الري أتاحا لهم ان يطوّروا الزراعة الى اقصى حد عُرف في ذلك الزمان . وعبقريتهم الهندسية في فن البناء تجلّت في انقاض مأرب العظيمة و « شبوه » اللتين قُدّر لهما ان تكونا عاصمة المملكة على التوالي .

وفي عصر سبأ ذاته ولكن لفترة أقصر ، امتدت مملكة « كتابان » في اقصى الجنوب الغربي ومملكة حضرموت ، حتى شمل نفوذهما حدود محمية عدن الحالية . وفي الشمال عاصرت المملكة اليمنية مملكة سبأ ما بين سنة ١٢٠٠ و ٦٥٠ قبل الميلاد .

ليس لدينا اية معلومات كافية مفصلة عن ممالك الجنوب العربي الكبرى . واني أعتقد شخصياً ان الاستمرار في عمليات التنقيب التي ما زالت في بدئها على أيدي بعثة واندل فيليبس سيؤدي حتماً الى كشف مركز حضارة الجنوب العربي في حضارتنا المتوسطية ، والدور الذي لعبته الجزيرة العربية قبل الاسلام في العالم القديم . ويقول المؤرخ العربي الكبير الاستاذ فيليب حتي : « ان المرحلة السبئية تمتد تقريباً من سنة ٩٥٠ الى ١١٥ قبل المسيح . وفي هذه الفترة كان السبئيون في أوج مجدهم التجاري وقوتهم ، حتى انهم بسطوا سيطرتهم على خطوط المواصلات المؤدية عبر الحجاز الى الشمال . وكان لهم ايضاً مستعمرات على طول هذه الطرقات .

الامبراطورية الحميرية

في سنة ١١٥ قبل الميلاد بدأت مرحلة الحميرين الكبرى في الجنوب

العربي . وحمير هي اكثر العائلات المالكة شهرة . ومع ذلك فانها ليست معروفة الى درجة كافية . في ظلها ، توحّدت العربية السعيدة وحملت حضارتها الى الحبشة في الغرب والى قلب آسيا في الشمال . وهكذا تجلى الاشعاع الحميري في أبهى مظاهره ، ولكن ذلك كان الاوج قبل الانحطاط . لقد حمل الحميريون أسياد مأرب لقب ملوك سبأ في ظل العائلة المالكة الأولى التي امتد عهدها حتى سنة ٣٤٠ بعد الميلاد . في هذه الحقبة الاولى ضموا « كتابان » الى مملكتهم ثم حضرموت فيما بعد . وفي أواخر القرن الثالث الميلادي وُحّد الجنوب العربي كله تحت سلطانهم. في ذلك الحين بلغ الحميريون أوج عزهم وقمة مجدهم وقوتهم . اذ كانوا يشرفون على طريق البخور القديمة ، وكذلك على سد مأرب الكبير احدى عجائب العالم القديم . وقد طمع الرومان في السيطرة على بلادهم ولكن محاولات الاحتلال باءت بالفشل . وأشهرها كانت محاولة القائد الروماني ايليوس عمالوس في سنة ٢٤ ق. م. التي قضى فيها عشرة آلاف جندي نحبهم بسبب حرارة الصحراء قبل ان تكتحل عيونهم برؤية العربية السعيدة . وفي أول عهد العائلة المالكة الاولى كذلك اجتاز عرب اليمن وحضرموت البحر الأحمر ليرسوا قواعد الامبراطورية الحبشية ؛ ولكن الامبراطورية الحميرية بدأت في التدهور على أثر المنافسة التجارية الشديدة التي واجههم بها الرومان بعد احتلالهم لمصر . وكان ان عرف هؤلاء مواعيد الرياح الموسمية فتجنبوها ودخلت مراكبهم آمنة المحيط الهندي . عندئذ دق ناقوس الخطر ينذر ازدهار العربية السعيدة بالزوال :

ولم يمض وقت طويل على خسارة الاحتكار التجاري في المحيط الهندي ، حتى ابتليت الامبراطورية العربية الحميرية بحدوث اول ثقب في سد مأرب . كان السد الهائل يجمع المياه المنحدرة من الجبال اليمنية ومن البحيرة المتكونة وراءه ، كان يتم توزيع مياه الري على آلاف

الهكتارات بطريقة علمية عملية . ومن جراء حدوث هذا الثقب تدفقت المياه وأغرقت الحقول التي كانت ترويها من قبل . وكان لا بد ان تحدث اول هجرة جماعية كبيرة على أثر هذه النكبة . وحسب روايات بعض المؤرخين أعيد بناء السد وأصلح موقتاً ولكنه عاد وانهار نهائياً في القرن السادس ، وذلك لأن السكان الذين افتقروا وضعفوا لم يعد في امكانهم المحافظة عليه والسهر على سلامته . وفي حقبة الانحطاط المتزايد هذه غزا الحبشيون اليمن لأول مرة في سنة ٣٤٠ ميلادية ولكنهم طردوا منها في عام ٣٧٨ ب. م. واستطاع الأباطرة الحميريون الذين نسميهم التبعيين ان يستعيدوا عرشهم . وفي هذه الحقبة الحميرية الثانية دخلت الديانتان المسيحية واليهودية الى اليمن الوثنية .

المملكة اليهودية

وفقاً لما يقوله الدكتور حتي أرسلت أول بعثة مسيحية الى الجنوب العربي بناءً على أوامر الامبراطور قسطنطين سنة ٣٥٦ برئاسة تيوفيلوس أندوس ، وبدأ المرسلون المسيحيون يبشّرون بدينهم الجديد الذي كتب له ان يثبت جذوره جيداً في نجران . أما الديانة اليهودية فيظهر انها دخلت اليمن عن طريق يهود الحجاز ونجد ، في أواخر القرن الرابع . هؤلاء أنفسهم كانوا من العرب والآراميين المتهودين حديثاً . وقد تم اقناعهم باعتناق دين موسى على يد بعض العائلات التي هربت من يهوذا بعد سقوط أورشليم في يد تيطوس سنة سبعين بعد الميلاد . وعلى الرغم من دخول الديانتين المسيحية واليهودية أراضي اليمن فان الوثنية بقيت مسيطرة ، ولم تتلاشَ نهائياً الا بعد ظهور الاسلام .

في نهاية القرن الخامس ، اتسع نطاق اليهودية اتساعاً حقيقياً ملحوظاً

عندما اصبحت دين الدولة في ظل « ذو نواس » آخر الملوك الحميريين التبعيين : وهذا الملك ، بعد اعتناقه الدين الموسوي أراد أن يفرضه على شعبه بأسره ، وادى التنافس بين انصار الاديان السماوية ، والجماعات الحريصة على تقاليدها الوثنية الى اشتغال نيران الحرب الاهلية في البلاد، واغتنم الاحباش الفرصة اذ وجدوا البلاد مفككةً متقاتلةً ، ضعيفةً ، فظهروا مجدداً في الجنوب العربي سنة ٥٢٥ ميلادية وقضوا على المملكة اليهودية لآخر عائلة حميرية . وحاولوا عبثاً ان يحتلوا مكة . واثنــاء سيطرتهم هذه التي دامت نصف قرن، كان همُّ الاحباش النهب والسلب أكثر من البناء والتنظيم ، لذلك ساعدوا على الاسراع في انحلال العربية السعيدة وانهيارها . هذا وقد بذل الاحباش جهدهم لاقنــاع اليهود والوثنيين باعتناق الدين المسيحي ، الذي كان عملهم الاساسي وشغلهم الشاغل . ويبدو انه في ظل سيطرتهم ، انهار سد مأرب نهائياً وطغت مياهه غامرة جارفة ماحقة . (وقد ورد ذكر هذا الطوفان في الآية الخامسة عشرة من السورة الرابعة والثلاثين في القرآن) . وأدت هذه النكبة الكبرى الى هجرة شاملة متعددة النتائج ، نحو شمالي الجزيرة ، وشرقي افريقيا والهند والجزر الهندية . واعتقد بصورة خاصة ان هذه التيارات النزوحية ، التي ما زالت مستمرة حتى ايامنا هذه ، هي وراء انتشار الاسلام والحضارة العربية الاسلامية في المتوسط والمحيط الهندي ؛ والمعتقد ان رفاق النبي العربي الاولين ، والانصار كانوا في اكثرهم من النازحين اليمنيين .

في سنة ٥٧٥ ، طرد الفرس الاحباش من الجنوب العربي واحتلوا اليمن وحضرموت . وبينما كانت الامبراطورية الفارسية تميل الى الضعف بسرعة ، كان الاسلام قد اصبح قوة فعالة صاعدة في الجزيرة العربية، وسنة ٦٢٢ تمت الهجرة ، وبعد ست سنوات فقط ، عــام ٦٢٨ ، انضم « بدهان » المرزبان الفارسي الخامس في اليمن الى انصار محمد

(صلعم) وتم احتلال حضرموت سنة ٦٣٣ . وأمام هذه القوة الصاعدة الضاربة ، تهافت المسيحيون واليهود والوثنيون الى اعتناق الدين الجديد الذي حملت هذه القوة لواءه .

اتساع الامامة الزيدية

منذ ظهور الاسلام ، انتقل مركز الثقل في الجزيرة العربيـــة الى المدينتين المتنافستين في وسط الجزيرة : مكة المكرمة ، والمدينة المنورة، (يثرب) . وقُضي على العربية السعيدة ان تبقى تابعة محتلة . ويقول كارل بروكلمان : « توصل النبي العربي قبيل موته الى اقرار النظام في هذه البلاد . ومع ذلك لم يأخذ رسله مكان الملوك المحليين العديدين ، بل بقوا الى جانبهم كمقيمي الدول الاستعمارية الحديثة الى جانب الامراء الوطنيين ». وبعد موت النبي ، اهتزت اركان الامبراطورية الاسلامية وفي ظل خلافة علي ، ثارت اليمن محاولةً استعادة استقلالها . غير ان الثورة قُمعت بشدة ، وبقي الجنوب العربي مسلماً . وكان هذا الجنوب، في ظل الخلفاء الاول ، مقسماً الى ثلاث ولايات . وفي سنة ٨٩٣ ، برزت شمالي اليمن على ايدي عائلة سعادة المالكة ، المذهب الزيدي الذي توطد في البلاد . وفي البدء كانت سلطة الامام الزيدي لا تتعدى اسوار مدينته . وعندما تفككت اواصر الامبراطورية الخليفية في القرن العاشر كانت اليمن وباقي الجنوب العربي ، من بين المناطق الاولى التي انفصلت عن الخلافة . وقسمت المنطقة الجنوبية من الجزيرة الى مجموعة مـــن الامارات المتنافسة حيث استمرت المعارك من اجل السيادة . وحارب الزيديون دون كلل محـــاولين فرض سيطرتهم التي بقيت حتى العصر الحديث اسمية اكثر منها فعلية . والقبائل الجنوبية وخاصة قبائل حضرموت التي حافظت على مذهبها الشافعي ، تحملت بفارغ صبر السيادة الزيدية ،

وفي كل مرة كان يهدد الجنوب العربي خطر خـــارجي كان هؤلاء الامراء الوطنيون المتنازعون يتناسون خصوماتهم لمواجهة العدو الغاصب .

طيلة المرحلة الممتدة من القرن العاشر حتى القرن السادس عشر جدد المصريون والبرتغاليون والهولنديون والانجليز والاتراك المحاولات الرومانية لإخضاع الجنوب العربي السعيد . وفي نهاية القرن الثاني عشر نزلت جيوش صلاح الدين في تلك البلاد ، ثم جاء دور الاحباش وتلاهم مماليك مصر . وفي سنة ١٥١٣ ، وصل القائد البرتغالي المشهور البوكرك وقد فشل اول الامر في احتلال عدن ولكنه نجح في مدينة مخا . وبعد ذلك انتشر البرتغاليون في الساحل الجنوبي من الجزيرة حتى الخليج العربي زارعين القلاع والحصون . من هذا الساحل طردهم المصريون ، كما اضطرهم الفرس والعرب على ترك حصونهم التي بنوها على ضفاف الخليج العربي . ولما احتل العثمانيون مصر ، اعـــترف الجنوب العربي التابع لها بسيادة الباب العالي . ووصل العثمانيـــون الى اليمن في سنة ١٥٢٨ ، ولكنهم لم يستطيعوا ان يثبتوا اقدامهم هناك الا بعد معارك ضارية استمرت اربعين سنة . وانتهت هذه السيطرة في سنة ١٦٢٨ ، على اثر ثورة شعبية عارمة . بعد خروج العثمانيين ، اصبحت البلاد فريسة النزاعات الداخلية . وفي سنة ١٧٠٣ ، انفصلت حضرموت عن اليمن بعد ان كانت تابعة لها اسماً . ثم جاء دور مقاطعات الجنوب ومن بينها سلطنة لحج ، التي اعلنت سنة ١٧٢٨ ، خروجها على طاعة الأئمة الزيديين في صنعاء .

خلال ذلك الوقت كان اكتشاف البن وزراعته ، قد ادى الى تدعيم اقتصاديات البلاد من جديد . وفي العربية السعيدة يعتقد انه تمّ اكتشاف البن عندما لاحظ احد الرعاة حيوية قطيع من الماعز بعـــد قضمه اثمار شجيرة معينة . وبسرعة غطت منحدرات اليمن شجيرات البن . وأخذ يصدر عن طريق ميناء مخا الذي اكتسب شهرة عالميـــة

بفضل هذه التجارة الجديدة . وقد استثمر الهولنديون هذه التجارة فترة من الوقت ، كما ان الفرنسيين عقدوا اتفاقاً تجارياً مع الحاكم الذي كان يحكم مخا ، على البحر الأحمر باسم الامام . ثم ازداد التنافس حدة بين الدول البحرية المهتمة بطريق الهند . اذ ذاك كانت شركة الهند الشرقية البريطانية تسعى الى اقامة محطة وقود على طريق الهند فتطلعت الى مكلا وسوقطرة ، ثم تفاوضت سنة ١٨٠٣ مع سلطان لحج بشأن استخدام خليج عدن لهذه الغاية . وفي عام ١٨٣٩ جاءت المناسبة الذهبية اذ اسيء معاملة بعض الرعايا البريطانيين – فأتاح الحادث لجنود البحرية البريطانية احتلال عدن . وبعد محاولتين فاشلتين قام بهما سلطان لحج لاستعادة سيادته على عدن ارتضى اخيراً وجود البريطانيين .

وفي الوسط كانت الجزيرة مسرحاً لاحداث جسام . حيث ادت حركة الوهابيين الى تدخل القوات المصرية التي ارسلها محمد علي . وقد احتلت جيوش ابراهيم باشا اليمن بعد معارك ضارية ، وتنازل أمامها بعد سقوط عاصمته صنعاء . وفي سنة ١٨٤٠ ، جلت القوات المصرية عن اليمن لتحل مكانها القوات التركية . ولكن الثورات القومية لم تمهلهم كثيراً هناك . وقد استمرت القوات العثمانية مع ذلك ، في احتلالها للمناطق الساحلية ، ولبعض الاماكن المحصنة ، حيث كان عليها ان تواجه غارات الجبليين اليمنيين : وفي ما بين ١٨٤٠ و ١٩١٨ كانت اليمن تعتبر ولاية تابعة للباب العالي مباشرة . وفي سنة ١٨٧٢ نجح الاتراك الذين كانوا شاكي السلاح في الدخول الى صنعاء مجدداً ، ثم في التوسع وبسط سلطانهم على القسم الاكبر من البلاد ،حيث اقاموا حكومة عسكرية . ولكن الثورة انفجرت فجأة وظل النزاع مكشوفاً حتى ذاك اليوم من سنة ١٩٠٥ ، الذي توجه الامام يحي فيه ، على رأس الثوار لاسترجاع عاصمته صنعاء ، وطرد الاتراك منها . وبعد حصار قاس انتصر الامام واعلن امام الجماهير سيادته على العاصمة ، قبل ان ينصرف

الى متابعة القتال . وفي سنة ١٩١١ ، اعترفت معاهـدة دهان بالامام يحيى سيداً على اليمن في نطاق الامبراطورية العثمانية :

وفي جنوب الولاية العثمانية ، لم يبق البريطانيون ساكتين : بل توغلوا في غاراتهم الى الداخل وراء عدن وقد وجدوا هناك امراء صغاراً على أتم الاستعداد لقبول « الحماية » البريطانية مقابل مساعدات من المال والسلاح : وكان من نتيجة توقيع معاهدات « الحماية » بين بريطانيـا ورؤساء المقاطعات التسع ، وحضرموت ، بين ١٨٧١ و ١٩١٥ أن أصبح قسم كبير مـن الجنوب العربي خاضعاً لسلطان نائب الملك البريطاني في الهند ، الذي كانت عدن تابعة له : . والجدير بالذكر أن اكثر هذه الاراضي كانت قد وصلت الى هذه الحالة عندما حددت سنة ١٩٠٤ لجنة بريطانية تركية مشتركة الحدود الفاصلة بين ولاية اليمن والمقاطعات التسع التي دخلت في منطقة النفوذ البريطاني . وقد ادخلت هذه المواثيق كلها في المعاهدة الانجليزية العثمانية الموقعة في لندن عام ١٩١٤ : تلك كانت الحالة ابان الحرب العالمية الاولى التي احتفظ فيها الامام بولائه للعثمانيين حلفائه : وخلالها جاءت القوات اليمنية العثمانية وعسكرت أمام عدن من سنة ١٩١٥ حتى نهاية الحرب : أما البريطانيون فقد حصنوا قاعدتهم وضربوا الحديدة ، واحتلوا جزيرة قمران . وبعـد اندحار العثمانيين في الحرب واعلان الهدنة جلت القوات التركية من اليمن وأعلن ستقلال البلاد :

النفوذ البريطانـي

منذ اعلان استقلال اليمن أخذ كل قسم من الاقسام التي تشكـل العربية السعيدة يسير في اتجاه مختلف . وسنة ١٩٣٤ تعتبر نقطة تحول فاصلة بسبب معاهدة « ابها » السعودية اليمنية ، ومعاهدة صنعاء الانجليزية

اليمنية بصورة خاصة (١١ شباط سنة ١٩٣٤) . وبعد أن فشلت جميع المحاولات البريطانية لادخال اليمن في منطقة نفوذهم ، قام الانجليز بعمل جوي سريع لارجاع قوات الامام الى ما وراء حدود عام ١٩٠٤ . ومن ثم ، بعد مفاوضات طويلة ، استغل الانجليز خلافات اليمن مع السعودية ، جارتها الشمالية . وفيما كانت الحرب اليمنية السعودية مشتعلة ، استطاع حاكم عدن الكولونيل برنارد ريلي الذي أصبح « سير » فيما بعد ، أن يحصل على موافقة الامام بشأن توقيع اتفاق يعترف الامام فيه بالوضع الراهن على الحدود الجنوبية « بانتظار مفاوضات جديدة » . وقع اتفاق صنعاء لمدة أربعين سنة . واعتبر نصراً كبيراً نال الكولونيل على أثره مكافأة معنوية جعلت منه فارساً بأمر ملك بريطانيا . وهكذا بعد أن أطلقت أيديهم انصرف الانجليز الى تنظيم حكمهم للمقاطعات التسع . فضمت الى حضرموت وشكلت معاً ابتداء من سنة ١٩٣٧ ، محمية عدن . ثم صدر قرار اداري لاحق ميز بين المحميات الغربية وهي المقاطعات التسع سابقاً ، والمحميات الشرقية التي تضم حضرموت والى جانبيها الواحدي الى الغرب ، ومهرة الى الشرق .

وفي اليمن ، كان على الامام أن يحارب طويلا ليقضي نهائياً على تمرد قبائل الجنوب الثائرة . وقد استطاع ابنه سيف الاسلام احمد أن يقضي على ثورة الزرانيق . واعتباراً من سنة ١٩٣٠ ، يمكننا القول بأن الاسلام عاد الى اليمن تقريباً . وبعد مغامرته ضد عبد العزيز ، رأى الامام حدوده الشمالية قد تثبتت . عندئذ تطلع الى الجنوب حيث كان النفوذ البريطاني يقلقه ويهدده ؛ فنقض شرعية الوجود البريطاني في عدن خوفاً من أن يتغلغل النفوذ الاجنبي الى داخل البلاد اليمنية . لقد حاول امام اليمن منذ حصوله على الاستقلال أن يستعيد المقاطعات التسع . وعندما عملت قواته على انتزاع امارة الضالع تدخل السلاح الجوي الملكي

البريطاني في المعركة وأرغمها على التراجع عن الامارة خائبة ، ودخلت ايطاليا الفاشستية الحلبة معتقدة أن في امكانها ان تستفيد من هذا النزاع القائم بين الامام والبريطانيين ، فاعترفت عام ١٩٢٦ باستقلال اليمن ، الامر الذي أقلق لندن . ثم تلا ذلك دخول روسيا السوفياتية الى المسرح بتوقيعها ميثاق الصداقة والتجارة مع البلد العربي .

لم يضع ميثاق صنعاء الموقّع سنة ١٩٣٤ ، فوراً نهاية للمناقشات التي كانت تنغّص العلاقات الانجليزية ـ اليمنية . الا أن الاعتراف بوجود حد ما والاتفاق عليه بين الطرفين يشكلان مستنداً وأساساً تقوم عليه الاحتجاجات في حال صدورها . ولسوء الحظ لم تكن الحدود التي عينتها اللجنة الانجليزية ـ التركية سابقاً والتي اعترف بها الامام ، سوى ثلث الحدود الوهمية بين اليمن والاراضي التي خضعت للحماية البريطانيـــة . والانفراج في العلاقات الذي تلا توقيع معاهدة صنعاء بين اليمن وبريطانيا أصبح هو نفسه موضع بحث عندما حاولت سلطات عدن البريطانية أن تتوغل الى الداخل في مناطق غير واضحة الحدود . وفي عام ١٩٣٧ ، اشتد النزاع بين اليمنيين والانجليز ، على أثر صدور القانون الملكي البريطاني الذي يحدد ما أسماه الملك جورج الخامس (محمية عـــدن) . وارتفعت الاحتجاجات ، واندلعت الاضطرابات ، بشأن السيادة على القبائل البدوية المتنقلة ، في منطقة الحدود . ان « منطقة الحدود » تعني هنا حزاماً من الاراضي يتراوح عرضه بين خمسين ومئة كيلومتر ، وله عند البريطانيين مفهوم أقسى .

في عام ١٩٣٨ بقيادة هاملتون ضابط الاستخبارات ، احتلت قوات بريطانية واخرى وطنية خاضعة للنفوذ البريطاني وتعمل لحساب التاج البريطاني منطقة شبوه التي تشكل الزاوية الشمالية الغربية للمستطيل الذي تألفت منه محمية عدن الشرقية . وقد ترك احتجاج الامام الشخصي على هذا العمل

صدى بعيداً . والسر من وراء كل ذلك مفهوم : ففي كتاب نشر بعد عشر سنوات من ذلك التاريخ ، يشير مؤلفه هاملتون ــ الذي أصبح الماستر اوف بلهافن الى أنه لاحظ نضيض البترول في شبوه اثناء احتلال قواته لها ولما كانت السلطات البريطانية أعجز من أن تجد مبرراً لهذا العمل في معاهدة تعطيها بعض الشرعية الصورية ، لذلك ادعت السلطات البريطانية في عدن وجود اتفاق شفوي بسيط بينها وبين قبائل سيار البدوية التى تسكن في تلك المنطقة ، يضع هذه القبائل في ظل الحماية البريطانية . وعلى كل حال فإن هذه الحجج الواهية لم تسْرِ على الامام واتضح لكل ذي عينين أن البريطانيين قد أخلوا بعهودهم .

وفيما يتعلق بالصلات بين اليمن وايطاليا الفاشستية فقد بقيت جيدة . وكاد الهجوم الفاشستي على الحبشة المقابلة ، ان يقلق الامام وكان لا بد لعملاء الدوتشي من أن يستعملوا كل براعتهم الدبلوماسية لتطمين اليمن وعمل هؤلاء على قدم وساق ، خاصة بعد توقيع المعاهدة اليمنية ــ الايطالية الجديدة عام ١٩٣٧ ، التي تلتها سلسلة من البعثات الفنية والطبية الايطالية الى اليمن . وفي عام ١٩٣٨ ، أرسل السوفيات بعثة جديدة الى اليمن وجددوا المعاهدة السوفياتية ــ اليمنية لعشر سنوات . واليابانيون من جهتهم ، حاولوا عن طريق « شركة يابانية يمنية » أن يوثقوا علاقاتهم بالمملكة اليمنية في الجنوب العربي . وحاولت قوات المحور أن تزعج قوات بريطانيا وفرنسا على جانبي باب المندب ، الاولى في عدن والثانية في جيبوتي واشتد الضغط هنا عندما ازدادت حدة التوتر في اوروبا . غير أن الدبلوماسية البريطانية والفرنسية استطاعت أن تحصل من الامام على تصريح واضح أعلن فيه حياده التام إبان الحرب العالمية الثانية . وفرنسا التي كانت قد اعترفت باستقلال الامام سنة ١٩٣٦ تركت له السيادة على رأس « الشيخ سعيد » في طرف الجزيرة ، عند باب المندب .

حركة انقلابية

اثناء الحرب العالمية الثانية تنافس عملاء المحور خاصة الايطاليون تنافسوا مع العملاء البريطانيين لكسب الامام يحيي ، كل الى جانبه : غير أن الامام الشيخ أصر على المحافظة على وعده بالبقاء على الحياد . ووزير الخارجية القاضي راغب بك وهو دبلوماسي سابق عرف باريس وسان بطرسبرج ويجيد الفرنسية بطلاقة ، كان دوماً يُسدي النصح للامام . وقد أصبح هذا السياسي اليمني فيما بعد أكبر نصير لتوقيع معاهدة يمنية اميركية . كما كان رسول العناية الالهية للفرنسيين المقيمين في صنعاء . وبعد الحرب العالمية الاولى بدأت الدول الكبرى من جديد تتنافس على كسب ود اليمن التي أصبحت سنة ١٩٤٥ عضواً في جامعة الدول العربية . وفي ايلول سنة ١٩٤٧ قُبلت اليمن في منظمة الامم المتحدة .

ويعتبر مصرع الامام يحيي في السابع عشر من شباط سنة ١٩٤٨ نقطة تحول في تطور البلد . وهذا الانقلاب قد دبره الامير ابراهيم على رأس عدد من المنفيين اليمنيين . وعقب هذا الحادث التاريخي أعلن أسياد اليمن الجدد عزمهم على السير ببلدهم في طريق التطور والتعاون الوثيق مع الغرب . غير أن انتصارهم كان قصير الامد ، اذ استطاع الامير احمد على رأس القبائل الموالية في الشمال ، أن يقضي على المغتصبين في أقل من ثلاثة أسابيع . واعتلى العرش مكان والده . وأولئك الذين وضعوا فيه آمالهم جميعها قد خاب ظنهم نوعاً . اذ ان الملك الجديد اختار سياسة الحذر ولم يفتح بلاده على الخارج الا شيئاً فشيئاً ، وعلى التقدم الا جزءاً جزءاً . والمحاولة الانقلابية الثانية التي حدثت في نيسان سنة ١٩٥٥ هذه المرة على أيدي أمراء أشد تحمساً للاصلاحات الجذرية دفعت سيد العربية السعيدة الى التفكير . وهي ان فشلت ولم توصل

بطليها الاميرين عبد الله وعباس أخوي الملك اللذين كانا مقتنعين بفكرة التعاون مع الولايات المتحدة وبريطانيا الى الحكم فانها كانت ذات أثر بليغ في المملكة . واذا كان الامام احمد قد احتفظ بعرشه فانه بعد أن عرف من أين تعصف الرياح قد اضطر أن يسير هو نفسه في الطريق التقدمية التي كان اخواه يريدان أن يدفعا ببلدهما فيها دفعاً .

المستوى الحياتي في اليمن

ان الثغرة التي فتحت في الجدار اليمني تتناول العلاقات الخارجية أكثر من أي شيء آخر . أما في الداخل فإن أكثر أنظمة العالم استبداداً يبسط ظلاله على اليمنيين : ترى هل هذا لسوء طالعهم ؟ ان انطواءهم على أنفسهم قديم ، ومن العسير الحكم والجواب على السؤال : ومهما يكن فان حالة التأخر معروفة ولا يمكن تجاهلها . ولا ريب ان امكانات التحسن موجودة وليست متعذرة . وعلى أثر زيارة قامت بها الدكتورة سوزان سيرين قبل ارسال البعثة الطبية الفرنسية الى اليمن وصفت عام ١٩٤٦ ، حالة اليمنيين الصحية بعبارات مؤلمة فعلاً لم يتغير منها شيء . فهناك جميع الامراض الوبائية المدارية ، التي يساعد انعدام وجود العناية الصحية على انتشارها ، والنقص في الغذاء يهتك الاجسام ويجعلها تحت رحمة الاشتراكات المرضية . والمجاعة لا مفر منها اذ انه في حالة ضآلة المحصولات في المناطق يصعب ايصال الاغذية الى السكان لانعدام طرق المواصلات . ونسبة الوفيات بين الاطفال ٩٠ ٪ .

وفي حالة البؤس الشنيع هذه ، يتعزّى اليمني بسهولة اذ يمضغ القات (مخدر) ولكن ذلك يدهور حالته من سيء الى اسوأ . وهذا المخدر شائع الاستعمال على طرفي باب المندب ، في الجنوب العربي وفي الحبشة والصومال الافرنسي . وهو عبارة عن اوراق طرية لشجيرة

القات تستهلك خضراء لتعطي نتيجتها في بعث الانشراح في النفس وتطرد النوم عن الجفون . ولدى قطافهـا تُصدّر هذه الاوراق الخضراء على متن الطائرات وتُباعُ بأسعار مرتفعة .

وفي اليمن ، يتوقف كل نشاط تقريباً بعيد الظهر وينصرف الجميع الى مضغ ورق القات . وافقر فقراء اليمن يحرمون انفسهم من الغذاء لشراء المخدر الذي يسكرهم فترة من الوقت . وهـذا التخدير اليومي يدفعون ثمنه اضطرابات معدية ومعوية عنيفة مؤلمة . كما ان الاستعمال المستمر للقات يضعف القسم الاكبر من السكان ، الذين ينصرفون الى البلادة والخمول التام عدة ساعات كل يوم .

على اثر زيارة الدكتـورة سيرين ، توجه عدة اطباء فرنسيين الى اليمن ، ووضعوا علمهم واخلاصهم في خدمة شعبها المخلص . وقد مات احدهم الطبيب ريبوليه اثناء مهمته في اليمن ، بعد ان بدأ في تعز ببناء مستشفى جديد ، لم يمهله القدر لرؤيته جاهزاً . وقد سجلت بعثة الكاتبة السيدة كلودي فيان والآنسة لانسوي لفرنسا صفحة من نور . كما استطاعت الآنسة هرمان ان تبقى في اليمن طيلة خمس سنوات ، وتعمل بشجاعة نادرة . وبسبب اتساع نطاق المهمة كان لا بد من جيش من الاطباء بل جيوش عوضاً عن بعثات لا تتجدد الا نادراً لعدم وجود ما يرغب بالنسبة لمن ليس فيه روح التضحية والرسالة . وحتى في هذه الحالة يجب الانتصار على الكثير من تثبيط الهمم . وهذا هو بالفعل المثل الذي يعطيـه طبيب العيون المشهور الدكتور غولوفين وقد نجح الممثل الوحيد للبعثة الطبية الفرنسية منذ عام ١٩٥٦ مع زوجته لأول مرة في العالم في عملية تطعيم قرنية القرد . ومن جراء المنع الذي فرضته السلطات الدينيـة ، اضطر الدكتور الى الاقلاع عن هذه الطريقة ، واوقف تجاربه . وبقي مع ذلك ، في تعز ، حيث يتابع اعتناءه بالمصابين بداء التراخوما .

ان المستوى الثقافي في اليمن ليس افضل من المستوى الصحي. وجميع اولئك الذين يشعرون بالتأخر الذي يكبّل الامام البلاد به ، يتبعون من سبقهم من المهاجرين ، ويحرمون اليمن هكذا من نخبته المثقفة . وفي الخارج شكّل اليمنيون جمعيات نشيطة ، تقوم بدعوات واسعة مركزة ضد الامام ونظامه الاستبدادي . وكما دلت على ذلك التجـــارب التي اجرتها السيدة فيان يعتبر ذكاء اليمنيين الفطري مشابهاً وموازياً لذكاء اكثر الشعوب تطوراً . وهم في بعض الاحيان مزودون برقّة وليونة في التفكير لا تُجارى .

ان التركيب الاجتماعي في اليمن هو احدى مخلفات حضارته القديمة وقد كتب الاستاذ غويتن بهذا الخصوص يقول ان المجتمع اليمني الحالي مجتمع يقوم على الاساس الطبقي ، اي طبقات مختلفة الواحدة فيها عن الاخرى ، في كل الميادين الاقتصادية والاجتماعية والدينية . وتتألف الطبقة العليا من الاسياد المعروفين انهم من سلالة النبي ، الذين هم كبار ملاكي الاراضي والعقارات ، وكبار الموظفين الاداريين ، اما المزارعون ، واصحاب الحرف ، والمتحدرون من العبيد ، والقبائل البدوية ، فإن كل فئة منهم تشكل طبقة خاصة ، مقفلة لها وظيفتها الخاصة .

ويؤلف اصحاب المهن احياناً جمعيات قوية . والفلاحون هم اكثر الطبقات تعاسة وبؤساً ، وكما هي الحالة في الشرق يرتبط الفلاح بأرضه بسبب الدين والربا في شبه عبودية . واكثرهم شقاء ، لا يجدون مخرجاً لهم من بؤسهم ، سوى الانضمام الى جيش الامام . ويمكن القول ان حالة العبيد الذين نجدهم في خدمة العائلات الغنية هي بدون شك ارفع من الظروف الحياتية التي يحياها الفلاحون المعوزون .

هكذا تعيش اليمن التي كانت سعيدة فيما مضى ، والتي يمكنها ان ان تكون كذلك من جديد . ان الاسياد الذين قد يخسرون كل شيء يخافون التقدم والتطور لذلك يعارضون بشدة كل اصلاح والامام الكهل

المريض يستند على اكثر رعاياه انعزالية وتعصباً للمحافظة على عرش مهدد بحملات المنفيين . وفي اواسط القرن العشرين ، يعطي التركيب السياسي الاجتماعي لليمن مثلا نادراً لنظام ملكي مطلق يعود الى ما قبل عهد الاقطاع .

٩

في ظل حكم الإمام الملك

يحمل الملك الزيدي مثل اسلافه في القرن التاسع لقب (امام) : وهذا اللقب وحده يكفي للتدليل على اولوية الصفة الرجعية في مهمته : فالامام هو كبير رجال الدين وهو بالنسبة للزيديين كالآغا خان بالنسبة للاسماعيليين . ومن الطبيعي ان يكون رئيس" روحي" اعلى في بلد كهذا ملكاً زمنياً مطلق السلطة . انه السيد الوحيد بعد الله ، على مملكته وشعبه الذي يسكنها ، واملاك هذا الشعب . اننا هنا امام مملكة قائمة على مبدأ الحق الالهي في اقصى حدوده الممكنة ، تشبه الى حد بعيد اليابان قديماً او التيبت حالياً . وهناك تشابه يلفت النظر بين لقب سادة اليمن اليوم وسادتها في ظل الحميريين التبعيين ، فكلمة امام ، ككلمة تبّع تعني في الواقع « الذي يسير في المقدمة » .

منذ تأسيس السلالة الملكية في سعادة سنة ٨٩٣ ، سيطر الائمة على قسم كبير او صغير من العربيــة السعيدة . والاختلاف المذهبي بين الزيديين والاكثرية الشافعية في الجنوب العربي يمكنه ان يفسر عجز

سادة اليمن عن جمع قبائل المنطقة كلها حول عرشهم . واليوم ، في حدود اليمن المتعارفة على العموم ، من المتفق عليه ان معتنقي مذهب الزيدية في الاسلام هم اقلية . ولكنهم يحتفظون بالسيطرة على البلاد اذ يستأثرون بجميع المراكز الادارية المهمـة لا سيما عن طريق احتفاظهم بالعرش . لأنه في الحقيقة ، وهنا اكثر من العربيـة السعودية، فالتنظيم الاداري والسياسي والقضائي في البـلاد لا يوازي شيئاً اذا ما قيس بشخص الملك . فما من قرار مهماً كان او بسيطاً يمكن اتخاذه الا بموافقة الملك .

والامام الحالي ، احمد بن يحيي بن محمد حميد الدين ، خلف والده على اثر ثورة سنة ١٩٤٨ وقد استعاد العرش بعد معارك عنيفة دامية . ويلقب من رعيته لدهائه وشجاعته باحمد « الجن » وقد سبق له ودحر عندما كان قائداً عاماً للجيوش والده الامام ، قبائل الزرانيق الثائرة في منطقة تهامة الشديدة القيظ . وعُيّن فيما بعد ولياً للعهد ، وكلّف ادارة منطقة الحدود الجنوبية ، الى جانب ادارة منطقة تعز ، التي تحاذي محمية عدن البريطانية . وفي تعز ، عندما خلف والده ، فضل احمد ان يثبّت عاصمته ، تاركاً صنعاء العريقـة الخائنة ، التي اباحها لجنوده على اثر العصيان : ومن قصره المحصن في « صاله » على مسافة كيلومترات من المدينة ، يدير الامام شؤون بلده لا يفوته منها لا شاردة ولا واردة . وينسب الشعب اليه مواهب عجائبية ، وقد زادت الاحداث هذا الاعتقاد رسوخاً ، وبفضل ذلك استطاع احمد الجن ان يستعيد عرشه الذي خسره بعد انقلاب سنة ١٩٥٥ ، لقد كان الامام احمد مُحاصراً من قبل قوات اخيه عبد الله التي يبلغ عددها الالفين واضطر الى ان يوقّع في الثلاثين من آذار سنة ١٩٥٥ ، بيـاناً يعلن فيه تكليف اخيه بتصريف الامور العادية ، لانحراف في صحته . وعندما علم في الثالث من نيسان بأن ابنه البدر ، بتشجيع الملك سعود ، وتأييده بدأ يحشد القبائل الموالية في

في الشمال ، ولاحظ ترددا في معسكر الثائرين ، هبّ في فجر اليوم وصعد الى سطح قصره المحاصر ، محاطاً ببضعة جنود من أنصاره ، وقفز الى مدفع رشاش صوّبه على المتمردين وفتح عليهم النيران . كانت المفاجأة كبيرة ، ففقد المحاصرون معنوياتهم واستسلم بعضهم وفرّ القسم الآخر .. وهكذا انتهت الازمة خلال خمسة ايام ، وبقي احمد الجن إماماً وملكاً على اليمن .

حكومة صاحب الجلالة

كانت هذه الثورة الفاشلة نذيراً للملك ، مما حمل فئة موالية تقدمية من رعاياه على الاعتقاد ان الامام احمد سيتبع طريقة جديدة في الحكم : وفيما عدا بعض مظاهر التجديد الشكلية ، مثل تأليف مجلس للوزراء ، فقد بقي القديم على قدمه والنظام العتيق على حاله ، ولم يبق أمام « التقدميين » إلا ان يهاجروا ، وأمام المعتدلين إلا ان يضعوا آمالهم جميعها في ولي العهد سيف الاسلام البدر ، الذي بدأ يفرض نفسه . قد يكون هذا الأمل لوناً من السراب أو الوهم ، إذ أنه اذا عدنا بالذاكرة الى الوقت الذي كان يحي يحكم فيه تذكرنا ان احمد كان يُعتبر اميراً تقدمياً ، ومع ذلك عندما استلم الملك لم يحقق شيئاً فعلياً من التقدم ، وثبط عزائم النخبة بصورة خاصة من الشافعيين الذين ضيق عليهم الموظفون الزيديون الخناق . ان المسؤلين في كل الدرجات ينتمون جميعهم الى طائفة الملك الامام . وفي الدرجة العليا يسيطر دائماً جماعة « الاسياد » الذين يتراوح عددهم بين عشرين وثلاثين الفاً وهم اغنياء ويمثلون طبقة الاشراف .

وفي القمة يتحكم الملك ويقرر محاطاً بمستشاريه الذين وضع فيهم ثقته : واذا أردنا ان نعرف كيف تعمل هذه الحكومة الفردية فان علينا ان

نقرأ ما كتبته السيدة كلودي فيان فانهـــا تعطينا عن ذلك فكرة بديعة إذ تقول :

« لا تنفصل حياة الملك الرسمية مطلقاً عن حياته الخاصة . فهو لا يأتي الى تعز ، الى قصر الحكومة ، إلا من أجل الاستقبالات الرسمية والحفلات . أما استقبالاته العادية فتتم في « صالة » ، وفي هذه الحالة يبقى الملك جالساً على الطريقة التركية ، حتى يتاح للقادم ، اذا كان من طبقة وضيعة ، ان يتظاهر بتقبيل نعل حذائه . واما اجتماعات المجلس فتعقد هنا يومياً ، وأحياناً في الليل .. اجتماعات قاسية ، بدون تبغ ولا قات . لا أحد يستطيع الكلام إلا اذا طلب منه الامام ذلك .. ويتألف المجلس من حوالى خمسة عشر شخصاً يجلسون القرفصاء عـــلى أرائك جانب الجدران ، وبالقرب من الملك يجلس رئيس وزرائه الذي يفتح الرسائل ويقرأها له . وذلك لأن طريقة الرسائل للإمام هي الأساس الذي قامت عليه هذه الحكومة . والذي يريد ان يتخلص من روتينية الادارة المحليـــة يمكنه ان يعرض قضيته على الامام ، من أي مركز للبريد ، بواسطة برقية دفعت أجرة جوابها سلفاً ، الامر الذي يكلف بضعة تاليرات . بهذا البدل يمكنه ان يكون واثقاً من ان الامام سينظر في قضيته .. ويظهر ان الامام في امكانه ان يفض أكثر من مائتي رسالة في الجلسة الواحدة . وهذه الطريقة هي موردٌ هامٌ لتغذية الخزينة ، الى جانب الرسوم الجمركية ، والدخولية ، وضريبة المحصولات التي يجمعها « مزارعون عامون » . ترى ما هي القضايا التي تعرض بهذا الاسلوب على الامام ؟ كلها طبعاً ينظر فيها بدون استئناف ، سواء أكانت مهمة أو تافهة .. لقد حكم كذلك جمع الائمة الذين سبقوه . واذا فعل الامام احمد غير ذلك شعر بأنه أدنى منهم رتبة ..

قبل انقلاب سنة ١٩٥٥ أوكل الملك بعض المهام الوزارية لأخوته . وكان الامير عبدالله الذي حرّض على الثورة وزيراً للخارجية ، وحسن

رئيساً للوزارة ونائباً للامام في صنعاء . وبعد الثورة أعـدم عبدالله مع عباس ووضع حسن في شبه منفى إذ عُهد اليه بتمثيل بلاده في الخارج وفي المنظمات الدولية بصورة خاصة .

وفي « الحكومة » المؤلفة في الحادي والثلاثين من آب سنة ١٩٥٥ التي يرأسها الامام احمد نفسه ، يشغل المركز المهم الوحيد ولي العهد سيف الاسلام محمد البدر ، الـذي يحمل ألقاب نائب رئيس المجلس ووزير الدفاع والخارجية . والقسط الذي يتحمله ولي العهد في ادارة شؤون المملكة يبدو اكبر ، يوماً بعد يوم ، وخاصة في مجال العلاقات الخارجية . وهذا لا يمنع ان الامام الملك ما زال الشيخ الاكبر ، له الكلمة الاولى والاخيرة في أقل التفاصيل .

واليمن مقسمة الى ست مقاطعات يحكمها « امراء » ، والمقاطعات الى نواح يديرها عملاء . وعلى كل من هؤلاء الموظفين ان يبقى على اتصال مستمر برقياً مع الامام . وكل ما لا يدخل في نطاق أنظمة معينة محددة سلفاً يعود أمر البت فيه الى جلالة الامام .

استبداد وهجرة

في مثل هذه الحالات ، هل ندهش اذا رأينا الناس يلجأون الى هجرة جماعية ، وهل نعجب اذا ترك الساسة التقدميون بلادهم ليضخموا صفوف الاحزاب الثورية في المنفى . وفي داخل البـلاد ، حتى في المناطق التي لا يسكنها إلا الشافعيون عُهـد بجميع مراكز القيادة الى الزيديين . ونظام الرهائن المختارين من بين ابناء الزعماء يؤمن للامام هدوء القبائل المشكوك في ولائها . والجيش ليس سوى مجموعـة من المرتزقة . وفي حالة الاضطرابات ، كما حصل في عامي ١٩٤٨ و ١٩٥٥ يعبىء الامام قواته من قبائل الشمال الموالية . في منطقة الحجة من قبيلتي

حاشد وباقل يمكنه ان يجند أكثر من مائة الف محارب . ونظام كهذا يتحمله الشافعيون والاسماعيليون بفارغ صبر مرغمين . والشافعيون ، بصورة خاصة هم الذين يهاجرون ويشنون حملاتهم العدائية على الامام من الخارج . وأكثر الاحزاب نشاطاً حزب اليمنيين الاحرار ، ومركزه في عدن وله فروع قوية بين المهاجرين اليمنيين في الصومال والحبشة والاريتريا ومصر ، وله حتى فروع نائية ، بين عمال موانىء ليفربول وكارديف . والقاهرة هي احدى الركائز الفكرية لليمنيين الاحرار . من هذه الاماكن كلها يوجه اليمنيون التقدميون من أعضاء حزب اليمنيين الاحرار وجمعية اليمن الكبرى باستمرار انتقادات لاذعة للعقبات التي يضعها الامام في طريق تقدم البلاد وتطورها . وبعض هؤلا التقدميين لا يترددون في اظهار استعدادهم ، كما كان يفعل الامراء الخونة العصاة ، لحل النزاع حول المقاطعات التسع حبياً .لذلك تلقوا بلا ريب مساعدات بريطانية . والصحف العربية أو الانجليزية الصادرة في عدن ، والتي تفرد مكاناً واسعاً للقضايا اليمنية ، وتحوي عادة حملات عنيفة ضد سياسة الامام . ومن ذلك قول صحيفة « الفضول » في السادس والعشرين من كانون الاول سنة ١٩٥٢ : « ان اليمن مستقلة ، ولكن استبداد المسؤولين فيها يجعل حالتها مؤسفة ... وخطرة . وعدد اليمنيين الذين تركوا وطنهم سعياً وراء الحرية والحياة اللائقة الكريمة يزيد عددهم على مليون وخمسة وعشرين الفاً . ان قضية اليمن هي قضية القرن العشرين واللاجىء الحقيقي في ايامنا هذه هو اليمني . »

لسنا نستطيع ان نثبت صحة هذا القول الذي يحتوي الكثير من المبالغة . ولا ريب لدينا ان جماعات المهاجرين يلعبون دوراً بارزاً في أحداث البلاد الداخلية ، وتوافق المصالح يحملنا على الظن بوجود يد بريطانية وراء ثورات سنة ١٩٤٨ وسنة ١٩٥٥ فالانقلاب الذي بدأ في السابع عشر من شباط سنة ١٩٤٨ بمقتل الامام يحيى كان قد دُبِّر ونفذ

على يد احد اولئك الذين وضع الامام ثقته فيهم ، وعلى رأسهم العراقي عبدالله الوزير ، الذي كان على اتصال وثيق واتفــاق كامل مع فريق من الثوريين اليمنيين المقيمين في عدن الذين يتزعمهم الامير ابراهيم احد ابناء الامام يحيى . وما كاد يصل هذا بالطائرة الى صنعاء بعد بدء العصيان حتى كُتب لابراهيم وانصاره ان يلاقوا حتفهم في عملية التصفية التي تلت إنتصار الجن على العصاة . وفي عام ١٩٥٥ كانت الثورة التي دعا اليها الاميران عبدالله وعباس سابقة لأوانها ، مع ان ميولهم البريطانية كانت يجب ان تؤمن لهم مساندة بريطانيا . وقــد ذكرت صحيفة الجمهورية القاهرية في عددها الصادر في السابع من نيسان بأن زعيم الحركة الانقلابية كان قد درس في الاكاديمية العسكرية في بغداد .

والمآخذ التي يأخذها المهاجرون والتقدميون على نظام الحكم القائم في اليمن متعددة ومختلفة مثل حصر الوظائف المهمة بالزيديين وانعدام وجود أبسط الحريات وعدالة عجولة قاسية ومركزية زائدة من شأنها ان تجعل الاصلاحات التي اتخذها الامام بطيئة ميؤوس منها .

ترى كيف يمكن ان تكون الحال اذا كان الملك في بلد يعد خمسة ملايين نسمة يود ان يقرر شخصياً منح تأشيرة او اعطاء اذن بشراء عشرين ليتراً من البنزين ، أو شراء طائرة أو اعدام مجرم ؟؟

وكيف تسير الامور اذا كان يريد ان يطلع عليها كلها دون شاردة أو واردة ؟؟ وأم الشكاوى التي يرفع عقيرتهم بهــا رعايا الامام هي ابقاء البلاد في حالة جمود اقتصادي ثقافي ، مع ان الدلائل كلها تُشير الى امكانية تحقيق مستقبل زاهر متكافىء مع ماضي اليمن المجيد .

لا شك مطلقاً ان نوعاً من التناسق يجب ان يضبط التطور والانماء الاقتصادي في كل بلد من البلدان المساة بالمتخلفة . وهذا التناسق يستهدف اولاً وقبل كل شيء التوفيق بين رفع المستوى المعيشي والتجدد الطبيعي والثقافي في شعب من الشعوب . أجل ان ذلك ضروري مع شيء من

الاعتدال . ولكن الامراض تأكل اليمن وتقدم السن الذي بلغه الامام ككابوس يربض فوق البلد . والتجارب اللازمة الحتمية في بلد متأخر كاليمن كان يمكن ان تختصر كثيراً لو ان هناك أشخاصاً أكفاء ذوي صلاحية ؛ ومع ذلك فانه قد تحقق في السنوات الاخيرة بعض الاصلاحات الاولية في اليمن المحرّمة . ان القرن العشرين قرن الآلة ، والتهافت على المواد الأولية والاسواق الجديدة بدأ يفعل فعله ، وامواجه تتلاطم بشدة متزايدة عند اقدام الجبال العالية التي تحجب كسد الصين العظيم ، قلب العربية الخضراء . والفجوة التي فُتحت في هذه الجبال بدأت اليوم تُتيح لبعض هذه الامواج ان تتسرب الى الداخل ، واذا كان مـدّها الحاصل لا يزال قصيراً فإن الخطوات الاولى قد تمت للافادة من الموارد الطبيعية الموجودة في مملكة الائمة الزيديين العريقة . وربما كان ذلك بداية محاولة يقصد بها القضاء على البؤس والشقاء اللذين يطردان ، منذ الف وخمسمائة سنة ، اليمنيين من وديانهم وجبالهم .

بن مخا وفراء اليمن

تعتبر اليمن من بين البلدان ذات الامكانات الاقتصادية الواسعة ، ذلك هو رأي الخبراء ورجال الاختصاص جميعاً الذين توالوا على البلد منذ عدة سنوات لاحصاء مواردها ، بناء لطلب الامام ، منهم المهندس الفرنسي السيد اندريه غورليه ، الذي نشر بعد إقامة طويلة في اليمن ، عدة مقالات مدروسة موجزة ما زالت تحتفظ برصانتها وقيمتها حتى اليوم . وقد نقّبت بعثات دولية من مختلف الجنسيات في العربية السعيدة وكشفت عن امكاناتها ثم قدمت اقتراحاتها . ولم يعد مجهولاً اليوم ان مشروعات مختارة مدروسة بدقة يمكنها ان توسع القاعدة الزراعية ،

الناحية الضرورية لكل تطوير اقتصادي . ولم يعد مجهولاً ايضاً ان الثروات المعدنية قادرة على ان تتيح لليمن مواجهة تصنيعها ، والافادة من مواردها الاولية لتدعيم ميزانها التجاري ورفع مستواها المعيشي . غير ان ثروة اليمن الحقيقية تكمن في شعبها الذكي الخلاّق الذي يستطيع ان ينفح بلاده روحاً ثورية بناءة ، شرط مساعدته على الخروج من الغيبوبة وتسليحه بالوسائل اللازمة . واليمن المعاصرة تذكرنا الى حد بعيد بيابان القرن التاسع عشر ومغرب فجر القرن العشرين . ومن الجلي الواضح الذي لا يقبل الجدل ان اليمن لن تستطيع وحدها ان تخرج عن تخلفها الاقتصادي والثقافي الكبير . ان امكانات التغيير الجذري الداخلي هي محدودة جداً بسبب النظام القائم ودرجة تطور السكان . والتدخل من الخارج ضروري لا بد منه وقد بدأنا نرى بشائره الاولى .

ان البلد ما زال زراعياً في الاساس . واليمني مزارعاً كان او راعياً متمسك بجباله في قراه المعلقة كسكان القبيلة في المشتى كي لا يحتل مساحات قابلة للزراعة في الوادي . كان السبئيون القدماء يعرفون كيف يبنون السدود الضخمة ويتفننون في وسائل الري وفي عهدهم كان الجنوب العربي بمجمله بستاناً اسطورياً . اما اليوم فان قسماً كبيراً من البلاد بات بوراً لتعذر اروائه . وفي المناطق المروية طبيعياً ، او عندما تكون مجاري المياه والينابيع من السهل الافادة منها وجرها في اقنية ، ترى الفلاح اليمني النشيط المثابر لا يترك اية بقعة في الارض دون زراعة مهما كانت صغيرة . وعلى سفوح الجبال العالية ، تبدو الزراعة في جلول كأنها سلم نحو السماء . وقد تحمل سيول الامطار الموسمية الغزيرة جدران هذه الجلول ، غير ان الفلاح اليمني الذي لا يعرف الكسل يعود لبنائها ببأس . ووسائل الري التي تستخدم الى اليوم في المناطق الغنية بالينابيع ما زالت بدائية . والطرق الزراعية التي لم تتغير منذ قرون ، تفرض على الفلاح ان يلجأ الى زراعة كثيفة مما يتطلب كثيراً من الجهود

وأكثر ضرراً ايضاً هو النظـــام الاقطاعي الذي يستغل المزارع المستأجر والربا الزراعي الذي يفتك بالملاّك الصغير ويضع حياة اليمني بين يدي رجال الاقطاع والتجار المرابين فهل نعجب اذا هجر الفلاحون اليمنيون الاراضي القديمة المنتجة تهرباً من الديون ونفروا الى زراعات اقل انتاجاً ؟

ان قهوة مخا التي تشكل حتى الوقت الحاضر ، الثروة الرئيسية في البلد ، تشكو من هذه الاوضاع. ولما كانت شجرة القات تتطلب الاراضي الجبلية ذاتها والمناخ نفسه ؛ لذلك حلت محلها في بعض من الاراضي الجبلية الجيدة . وتخفيض المساحات المروية افقد شجرة البن مساحات اخرى ، واذا عرفنا اخيراً ان زراعة البن التقليدية ، يقوم بها الفلاحون الصغار الخاضعون للتجار المرابين فهمنا لماذا يتناقص الانتاج ويهبط منذ عدة سنوات . وما كاد الامام يأخذ علماً بأمر هـــذه الاخطار حتى طلب من هيئة الامم إرسال خبير في برنامج المساعدة الفنية الواسعة مهمته دراسة امكانات تحسين زراعة البن . وكانت البعثة الدولية الرئيسية التي توجهت الى اليمن عـــام ١٩٥٦ ، تضم اثني عشر اختصاصياً درسوا مختلف فروع النشاط الزراعي وتربية المواشي غير ان تقريرها المرفوع للامام في اوائل عام ١٩٥٧ لم يُنشر . وقـــد اهتمت هذه البعثة ايضاً بقضية تحسين تربية الحيوانـــات ذوات الفرو . اذ ان تصدير الجلود (يمن) يحتل المركز الثاني في تجارة البلد الخارجية . وهو بعد البن ، القطاع الأهم في الاقتصاد الريفي اليمني بل هو اعرق منها واذا حُسن نسل الحيوانات ودبر امر الجلود الخام تمكنت اليمن من ان تضاعف أرباحها من تربية الحيوانات وبيع الفراء . وهنا ايضاً ، منع الربا هو أحد الشروط الرئيسية للتقدم .

ان بناء السدود يجب ان يسبق أي اجراء آخر في حقل الاصلاح الزراعي . ومن الممكن تحسين الزراعة اليمنية بسرعة بفضل حصر المياه وتوزيعها بطريقة علمية . في محمية عدن ، وفي ظروف أقل ملاءمة على

العموم ، استطاعت السلطات البريطانية ان تحصل على نتـائج جيدة اذ أعطت الاهمية المطلقة للسدود وأعمال الري . كما انه يجب ايضاً التفكير في تحسين طرق الحياة للسكان في نطاق نشاطاتهم التقليدية ، فالى السر القديم لرعايا ملكة سبأ ان نعود ، ببناء سدود جديدة .

نهاية الاسطورة اليهودية

ان الصناعة ، بمعناها الحديث غير موجودة في اليمن : واقامة مصنع للنسيج في صنعاء ، او معمل ترابة في الحديدة ، ما هي الا استجابة لحاجات محلية على صعيد محلي ضيق معزول ومع ذلك تحت ضغط الحاجة جرى تصنيع بعض الفروع المهنية . وفي عام ١٩٥٠ انقلبت الحياة المهنية اليمنية ومن ورائها الحياة الاقتصادية بكاملها في البلد رأساً على عقب بسبب هجرة يهود اليمن الى اسرائيل : لقد انتظر اليهود اليمنيون خمسة عشر قرناً ، بعد انتشار الدعوة الاسلامية انتظروا طويلاً بفارغ الصبر استعادة ملكهم الضائع . وكما كانت حالة اليهود في البلدان الاخرى اقتصر نشاط اليمنين اليهود على بعض المهن لانهم مُنعوا عـن مزاولة غيرها . ولكنهم برعوا في هـذه المهن واصبحوا هكذا سادة الفنون المهنية في الجنوب العربي : في عام ١٩٤٨ كان عددهم حوالي خمسين الفاً يزاولون كل المهن اليدوية ، ويشكلون عنصراً هاماً في اقتصاد اليمن والمقاطعات التسع .كانوا يصنعون ، ويصلحون ويبيعون آلاف الادوات المفيدة او المستحبة الضرورية او الكمالية التي اعتاد الانسان ان لا يستغني عنها مثل النراجيل ذات العنق الطويل ، الجنبيات (خناجر) البسيطة ، الاثواب المطرزة المتعددة الالوان ، الحلى الدقيقة الجميلة للاناث وادوات المطبخ ، الاقفال الخشبية الفنية والأبواب التي تقفلها ، الأحذية والأحزمة المطرزة ، وكثير غيرها : وما ان سمعوا ذات يوم بأن المسيح قد أتى

وان ملك اسرائيل قد أعتلى عرشه ، حتى تركوا أدوات عملهم وحملوا امتعتهم بعد ان تحزموا بكتاب التوراة ، ثم نزحوا نحو الجنوب وفي عدن أقامت الصهيونية جسراً جوياً نقلهم الى المكان الذي قيل لهم ان المسيح قد جاء ليحكمه .

لقد كنت عند الطرف الآخر في الجسر الجوي عندما وصل يهود اليمن لا يلوون على شيء . وبعد سنوات من ذلك التاريخ ، عام ١٩٥٤ درست بدقة مشاكل دمج هؤلاء اليهود اليمنيين في وطنهم الجديد ، واعتقد ان اسرائيل عندمـــا استقبلت بحفاوة هؤلاء اليمنيين افادت كثيراً منهم .

لقد خطر في بال الامام عن تعقل ان يحتفظ ببعض أرباب المهن المهمة ليعلموا مهنهم الى المسلمين ، قبل السماح لهم بالذهـــاب ولكن ذلك لم يتحقق . وبعد ذهاب اليهود غابت الأدوات التي كانوا يصنعونها من الأسواق وارتفعت أسعارها ارتفاعاً جنونياً ، واختفت حـــلاهم الفضية المشبكة بدقة فائقة ومطرزاتهم الناعمة المذهلة وزخارفهم ونقوشهم كلها من أسواق صنعاء لتظهر في أسواق اسرائيل . سيستعيد الاقتصاد اليمني ، على مر الايـــام دون شك مكانه الطبيعي ولكن التوازن القديم لن يعود في مـــدة قصيرة اذ أنه ليس من السهل في بلد دون صناعة ، الاستعاضة عن انتاج عشرات الالوف من أرباب المهن والحل لذلك، يجب أن يبحث عنه في التصنيع ، تصنيع يقصد منه تنسيق الجهود والمعارف أكثر من التهافت على الآلة . ولنأخذ مثلاً على ذلك صناعة السجاد الموشى والنسيج التي دبّ فيها النشاط عـــلى أثر التنسيق الأخير . وكي تتمكن اليمن من انجاز التصنيع بمعناه الحديث عليها أن تلجأ الى طلب المساعدات الخارجية المالية والفنية .

الامتيازات والثروات الطبيعية

ليس استثمار الثروات الطبيعية في اليمن والاستفادة منهـــا اقتصادياً ممكنين بصورة عامة إلا بعد تجهيز وتنظيم لا وجود لها حتى اليوم . من أجل ذلك استصلح ميناء مخا وشقت طريق مخا — تعز وُعبدت على أيدي شركة الباتينيول عام ١٩٥٦ . كما أن طريق تعز — صنعاء يجري فيها العمل بنشاط . وهنـــا شركة اميركية تدعى « شركة التطوير » اليمنية وهي مكلفة بشق طرقات في المناطق التي تجري فيها تنقيباتها البترولية وبالاضافة الى ذلك هناك اتفاقات متعددة معقودة بين اليمن وكل من الاتحاد السوفياتي ، وتشيكوسلوفاكيا ، والمانيا الديمقراطية . وهي تقضي بمد شبكة للطرقات وانشاء ميناء حديث جديد . وبين المصانع المنوي انشاؤها بموجب هذه الاتفاقات مصنعا ترابة يستخدم كل انتاجها لاكمال شبكة الطرقات . وهذا بالطبع هو الشرط الأساسي لاظهار قيمة اليمن ، وكان قد أشير اليه مراراً في السابق عن طريق المهندس الفرنسي اندريه غورلين سنة ١٩٤٧ وعن طريق البعثات الفنية الالمانية والايطالية التي كانت تنقب في اليمن من قبل .

وتدل اعمـــال التنقيب التي قامت بها مراراً بعثات فنية من مختلف الجنسيات ، ان هناك معادن كثيرة ولكنها لم تستغل . وهذه الثروات المعدنية اصبحت الآن معروفـــة من اولي الاختصاص وقد اكتشف في الشمال في منطقة صنعاء منجم مهم للحديد . وفي الجنوب وجد الفحم الحجري بكثرة حتى انه يبدو على السطح في منحدرات الجبال . وفي صليف عـــثر على منجم للملح كان الاتراك قد بدأوا في استثماره فيما مضى ، واعيد فتحه من جديد . وهذا الملح يحوي نسبة مرتفعة من كلورير الصوديوم تجعله في مصاف افضل المناجم في العالم . وبكلمة

موجزة يمكن القول ان اليمن من البلاد الغنية معدنياً . وتحتوي كثيراً من الذهب والفضة والاورانيوم ، والنحاس والماغنيزيوم والبوتاس ، والملح ، والحديد والفحم . وعلى الرغم من هذا الغنى الوفير فإن الذي يهم الشركات الاجنبية ، قبل كل شيء انما هو البترول . وقد عثر على دلائل مشجعة في منطقة صليف حيث حصلت شركة المانية تدعى « ديلمان برغبو » على امتياز للتنقيب ، من الامام عام ١٩٥٤ . والمنطقة التي حددها الامتياز تمتد حول الحديدة في تهامة . ومدة الاتفاق هي عشرون سنة ويصبح لاغياً اذا لم يعثر على البترول في ظرف خمس سنوات . لقد عيل صبر الامام الذي اسهم مادياً في نفقات التنقيب اذ ان الشركة الالمانية بعد مرور ثلاث سنوات كانت اعجز من ان تعد الامام بانتاج تجاري على الرغم من الدلائل الثابتة المشيرة لوجود البترول. وخلال سنة ١٩٥٥ حصل خلاف شديد بين الامام والشركة اذ راحت تطالبه بأموال لمتابعة عملية التنقيب . وبعد بضعة اشهر منح الامام امتيازاً مدته ثلاثون سنة لشركة اميركية هي « شركة التطوير اليمنية » وشملت منطقة الامتياز ثلثي الاراضي اليمنية في الشمال والشرق وعلى حدود الربع الخالي ويرأس هذه الشركة المثري الاميركي الكبير جورج آلن ومدير اعمالها السيد والتر جبلر ، وقد بدأت اعمالها فور توقيع عقد الامتياز وانتهت الابحاث الجيولوجية الاولى في النصف الاول من عام ١٩٥٦ . وفي خريف ذلك العام بدأ التنقيب . كما ان آلات الحفر كانت قد أرسلت الى اليمن في شهر ايلول في السنة نفسها . خلال ذلك بلغ سوء التفاهم بين الامام والشركة الالمانية المنقبة في منطقة تهامة ذروته وانتهى بابطال العقد . وفي نفس الوقت الذي كانت الشركة الاميركية تعيد النظر في بنود اتفاقيتها لصالح اليمن ، تبرعت بدفع كل ما صرفته الشركة الالمانية ، مع الاموال المتوجبة لها في ذمة الامام. وهكذا بقيت الشركة الاميركية وحدها ، صاحبة امتياز التنقيب عن النفط في اليمن .

وهذا التنقيب يثير بالطبع خلافات كما هي الحال في مناطق اخرى من الجزيرة العربية . وفي الوقت الحاضر لم ترتد هذه الخلافات بعد طابع الحدة ولكن حدود المنطقة المتنازع عليها بين بريطانيا واليمن تقع في المنطقة البترولية المعروفة بيهان — شبوة — عياضه. وفي حياض هذا المثلث المثقل بالآمال ، تعمل احدى توابع شركة بترول العراق هي شركة الامتيازات البترولية المحدودة التي نالت امتياز التنقيب عن النفط في محمية عدن كلها .

الجبلي والاحتكارات الملكية

في اليمن مظهر من مظاهر النظام السياسي والاقتصادي لا يمكن تجاهله هو الاحتكار العملي لجميع المبادلات التجارية الخارجية ، وقد استطاع تاجر واحد هو الحاج علي محمد الجبلي ، ان يصل في بضع سنوات الى مركز فريد ، مشركاً الملك في كل صفقاته . لقد احيا في الامام حب المال ، بعد ان اشركه بنسبة راجحة في كل الصفقات التجارية. وبفضل الثقة الملكية اصبح هذا التاجر ممثلاً شخصياً للامام في كل ما من شأنه ان يدخل في نطاق الاقتصاد والتجارة . وهكذا اصبح الجبلي الشخص الرئيسي في الاقتصاد اليمني .

انه يشرف مع شريكه الملك على تجارة البلد الخارجية ويحتكران معاً التبادل التجاري الداخلي مثل جمع الجلود والقات والبن وجميع المنتجات المعدة للتصدير . ويزيد في سهولة ذلك ان الجبلي يسيطر ايضاً على وسائل النقل . وهو علاوة على ذلك يؤمّن استيراد القمح والسكر والرز والبترول والمنسوجات وجميع الآلات المصنوعة التي تحتاجها اليمن : وهذه السيادة المطلقة للرجل الذي احتكر ثقة الامام لها مبررها . فقد استطاع صاحبها ان يُثير اهتمام احمد الجن في كل صفقاته. والمراس الطويل جعله يعرف

معرفة تامة السوق الداخلي والاسواق الخارجية . وزوال خطوته الذي أعلن عنه مراراً كان يُكذّب دائماً . فالامام لا يستطيع الا بصعوبة زائدة ان يقرر التخلص من هذا المساعد المفيد .

ومع ذلك فإن العلاقات الاقتصادية الجديدة التي اقامتها اليمن في السنوات الاخيرة ، تهدد الى حد ما بتحوير التبادل التجاري اليمني . فالاتفاقات المعقودة مع روسيا السوفياتية والبلدان الشيوعية الاخرى علاوة على المساعدة الفنية والمالية تستهدف تزويد اليمن بكل ما يلزمها من تجهيزات . وعملياً كانت بداية المساعدات السوفياتية — الشيوعية شحنة من الاسلحة الحديثة الى اليمن . وبعد عدة اسابيع انفجرت في الجنوب العربي اعنف اضطرابات عرفها منذ اربعين سنة .

ومهما يكن من امر حقيقة المساعدة السوفياتية فإن الولايات المتحدة لم يكن في امكانها الا ان تقوم بعمل معاكس.وفي شهر ايلول سنة ١٩٥٧ وصلت بعثة اقتصادية اميركية الى صنعاء لتعرض على الامام مساعدة مالية قدرها مليونا دولار للسنة الاولى ، وقد قبل هذا العرض من جانب الامام مع الشكر في البدء ثم اعلن رفضه له فيما بعد ؛ مؤكداً انه «يفضل الاستقلال مع البؤس على التبعية مع الرفاهية» . وهو بذلك يتجاوب مع الرفض المتعالي عام ١٩٤٧ للمساعدة الاميركية ، الذي اطلقه بعنفوان الامام الراحل يحيى ، اذ قال : « افضل أكل العشب على رؤية الاجانب في بلدي يحصلون على امتيازات لاستثمار خيراتها » . ومع ذلك دخلت الدول الكبرى في معركة عنيفة من اجل الامتيازات في اليمن ومن اجل اسواقه . ونتائج انقسام العالم الى كتلتين متناحرتين متنافستين ، لم توفر قم العربيـة السعيدة . غير ان اليمن وقد تعلمت مبادىء « الحياد » عرفت كيف تدفع العملاقين الاميركي والسوفياتي الى التنافس .. لتحصد هي الاثمـار . ترى هل يحل المبدأ الجديد في السياسة الخارجية محل الانعزالية التقليدية ؟

ليس الامر سهل التأكيد . واذا عدنا قليلاً الى الوراء تذكرنا ان اليمن صاحبة سوابق في حقل الحياد . ففي فترة ما بين الحربين العالميتين، كان الامام يحيى قد قبل شاكراً ، الصداقة الخطرة التي عرضتها عليه كل من ايطاليا موسوليني ، وروسيا السوفياتية لمواجهة الضغط البريطاني على بلاده . وعندما اعتقد الايطاليون الفاشستيون انه اصبح في امكانهم التصرف بشؤون اليمن كما يشاؤون،لم يتردد الامام في ان يبتسم للانجليز: المهم في نظر سادة المملكة اليمنية العريقة ان لا تحتكر دولة مهما عظمت، صداقة اليمن وحدها خوفاً من ان تدعي حمايتها . والابقاء على توازن مستمر هو ضرورة قصوى لتخرج اليمن من انعزالية تجد تفسيرهـــا في التاريخ اكثر مما تجدها في العنفوان الذي يتحلى به جبليو العربية الخضراء

١٠

العزلة اليمنيّة

في الحجة قطع جلاد الامام في الثالث عشر من نيسان سنة ١٩٥٥ ، بفأسه رأس الاميرين المتآمرين عبد الله وعباس : اما المتآمرون الآخرون فدقت اعناقهم في حفلة عامة . والصور الدامية لهؤلاء المذنبين ، تُباع اليوم في اسواق اليمن ببضعة « بوكشاس » . وفي خطابه الذي القاه في الثلاثين من تموز لمناسبة العيد الكبير صرح الامام بأن عبد الله كان قد اعد مشروعاً يعطي نهائياً محمية عدن للبريطانيين وفتح اليمن امام الاميركيين لامركتها ، وثمناً لهذه الخيانة دفع عبد الله حياته ، وهذا منتهى العدالة . وبعد مضي ثلاثة اشهر منح الامام الامتياز البترولي الذي تحدثنا عنه للشركة الاميركية « شركة التطوير اليمنية » . ووصف عمله هذا بأنه تاريخي . ثم خلال سنة ١٩٥٦ ، توجه الامير البدر ، ولي العهد ، الى كل من الاتحاد السوفياتي والمانيا الشرقية ، وتشيكوسلوفاكيا ، ليعود بحفنة من الاتفاقات والوعود لتقديم المساعدة لبلده . والخبراء الاميركيون ، والسوفيات ، والايطاليون ، والالمان ، والدوليون ،

يفدون تباعاً الى اليمن بأعداد متزايدة : وعادت مشروعات قديمة متواضعة لترى النور . ترى هل سيسمح الامام احمد باستمرار هذا الغز و السمي لبلده يقوم به أجانب مارقون ؟

قبل الاجابة على هذا السؤال الهام بالنسبـة لليمن يجب أن نشرح تاريخياً سياسة سور الحذر الذي يطوق البلاد لنقدر قيمته وأهميته . واذا فتشنا عن سبب هذا العداء اليمني للاجانب وجدناه في الجهـل الذي ساعدت العزلة على ترسيخه ارادياً . وأنا لا اعتقد أن الفلاح اليمني أكثر عداء للاجانب من فلاح « اوكرنيا » رغم ما لديه من أسباب موجبة لذلك . وقد اضطر سكـان الجنوب العربي الشجعان أن يدافعوا عن بلدهم الصعب المسالك ضد الكثيرين من الغزاة والطامعين ، مجندين بقيادة أمرائهم الى معارك عنيفة دامية خلال القرون الطوال ، الامر الذي جعلهم شديدي الحذر من كل « أجنبي » :

« والاجنبي » كما يقول المثل اللاتيني القديم عدو . وفي مجتمع لم يرَ من الاجنبي سوى الجشع والطمع والرغبة في الاحتلال والسيطرة لا يُستغرب اذا أصبح الحذر غريزياً في النفس : بل لا يستغرب أيضاً اذا دفع الى اقفال الباب ، وتحريم البلد على اولئك الذين لا ينتظر منهم أي شيء حسن خير : واذا تذكرنا أن هذا البلد مؤلف من جبال شاهقة محاطة بسواحل شبه صحراوية ، صعبة المسالك ، ادركنا لماذا تحولت الانعزالية طريقة حياة ، بل قانوناً ودستوراً في اليمن : حتى أن مندوب هذه الدولة في هيئة الأمم قال مرة إن العزلة التامة توجه سياسة جلالته : ولكن تُرى هل يوجد في العالم مبادىء في ادارة الرجال والثروات ، لا يستطيع الزمن أن يؤثر فيها ويغيرها ؟ لقد فتحت ثغرة كبرى في « السور الكبير » الذي يقفل اليمن وكما حدث بالنسبة لسد مأرب من الممكن أن تؤدي هذه الثغرة الى انهيار السور انهياراً تاماً : ان العلم والتكنيك شيئاً فشيئاً يصدعان ما تبقى من السور ويفسخان الكتلة الصلبة

المتراصة التي كان يستند اليها الائمة الزيديون . وفي ١٩٥٧ م . عقد الامام أول مؤتمر صحفي له ، أمام ثلاثين صحفياً أجنبياً تقريباً . وكان ذلك العمل في حد ذاته هاماً بسبب الزاوية الجديدة التي نظر الى الامور من خلالها . انها علامة التقدم ودليل التطور والاستمرار ومضاعفة الجهود . وهذا الاستمرار والتطور وحدهما يمكنهما ان يعطيا لذلك معنى حقيقياً . وفي هذا المضمار علينا أن لا ننسى البعثات الاجنبية ــ الايطالية والسوفياتية بصورة خاصة ــ في فترة ما بين الحربين ومما يلاحظ ان الامام بهذا الصدد متردد فهو يقدم ويحجم . وبعد أن منح امتيازات ، أو فتح باب العمل امام الاجانب ، تراجع كأنه خائف ، أمام النتائج . وقد مر بهذه التجربة فريق من الاطباء الفرنسيين كان قد قدم الى صنعاء بناء على طلب الامام ولما وصل وجد نفسه ممنوعاً من دخول اليمن بناء لأمر الامام نفسه .

اليمن والمغرب

ان التطور اليمني في نظري يتخطى نطاق الجنوب العربي . ولست أدري اذا كان ذلك شعوراً حقيقياً أو مظهراً خداعاً . واذا قامت اليمن من كبوتها تمكنت بفضل ثرواتها الطبيعية وشعبها النشيط ومركزها الستراتيجي ، في ظرف سنوات ، أن تحول تركيب القوى في الشرق الأوسط . وعن طريق ذلك يمكن أن تتغير بعض المعطيات الدائمة في السياسة الدولية . ان الأمر لا يبدو أكثر استحالة مما كان بالنسبة لليابان ، وبعض القرائن تدفعنا الى التفكير . ان الظروف السياسية والتاريخية هي التي تقرر ذلك . لقد أراد الانجليز سابقاً يقظة اليابان لتفكيك عرى القوة الروسية القيصرية فكان لها ذلك . ترى ما الذي يمنع روسيا السوفياتية من أن تلجأ الى فكرة ايقاظ اليمن للقضاء على الوجود

البريطاني في الجزيرة العربية ؟ ان هذا الافتراض ليس عقيماً غريباً وسنرى لماذا .

ها هي مراكش القريبة تصلح مثلاً لذلك وهي تشبه اليمن في ماضيها القريب تماماً . منذ خمس وأربعين سنة قبل احتلال فرنسا كانت الدولة الشريفية شبيهة باليمن . واليوم هي بلد فتي تزداد أهميته مع الزمن ويفرض نفسه على المسرح الدولي ، وما دامت العربية السعيدة تملك الثروات الرئيسية والحياة المحببة فليس ما يمنع أن تلعب الدور نفسه . ومنذ نصف قرن كانت الظروف نفسها قائمة في المغرب من حيث العزلة ونظام الحكم . ومع ذلك نهضت مراكش بالقرب من جبل طارق . فهل نرى قريباً في جوار باب المندب نهضة يمنية ؟

العداء لبريطانيا ، ركيزة السياسة الخارجية

تشير جميع التصريحات والخطب من قبل المسؤولين في اليمن الى الخوف المستمر من الوقوع في التبعية الاقتصادية للاجنبي ، تحت ستار استثمار الثروات الطبيعية . ويجب الاقرار ان الخوف اليمني ليس مرده الخيال ، والأمثلة التاريخية والمعاصرة على ذلك كثيرة .

ومع ذلك فان المسألةهي اختيار اهون الشرين . وقد بدأ الاختيار وقال كل من يحيي وابنه احمد كلمته ولكنه عاد وتوقف . وبعد والده بمدة طويلة لم يحِد احمد قيد انملة عن مخطط سياسة يحيي ، هذه السياسة التي يمكن اختصارها في الانعزالية القومية والحياد وبعض التعاون والتضامن العربي والاسلامي . والضرورة دفعت الأئمة مع ذلك ، الى القبول ببعض الاخلاف ، وذلك للوصول الى الهدف المنشود الا وهو طرد

البريطانيين من عدن والمحميات التي تعتبر جزءاً لا يتجزأ من المملكة الزيدية . وهذا المطلب مؤخراً بلغ ذروته وهو ليس كلاماً فحسب . بل تحول الى اضطرابات دائمة الحدوث على الحدود الجنوبية مع محمية عدن . وما عدا ذلك تميل اليمن الى الابقاء على حيادها اذ تُقصْر علاقاتها مع الخارج ، على الضروري جداً فقط . وهكذا خلال حكم يحيى الذي دام ثلاثين سنة ١٩١٨ – ١٩٤٨ لم تنشأ اية علاقة دبلوماسية دائمة بين اليمن والدول الاخرى. وفي سنة ١٩٥٣ أيضاً قال الامام احمد في عيد الجلوس ما يلي : « انني أسمع أحياناً بعض الناس يجدفون قائلين ان اليمن متأخرة جائعة معدمة انا لا أنكر الحقيقة ، ولكنني اود أن أسأل هؤلاء المغفلين اذا كانوا يفضلون التقدم في نطاق العبودية التي فرضها عليهم المستعمرون . » ومع الزمن لا شعورياً تغيرت نظرة سادة اليمن شيئاً فشيئاً . اذ أن القضية الوحيدة التي تهم اليمن وهي استعادة المقاطعات التسع – تستلزم اجراءات ، غير المفاجآت والغزوات . وقد وجد الامام اول حليف له في شخص عبد العزيز بن سعود على أثر حرب عسير القصيرة ومعاهدة « ابها » التي تلتها . وفي عام ١٩٣٧ انضمت اليمن الى ميثاق الاخوة العربية والتضامن الذي عُقد قبل ذلك بسنة بين السعودية والعراق . وبما ان الامام يحيى قد كلف السعوديين رعاية مصالحه في الخارج فقد رأى نفسه مرتبطاً تقريباً بالسياسة السعودية الخارجية التي كانت تهدف في ذلك الوقت ، بصورة خاصة الى الاحتجاج على سياسة البريطانيين الغامضة في فلسطين ، هذه السياسة التي كان فيها الكثير من الدوافع لاغضاب العرب والصهاينة على السواء . وفي المؤتمر العربي الذي عُقد في الاسكندرية عام ١٩٤٤ لتأسيس الجامعة العربية ، اكتفى الامام بارسال مراقبين فقط . وفي الثاني والعشرين من آذار سنة ١٩٤٥ ، مع ذلك ، انضم الى جامعة الدول العربية الى جانب العربية السعودية وسوريا ومصر والاردن والعراق ولبنان . وأما

ليبيا والسودان وتونس والمغرب فقد انضمت فيما بعد :

ان دخول اليمن في جامعة الدول العربية يُعتبر نقطة تحول اذ ان هذا الحدث قد منح الامام مساندة هيئة دولية كانت تنقصه من أجل تحقيق مطالبه . وقد تلا ذلك الدخول مباشرة توقيع ميثاق الصداقة المصرية اليمنية (٢٢ آب سنة ١٩٤٦) . خلال دورة الجامعة الثالثة في آذار ـ نيسان سنة ١٩٤٦ جرت مفاوضات بين مصر واليمن انتهت بالموافقة على اقامة علاقات دبلوماسية مع اليمن ، طبقت عملياً عام ١٩٥١ في عهد الامام احمد . وبناء لمشورة ابن سعود قدم الامام طلب انضمام الى هيئة الامم المتحدة ، وفي ايلول سنة ١٩٤٧ قبل هذا الطلب . واسوة بموقف الدول العربية الاخرى رفضت اليمن قرار التقسيم في فلسطين ؛ لذلك دخلت رسمياً الحرب ضد اسرائيل في الخامس عشر من أيار سنة ١٩٤٨ غير ان اعلان الحرب بقي شكلياً ، وما زال البلدان في حالة حرب من حيث المبدأ لأنه لم يتم توقيع أية هدنة بينهما بعد الحرب العربية ـ الصهيونية . في منطقة الشرق الاوسط التي تثور كالبركان ، تقلص نفوذ بريطانيا في كل مكان . وكانت المفاوضات المصرية ـ البريطانية من أجل الجلاء فرصة مناسبة لليمن كي تعلن تضامنها مع مصر ضد بريطانيا . ثم جاء توقيع حلف بغداد عام ١٩٥٤ ليشد أواصر التضامن بين أعداء السياسة البريطانية ، مصر وسوريا والعربية السعودية واليمن . وقد ظهرت نتيجة ذلك لدى توقيع ميثاق جدة في الحادي والعشرين من نيسان سنة ١٩٥٦ . وهو اتفاق عسكري ثلاثي بين مصر والسعودية واليمن ، يجعل جيوش الدول الثلاث تحت قيادة مصرية موحدة . وكان هذا الاتفاق فعلاً بمثابة صفعة مؤلمة للندن كما أشارت لذلك صحيفة التايمز بمرارة في ٢٣ نيسان سنة ١٩٥٦ . غير أن توقيع ميثاق جدة كان له بالاضافة الى ذلك نتائج أخطر بكثير مما سبقه من المواثيق العربية ، لأن الاتحاد السوفياتي أفاد من هذا التطور في الاحداث ليبرز عن طريقه

على مسرح السياسة الدولية في الشرق الاوسط .

الدبلوماسية الدولية

في عام ١٩٢٨ ، بواسطة ممثلين مسلمين ، تسلل الاتحاد السوفياتي الى اليمن اذ عقد معها ميثاقاً للتجارة والصداقة . في ذلك الوقت كان النشاط الايطالي يقلق اكثر دول البحر الاحمر ، من سنة ١٩٢٧ حتى قبيل الحرب العالمية الثانية ، كانت ايطاليا الفاشستية تنعم بمركز ممتاز في الجنــوب العربي . وعلى الرغم من العدوان الفاشيستي على الحبشة والتوتر الجزئي الذي نتج عنه ، نجح موسوليني ، عام ١٩٣٧ ، في عقد معاهدة ايطالية — يمنية جديدة ، اعترف الامام فيها بالسياسة الايطالية في الحبشة . ومع ذلك لم يستطع العملاء الايطاليون ان يجروا اليمن الى جانبهم في الحرب العالمية الثانية . وبعد الحرب عادت عدة بعثات ايطالية الى الظهور في الجنوب العربي . والاطباء الذين ارسلهم الدوتشي بقوا في اليمن حتى وصول البعثة الطبية الفرنسية .

وفي سنة ١٩٣٨ حصلت روسيا السوفياتية على موافقة الامـام ، في تجديد معاهدة التجارة والصداقة بين اليمن والاتحاد السوفياتي . ولكــن التوتر الدولي والحرب قضميا على هذه العلاقات الطيبة . والجهود المستمرة التي قام بها السوفيات من أجل اعادة هذه العلاقات لم تصل الى نتيجة إلا عام ١٩٥٦ ، حيث نجحت نجاحاً منقطع النظير . والولايات المتحدة بدورها أرسلت بعثتها الاولى الى اليمن عام ١٩٤٧ بقيادة الكولونيــل ادّي . ويجب الاقرار ان المصالح الاميركية المتزايدة في الجزيرة العربية لم تعد تسمح للخارجية الاميركية بأن تتجاهل اليمن ، وقد وصلت البعثة الاميركية الى صنعاء ومخططها يتضمن أمرين : هما الاعتراف رسميــاً باستقلال المملكة المتوكلية اليمنية استقلالاً تاماً ناجزاً ، وعقد معاهدة

صداقة وتجارة مع الامام بشكل بسيط في البداية . وقد اعترضت بعض الصعوبات المفاوضات ، ثم بفضل تدخل القاضي راغب بك ، وقع الاتفاق اليمني الاميركي في الرابع من ايار سنة ١٩٤٦ لاجل غير محدود ، على أمل ان توضع فيما بعد معاهدة اكثر تفصيلاً . وعلى أثر الاتفاق أمكن اقامة علاقات تجارية بين البلدين . أما العلاقات الدبلوماسية فقد تأخرت حتى عام ١٩٥١ اي نفس التاريخ الذي أقيمت العلاقات فيه مع بريطانيا ومصر . وفي عام ١٩٥١ ايضاً حصلت بعثة فيليبس الاميركية للتنقيب عن الآثار على اذن من الامام للتنقيب في منطقة مأرب . ولكنها بعد ان قامت ببعض التنقيبات الاولية اضطرت لأن توقف أعمالها تاركة كل ما لديها من تجهيزات . وما ذلك الا لأن السيد فيليبس لم يكن يهتم بالآثار القديمة قدر اهتمامه بالبترول . وفي هذا المجال بالذات كانت ذروة نجاح النفوذ الاميركي على يد شركة السيد جورج الن البترولية التي حصلت في تشرين الثاني سنة ١٩٥٥ ، من الامام على امتياز للتنقيب مدته ثلاثون سنة . ورئيس شركة « التطوير اليمنية » هذه الذي هو في الوقت ذاته رئيس « الشركة الفولاذية الجمهورية » صديق مقرب ومستشار مالي شبه رسمي لرئيس الولايات المتحدة الاميركية . ويمكن ان يُعزى الحصول على الامتياز الى البعثة الاميركية الاقتصادية التي قصدت صنعاء من أجل ان تعرض على الامام مساعدة مالية من قبل الرئيس ايزنهاور . ترى أليس هذا شبيهاً بما فعلته الأرامكو التي دفعت حكومة واشنطن الى منح حكومة الرياض مساعدة مالية ، من أجل تقوية مركزها في العربية السعودية .

بعد محاولة الانقلاب الفاشلة ١٩٥٥ فتحت صفحة جديدة بالنسبة للدبلوماسية اليمنية . لقد سبق للأمير عبد الله ان ألحّ بشدة على والده ثم على أخيه من أجل توثيق الروابط وتوسيع نطاقها بين اليمن والخارج لا سيما الولايات المتحدة الاميركية وانجلترا . ومن أجل ذلك عيّن على

رأس وفد اليمن الى هيئة الأمم المتحدة منذ عام ١٩٤٧ مما أتاح له ان يزور عدة أقطار أعجب بتقدمها وحضارتها . وعلى العكس منه كان أخوه الأكبر حسن عدو كل اصلاح . وبوصفه نائباً للامام في صنعاء كان ذا حظوة زائدة لدى الاسياد . ويعتبر الرجل القوي في الامامة ، وزعيم حزب المحافظين فيها . أما عباس الأخ الثالث المكلف بأمور القبائل فقد اختار ان يقف الى جانب عبد الله ويقاسمه آراءه . لقد ساء هؤلاء الأمراء الثلاثة أخوة الامام ان يروا أخاهم يُعلن عام ١٩٥٤ ابنه محمد البدر ولياً للعهد فتمردوا وكان ثمن هذا التمرد الفاشل رأسي عبد الله وعباس . عندئذ عاد حسن من رحلة في المانيا فعهد اليه بتمثيل بلاده في مؤتمر رؤساء الحكومات العربية المنعقد في القاهرة . ثم جاءته الأوامر ليتابع طريقه الى شرقي آسيا كي يمثل اليمن في مؤتمر باندونغ في نيسان ١٩٥٥ . وفي شهر حزيران ، كان الأمير حسن في طوكيو حيث دعا الميكادو الى زيارة اليمن ثم وقّع بالحروف الأولى معاهدة صداقة يابانية — يمنية . ومن هناك توجه الى سان فرنسيسكو ليشارك في احتفالات ذكرى مرور عشر سنوات على تأسيس هيئة الأمم المتحدة . ويبدو من اعطاء الامير حسن هذه الفرص للاتصال بالاوساط الخارجية ان الامام احمد يرمي الى هدفين هما ابعاد منافس خطير من امام ابنه البدر في الداخل واضعاف معسكر اعداء الاصلاح والتطور . وتدعيماً لمركز ولي العهد عين الامامُ الاميرَ البدر الذي اعلن مراراً انتهاء عهد الانعزالية نائباً لرئيس الحكومة ووزيراً للخارجية في الحكومة التي تألفت في آب سنة ١٩٥٥ ، ومنذ ذلك الحين والامير البدر يلعب دوراً تتزايد اهميته مع الايام ، في تاريخ اليمن الحديث .

النفوذ السوفياتي الشيوعي

وصل ولي العهد اليمني الى ذروة الشهرة العالمية دفعة واحدة باستجابته

الى دعوة بولغانين لزيارة موسكو في حزيران سنة ١٩٥٦ . والتصريح الذي اعلنه عند اقلاعه من القاهرة في الحادي عشر من حزيران جعل الكثيرين من المسؤولين في الدول الغربية وغيرها يقطبون حواجبهم لقد قال : « ان الاتحاد السوفياتي هو الصديق المخلص للبلاد العربية جميعاً »
لقد حاول الاتحاد السوفياتي عبثاً خلال سنوات متعددة ، ان يعيد ربط علاقاته مع اليمن على البحر الاحمر ، والسفير السوفياتي في القاهرة ، كيسيليف هو الذي استطاع ان يذلل جميع العقبات وينجح في مهمته .
لقد بدأت المفاوضات المترجرجة في القاهرة ، عندما صعق العالم بنبـــأ تزويد مصر بأسلحة سوفياتية . وبعد شهر واحد من ذلك التاريخ في الثلاثين من تشرين الاول سنة ١٩٥٥ وقع ميثاق الصداقة السوفياتية اليمنية بالحروف الاولى . وحتى قبل الموافقة عليه رسمياً توجهت الى اليمن بعثة خبراء سوفيات ثم تبعتها بعثات تشيكية وبولونية . انهـــا حقبة الموجة الشيوعية العارمة باتجاه العالم العربي بقيادة السيد شبيلوف الذي تسلم وزارة الخارجية السوفياتية . في القاهرة اظهر السيد كسيليف نشاطاً بارزاً . وبعبارات شبه صريحة ، وعد اليمن بمساندة الاتحاد السوفياتي لها في نزاعها مع بريطانيا من اجل المحميات . وعندما وقع الامام احمد في الحادي والعشرين من نيسان سنة ١٩٥٦ ميثاق جدة الثلاثي (مصر السعودية اليمن) تلقى من السفير السوفياتي دعوة رسمية لزيارة الاتحاد السوفياتي فقبل الدعـــوة دون تردد ، ولكنه اعلن بأن ابنه وولي عهده ووزير خارجيته محمد البدر سينوب عنه في هذه الزيارة . وفي فجر يوم من ايام حزيران الدافئة طار الامير البدر من مطار القاهرة الى موسكو لينتقل من هناك الى براغ فبرلين الشرقية . وهو اول مسؤول عربي عامل يتجه الى الاتحاد السوفياتي ، بعد مضي اقل من شهرين على توجيـــه الدعوة اليه .

وبعد أن قابل المسؤولين السوفيات ، وقع الأمير البدر بياناً مشتركاً

مع المارشال بولغانين ، يتعهد بموجبه الاتحاد السوفياتي بمساعدة اليمن على تطوير اقتصادها بتحقيق مشروعاتها العمرانية وتزويدها بالتجهيزات السوفياتية اللازمة لذلك . كما اتفق ايضاً على إقامة علاقات دبلوماسية ثابتة بين البلدين . وعهد الى كل من سفيري الاتحاد السوفياتي واليمن في القاهرة بأن يمثل بلده لدى البلد الآخر . ومن ثم توجه الأمير البدر الى تشيكوسلوفاكيا والمانيا الشرقية حيث زار المصانع العديدة وقابل المسؤولين .

وفقاً لتصريحات الامير البدر والشيخ الجبلي المختلفة تشير الاتفاقات المعقودة الى ان الاتحاد السوفياتي سيقوم بمد شبكة طرقات وبناء موانىء في اليمن ، يستوفي نفقاتهـا بعد عشر سنوات باسعار تكون اقل ٣٠٪ من الاسعار العالمية . كما ان الاتحـاد السوفياتي مستعد لتمويل مشروعات التطوير الاقتصادي ، وقد وعد بتقديم كل مساعـدة فنية لازمة لذلك . أما تشيكوسلوفاكيا ، من جهتها فقد تعهدت بانشاء مصنع للترابة في تهامة ، وتزويد اليمن بكل ما يلزمها من خبراء لتصنيعها . كما اعلنت استعدادها لقبول الطلاب اليمنيين في جامعاتها . والمانيـا الشرقية بدورها ابدت رغبتها في انشاء مصانع للترابة والزجاج ، والأثمار المجففة ، ودباغة الجلود ، على اساس المبادلة التجارية . وتعهدت موسكو وبرلين الشرقية ، علاوة على ذلك ، ببناء مينـاء حديث في الحديدة أو لحية ، يكلف اربعة ملايين جنيه استرليني . وفي هذه المناسبة نذكر ان ميناء الحديدة كان قد دمر بالقنابل البريطانية عام ١٩١٧ مما وضع تجارة اليمن الخارجية تحت رحمة الانكليز سادة عدن ، المرفـأ الوحيد الصالح في المنطقة مدة طويلة . وظلت الحال كذلك حتى سنة ١٩٥٦ عندئذ جرى تنظيف ميناء مخا من الرمال واصبح في امكانه ان يستقبل السفن الصغيرة ومن بينها سفن « الشركة البحرية اليمنية » . ان بناء الموانىء وانشاء الطرقات اذا اضيف اليهما اتساع آفاق فكر المسؤولين ،

قد يؤدي الى قلب الحياة في اليمن رأساً على عقب .

علاوة على الاعتراف بجمهورية الصين الشعبية في آب سنة ١٩٥٦ ، كان من نتائج التقرب اليمني السوفياتي البين اشتداد التوتر في العلاقات الانجليزية — اليمنية. ومنذ شهر تشرين الثاني سنة ١٩٥٦ وصحافة الجنوب العربي في محميات عدن ، تنشر المعلومات والتفاصيل الوافية عن السفن المحملة بالأسلحة لحساب اليمن من المعسكر الشرقي . وبعد مضي عدة اشهر اضطرت وزارة الخارجية البريطانية الى الاعتراف تحت الضغط البرلماني بأن الدول الشرقية كانت قد شحنت الى اليمن « ست او سبع سفن محملة بالاسلحة من كل نوع » . كما اتهم طيارون اميركيون يعملون في شركات خاصة بنقل اسلحة سوفياتية الى اليمن ، والبرهان على حسن وفادة الاسلحة أعطي في كانون الثاني وشباط سنة ١٩٥٧ عندما وصلت اضطرابات الحدود بين اليمن والبريطانيين الى حد من الخطورة لم تصله من قبل :

وفي تشرين الثاني سنة ١٩٥٦ ادى التدخل الانجليزي — الفرنسي الاسرائيلي المسلح على مصر الى الالتقاء العجيب في موقف كل من الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة الاميركية . وآنذاك شجب العالم اجمع (العدوان الاستعماري) البريطاني — الفرنسي ، ولم تواجه بريطانيا في كل تاريخها ساعات احرج من هذه الساعات ، ولم تهبط سمعتها يوماً الى احط مما وصلته على اثر العدوان. ولالهاء العالم عن مذبحة المجر قرر الاتحاد السوفياتي ان يشجع اي نزاع في اية منطقة كانت . ولذلك لاقى احياء النزاع اليمني — البريطاني القديم ، تشجيعاً وتهليلاً من قبل المسؤولين السوفيات . ولم يفت المراقبين السياسيين ان يلاحظوا ان المشاورات بين سفيري اليمن والاتحاد السوفياتي في القاهرة كانت شبه يومية في الساعات التي كان التوتر قد بلغ فيها الذروة على حدود المحميات .

اشتداد النزاع البريطاني – اليمني

بدأت الاحداث أول الامر على الحدود كأنها عادية ، كتلك التي كانت تقع ، متفاوتة الخطورة منذ أربعين سنة . وحسب الحالة التقليدية المعروفة حصل اشتباك بين اليمنيين ومرتزقة المحميات . ولما تقدم اليمنيون – من متطوعين وقوات نظامية صدرت الأوامر لسلاح الجو الملكي البريطاني بقصفهم وردهم على أعقابهم ، وبسرعة في أوائل كانون الثاني سنة ١٩٥٧ صدرت الصحف في مختلف أنحاء العالم مليئة باحتجاجات الامام على بريطانيا لقصفها المدن اليمنية (المحميات جميعها في نظر الامام مدن يمنية) وقُدمت شكوى الى هيئة الامم المتحدة ونظم عمل عربي مشترك في واشنطن واتسع نطاق المعارك على الحدود حتى انها امتدت الى مناطق جديدة . وفي ظرف اسبوع فقط ساءت الحالة الى درجة اضطرت السلطات البريطانية الى ان تسارع الى ارسال نجدات عسكرية جديدة بطريق الجو الى عدن . وأعلنت وزارة الخارجية البريطانية أن الوضع « اخطر » مما يظن . وفي الثالث من كانون الثاني ، صرح الامام ان بريطانيا قد أخلت بعهودها مع اليمن وانه نتيجة لذلك ، يعتبر نفسه في حل من كل عهد تجاهها فرضته معاهدتا سنة ١٩٣٤ و ١٩٥١ . فأجابت لندن أن هذا الالغاء من جانب واحد غير مقبول . واصبحت قاعدة عدن العسكرية بعد ان ارسلت اليها امدادات كثيرة مقر القيادة العامة للقوات البريطانية في الجزيرة العربية . وعلى الحدود استمرت العمليات الحربية براً وجواً حتى شهر شباط . وفي التاسع من هذا الشهر دعا الامام ممثلي الصحف الاجنبية الى اول مؤتمر صحفي له اعارته البرافدا واذاعة موسكو اهتماماً خاصاً . وفيه اعلن على الملأ اموراً كان يكتفي فيما مضى بالاشارة اليها . وهذه المرة نقلت القضية الى

الصعيد العالمي :

لقد استطاعت بريطانيا مرة اخرى ، عن طريق استعمال العنف الشديد ، ان تنتصر على الروح النضالية اليمنية ولكن النزاع اثر ذلك صار اقرب ما يكون الى التدويل ، هدف اليمن الواضح . وفي بيان رسمي صادر في الثالث والعشرين من شباط ، اعلنت الحكومة البريطانية انها تدرس « الاجراءات اللاحقة الواجب اتخاذها لمواجهة الخطر اليمني المتزايد » وفي نفس الوقت عرضت لندن على الامام ، عقد مؤتمر لحل المشكلات المتعلقة بين البلدين . ولكن الحكومة اليمنية افهمت بريطانيا مرة جديدة ، بأنها لا تعترف في اية حال من الاحوال بشرعية الوجود البريطاني في « اليمن المحتلة » . ولذلك فالمفاوضات بهذا الشأن لن تكون مجدية . وبالنسبة للمسؤولين اليمنيين تشكل اراضي « المقاطعات التسع » القديمة جزءاً لا يتجزأ من اليمن ، احتلته القوات الاستعمارية البريطانية . وكذلك جزيرة قمران ، مقابل صليف في البحر الاحمر كانت موضع نزاع بين الطرفين . فهي في الاصل محجر صحي دولي قديم للحجاج ، ولما جاءت بريطانيا الى المنطقة ربطتها اداريا بمستعمرتها في عدن عام ١٩٤٩ . ثم منحت امتياز التنقيب عن البترول فيها الى احدى الشركات من تابعات شركة البترول البريطانية . وقد اثار هذا الاجراء الاخير حفيظة المسؤولين اليمنيين واحتجاجاتهم ، فأعلنوا عزمهم على تقديم شكوى الى محكمة لاهاي الدولية .

وخلال سنة ١٩٥٧ ، بدا ان التوتر على الحدود قد خفت حدته ، ولكن الاشتباكات لم تنقطع نهائياً . وبفضل وجود طائرات « الفينوم » التابعة لسلاح الجو الملكي هناك الى جانب قوات المدفعية الثقيلة التي نقلت على جناح السرعة ، تمكن البريطانيون من حصر نطاق الاشتباكات . واثناء زيارة الامير بدر الى لندن بين الحادي عشر والعشرين من تشرين الثاني سنة ١٩٥٧ ، استطاعت الخارجية البريطانية وحكومة لندن ان

تقيسا المسافة المتعذر اجتيازها ، والفاصلة بين الموقفين البريطاني واليمني؛ وكان على لنـــدن ان تعلم ايضاً بأن الوقت يعمل لصالح اليمن ، وبأن النفوذ السوفياتي لا يمكن ان يعمل إلا ضد بريطانيا ومصالحها في الجنوب العربـي .

« التغيّب » الفرنسي

ليس في موقف فرنسا السلبي من النزاع البريطاني اليمني ما يبرّره مطلقاً في الآونة الاخيرة . لقد سعت اليمن في سياستها الخارجية بصورة خاصة الى كسب مؤيدين جدد لقضيتها ضد بريطانيا . وحاولت مراراً ان تحصل على السلاح من فرنسا . وفي ايلول سنة ١٩٥٧ ، اضطرت فرنسا الى ان ترفض طلب اليمن تزويدها بالاسلحة الخفيفة والذخائر ، بعد ان اجرت مشاورات لذلك مع بريطانيا وعجزت عن الحصول على وعد من الامام بعدم استخدام هذه الاسلحة ضد الانجليز. بعد شهرين من ذلك التاريخ زودت بريطانيا بطريق الجو تونس باسلحة كانت فرنسا قد رفضت ان تزود اليمن بمثلها . ومع ذلك اذا صرفنا النظر عن هذه السياسة التي يمكن وصفها بأنهـــا هجومية ، تستحق اليمن اهتماماً اكبر من جانب فرنسا . ان البلد الصغير المليء بالآمال في حاجة الى اطباء وفنيين خبراء من كل الميادين ، والى مساعدات اقتصادية ومالية غير مشروطة والعمل المتجرد وحـــده يترك صداه البعيد المستحب على المدى الطويل ويعطي نتائج طيبة ، لأن حياة الشعوب والبلدان لا تقاس بالحياة كحياة الناس.

لقد سبق لنا ولاحظنا ان النشاط الضئيل للبعثة الطبية الفرنسية قد عاد على فرنسا برأسمال كبير من الاعجاب والتقدير والعطف ، لم تستطع اخطاؤنا في المغرب العربـي ان تبدده : إنها انصع صفحة في تاريخ العلاقات الفرنسية اليمنية . وهي وحدها تبقى في الاذهان . وقد شاء

القدر ان يكون اول اوروبي في العصور الحديثة سمح له ان يدخل العربية السعيدة فرنسياً وهو طبيب جراح في البحرية استدعاه الامام عام ١٧٠٩ ليجري له عملية في اذنه . وفي عام ١٩٤٦ طلب الامير احمد ولي العهد الامام اليوم طلب الى القنصل الفرنسي في عدن، ارسال طبيب نسائي للاعتناء بإحدى نسائه فجاءت الدكتورة سوزان سيرين ، الطبيبة في مستشفيات الامراض النفسية وعادت من اليمن بعد اقامة ستة اسابيع من اجل ان تهيء بعثة طبية فرنسية تُرسل الى هناك : وفعلاً إثر ذلك تبعتها بعثة فرنسية قامت بمهمتها خير قيام في اليمن . والطبيب اللواء ريبوليه الذي مات بمرض اصابه خلال عمله هناك ترك في اليمن ذكرى عطرة لاخلاص فريد . وتجرده كان قد اكسبه ثقة الامام الذي عهد اليه ببناء وتجهيز مستشفى تعز الجديد . وبعد زوال ريبوليه ، تتابع امرأة شابة ، طبيبة وباحثة سلالات وحدها الرسالة الصحية الانسانية في اليمن وهي السيدة فايان التي تعمل بدون كلل على متابعة عمل سلفها الانساني على الرغم من النقص الظاهر في الادوية والامكنة اللازمة لاقامة المرضى .

ان الاجور والتسهيلات المقدمة من الحكومة اليمنية الى الاطباء الفرنسيين ، لا تكفي لترغيب آخرين في الذهاب الى اليمن . ولكن اين هم المسؤولون عن دبلوماسيتنا . انهم لم يحاولوا القيام بجهد اكثر لمساعدة الامامة . ان فرنسا هي ايضاً اقرب جار لليمن في الصومال. وفي جيبوتي ، كثير من المقيمين اليمنيين مما يكسب القضايا اليمنية اهمية خاصة . كما ان ضباطاً وموظفين فرنسيين ، يجتازون مضيق باب المندب مراراً للذهاب الى مملكة الامام وهنــاك تجار ومهربون يعملون بين الشاطئين اليمني والصومال الفرنسي .

اننا نلاحظ ان سلبية فرنسا لا تفسير لها تجاه اليمن مع العلم بأنها بعد ان اعترفت باستقلال هذه البلاد عقدت مع الامام معاهدة صداقة في الخامس والعشرين من نيسان سنة ١٩٣٦ ، وفي عام ١٩٤٦ عهد الى

سفير فرنسا في العربية السعودية بأن يمثل بلاده لدى حكومة صنعاء .
وبهذه الصفة كان يقوم بزيارة كل سنتين طيلة المدة التي كان فيها تمثيل دبلوماسي لفرنسا في جدة . اما مركز قنصل فرنسا في عدن فقد شغله شخص ديناميكي مدة طويلة ، هو السيد ستيبانوف هارتل ، الذي كان يعرف جيداً شؤون الجنوب العربي . ولا نعلم فيما اذا كان ذلك هو الذي جعل الخارجية الفرنسية تتخذ موقفاً فيه اقدام اكثر . ان اليمن التي تستيقظ اليوم ، والعربية السعيدة التي تفيق من سياستها في حاجة ماسة الى مساعدة متجردة ، غير مشروطة ، طبية وفنية واقتصادية ، وفرنسا هي افضل من يتوجب عليـــه القيام بهذه المهمة . واذا كانت الانعزالية اليمنية نفسها هي التي تدفع هذه الدولة الى البحث عن توازن عملي بين مختلف الدول ، فإن ذلك يجب ان يحمل فرنسا على ان تلعب دوراً في الجنوب العربي . ان اقدم الممالك العربية استقلالاً واكثرها اقفالاً هي في طريقها الى فتح ابوابها لاستقبال المساعدات الاجنبية المختلفة. وفي هذا التنافس المفتوح تحتاج اليمن ايما حاجة الى حلفاء مسالمين الا وهمُ الخبراء .

١١

محمية عدن

ان ما يسميه البريطانيــون محمية عدن هو في الواقع مجموعة من اراض متداخلة ، متباينة المساحة متشابهة النظم السياسية تقريباً . والوجود البريطاني هو الذي يمثل هنا عامل التجانس بين مجموعة امارات ، وقبائل، وعشائر ، تعيش في الاكتفاء الاقتصادي والفوضى السياسية . والتجانس الظاهر في العنصر والدين واللغة بين سكان هذه المنطقة لم يمنع استمرار الانقسامات التي كان من اولى نتائجها هذا الصراع الداخلي المستمر . وعندما توصل ضابط الاستخبارات البريطانية ، هارولد انغرام ، عام ١٩٣٧ ، الى توقيع اتفاق سلم يحمل اسمه ، كان عليه ان يجمع في منطقة حضرموت ، وحدها اكثر من الف واربعمائة توقيع .

وتبلغ مساحة محمية عدن حوالي ثلاثمائة الف كيلومتر مربع ، اي ما يعادل على الاقل مساحة شمالي الجزائر . بين رأس الشيخ سعيد على باب المندب ورأس ضربة علي على حدود ضفار . وتمتد الاراضي التي تسيطر عليهــا بريطانيا على طول الف ومائتي كيلومتر من الشواطىء

القاحلة المجدبة .: تحدها في الداخـــل من الغرب الجبـــال اليمنية والربع الخالي من الشمال الشرقي والجار السعودي بعيد ، لأن رمال الربع الخالي الشاسعة تفصل بينهما ، اما الجار اليمني فعلى العكس من ذلك قريب ويثبت وجوده في كل وقت .

برزت محمية عدن رسمياً من الوجهة السياسية بناء على مرسوم ملكي صادر في الثامن عشر من آذار سنة ١٩٣٧ ، وهي مقسمة ادارياً الى قسمين ، تجاوباً مع بعض الحقائق التاريخية غير الواضحة : اولا المحمية الغربية (مئة الف كلم مربع) وتتألف من اراض كانت معروفة فيما مضى بالمقاطعات التسع وما زال ائمة اليمن يطالبون بها حتى اليوم بوصفها جزءاً لا يتجزأ من اليمن . والمحمية الشرقية (مئتا الف كيلومتر مربع) وتضم حضرموت ومقاطعتين اصغر منها هما الواحدي ومهره . واما جزر سوقطرة ، وبروذر في المحيط الهنـــدي فتتبع سلطنة مهره . والقسم الثالث في التقسيم الاداري البريطاني ، هو مستعمرة التاج ، ولا تمثل هذه سوى جيب صغير في المحمية الغربية وترفع توابعها بريم وقران في البحر الاحمر ، وكوريا موريا مساحة مستعمرة التاج الى مائتين وسبعة كيلومترات مربعة . انها مجرد محطة تزوّد السفن المسافرة من الهند واليها بالفحم ، وقد وجدت عدن نفسها منذ اول نيسان سنة ١٩٣٧ مستعمرة تابعة للتاج البريطاني ، في الوقت الذي وُلدت فيه المحميـــة التي حملت الاسم نفسه . وحاجة بريطانيا الى عدن من اجل تأمين مواصلاتها ، هي التي دفعت الانجليز الى تنظيم الداخل وربطه بالمستعمرة . وحتى اليوم ما زالت مستعمرة عدن العاصمة الادارية والاقتصادية للمحمية كلها ، والتنقيب المستمر عن البترول يعطيها قيمة جوهرية ذاتية تضاف الى اهميتها الستراتيجية والاقتصادية .

المستعمرة الستراتيجية

تتألف مستعمرة التاج ، في الجنوب العربي من ، رأسين بركانيين يقفلان كالكماشة جوناً كبيراً ، ويتصلان ببعضهما بواسطة حزام ضيق من الاراضي . وعدن في حد ذاتها تقوم على الرأس الشرقي حيث يوجد المرفأ ووراءه في الداخل مطار خورمكسار . اما عدن الصغيرة ، في الجهة المقابلة ، فكانت لا تضم سوى أكواخ بعض الصيادين ، حتى أنشئت عليها مصفاة بترولية كبرى افتتحت في عام ١٩٥٤ . وفي الداخل تشكل واحة الشيخ عثمان ، وهي قرية يسكنها بعض ابناء البلاد المحليين ، دائرة بلدية ثالثة . والمجموع ، مع بريم وقمران ، يحكمه مفوضون يخضعون الى سلطة حاكم تعينه وزارة المستعمرات ، وهو في الوقت نفسه حاكم المحميات . وميناء عدن ذو ادارة مستقلة ، كما ان مطار خورمكسار الذي يضم قاعدة جوية هامة ، يعود بادارته الى سلطات سلاح الجو الملكي البريطاني .

كانت قرية عدن قبل الاحتلال البريطاني عام ١٨٣٩ تابعة لسلطان لحج ، وكانت تعد حوالي خمسمائة نسمة . وفي عام ١٩٣١ بلغ عدد سكان عدن واحداً وخمسين الفاً ، وارتفع الى مئة الف عام ١٩٥١ ، وهذه الزيادة المستمرة السريعة في السكان ، هي النتيجة الطبيعية للازدهار المتزايد في المستعمرة اثر شق قناة السويس : والحياة الناشطة في عدن ترتبط تقليدياً بمينائها ، وهو الثغر الوحيد على شواطىء الجزيرة العربية الجنوبية . وقد جعلت منه منشآت تزويد الفحم أنشط المحطات البحرية عملاً في العالم بأرقام سنوية تساوي أرقام مرفأ ليفربول ، والحركة

في ازدياد مستمر . وأتاحت مصفاة البترول [التي أنشأتها شركة البترول البريطانية] هناك عام ١٩٥٤ والتي يأتيها النفط الخام من مناطـق الخليج القريبة ، بيع المحروقات للسفن البحرية بأفضل الشروط . كما ان الحركة السياحية فتحت سبل العيش أمام طائفة كبرى من أصحاب الحرف . وهناك ايضاً خمسة عشر في المائة على الاقل من السكان يعملون في الميناء :

وإبان أزمة السويس التي نجم عنها اقفال القناة من تشرين الثاني سنة ١٩٥٦ الى ايار سنة ١٩٥٧ تردت مستعمرة عدن نفسها بسرعة في حالة اقتصادية مفجعة ، غير ان اعادة فتح الطريق البحرية البالغة الاهمية ، أعاد لها ازدهارها وحيويتها .

وهذه المحطة البريطانية بمرفأها الحر مركز لتجارة العبور واعادة التصدير ، تتم بواسطتها جميع المبادلات العائدة الى اليمن والمحمية . وهي ترتبط ، لفقدان الزراعة فيها ، بالخارج من أجل مواردها الرئيسية الغذائية ، كالارز والطحين والسكر ، التي تستوردها الحكومة . ويعمل فيها أرباب حرف وصيادون ، وبعض بناة المراكب ، من أجل السوق المحلية . وفيها ملاّحات متعددة تعطي الملح ، المنتوج الوحيد في الصادرات المحلية . وأهمية عـدن تكمن في الدرجة الاولى ، كسنغافورة وجبل طارق ، في مركزها الستراتيجي القابض على الشريان الحيوي للمواصلات بين الجزر البريطانية وامبراطوريتها العالمية واتحاد شعوبها . ان المستعمرة البريطانية الصغيرة في الجنوب العربي تقف كالحارس الذي يصون الثروة البريطانية ، الى جانب جبـل طارق ، ومالطة ، وهونغ كونغ ، وسنغافورة ، وصخرة بريم المحصنة ، ترى ، كجبل طارق والسويس ، القوافل التي لا تنقطع من حاملات النفط ، تمر أمامهـا ناقلة الى المملكة المتحدة وسائر انحاء اوروبا السائل الثمين المستخرج من رمال الجزيرة العربية .

ولدى وصول ناقلات النفط تأخذ مصفاة عدن حصتها . وبطاقتها

السنوية التي تبلغ خمسة ملايين طن تزود بالبترول الاسواق القريبة في افريقيا الشرقية ، والمحيط الهندي حتى سيلان . وعلى سبيل التفصيل نقول ان مليوني طن من المحروقات المكررة سنوياً ينقلان في خط بحري الى منشآت التموين في الميناء الكائن في الجهة الثانية من الجرن ، واربعمائة الف طن من بنزين الطائرات تُعطى للسلاح الجوي الملكي . وقد دعت الضرورة مؤخراً الى زيادتها بسرعة لتغطية حاجات طائرات القاعدة التي زاد عددها مرتين عام ١٩٥٥ وعام ١٩٥٧ : وذلك لأن عدن بعد ان جعلت مقر القيادة العامة الجنوبية للقوات البريطانيـــة في الشرق الاوسط ، اصبحت المستعمرة البريطانية في أوائل عام ١٩٥٧ المقر العام للقوات البريطانية في الجزيرة العربية كي يصبح في استطاعتها ان تردّ على الغارات التي قد تشنها القوات اليمنية أو السعودية في أي مكان من الجزيرة .

ان القادة العسكريين البريطانيين أمناء على مذهب لورانس بخصوص المراقبة الجوية . لذلك أناط المسؤولون عن القيادة العامة للشرق الاوسط في قبرص ، أمر القيادة العليا لجميع القوات البريطانية البرية والجوية ، الموجودة بين البحر الاحمر والخليج العربي بسلاح الجو الملكي البريطاني في عدن ، ونائب الماريشال الجوي ل . ف . سنكلر الذي يتولى رئاسة هذ المقر الجديد ، يبسط سلطانه في مدينة عدن على القواعد البريطانية الجوية في عدن نفسها ، والبحرين ، والشارقة ، وعلى عدة أفواج من المشاة ، والقوات المنقولة جواً ، والقوات الوطنية التي يقودها ضباط بريطانيون في الصومال البريطاني وعدن . وتضم القوات الجوية اسراباً من المقاتلات النفاثة (فينوم) والقاصفات من طراز لنكولن ، وطائرات النقل . والطيران في هذه المناطق الصحراوية الصعبة المسالك ، مفضل على وسائل النقل كلها توفيراً للوقت وأسلم بسبب العقبات الطبيعية . وقد تدخل الطيران مرتين سنة ١٩٥٧ للقصف أولاً في محمية عدن بين شهري

كانون الثاني وشباط ، وفي سلطنة عمان بين شهري تموز وآب . واذا كانت المحمية الشرقية قد عاد اليها الأمن والاستقرار نسبياً منذ عدة سنوات ، فان المحمية الغربية لم تعرف السلام والاستقرار أبداً . وما ذلك إلا بسبب قربها من اليمن التي تعتبر هذه المحمية جزءاً لا يتجزأ من أراضيها القومية .

المقاطعات التسع

تشبه المحمية الغربية من الوجهة الطبيعية اليمن الى حد بعيد . وكذلك من حيث السكان ، ففي الجبال الهيأة المتوسطية هي الغالبة . وفي الساحل يقطن مزيج من الوطنيين والافريقيين . وفيما غدا بعض المناطق المحدودة تتألف المنطقة الساحلية من أراض شبه صحراوية مثل تهامة اليمنية . غير ان التلال والهضاب التي ترتفع شيئاً فشيئاً نحو القمم في العربية الخضراء تتلقى نسبة أكبر من الامطار ، ولذلك يقيم فيها الفلاحون ويزرعونها .

ومنذ ذهاب اليهود الى اسرائيل لم يعد في المحمية الغربية سوى اربعمائة الف نسمة ، كلهم مسلمون سنيون ، على المذهب الشافعي ، كسكان جنوب اليمن والمحمية الشرقية ، وهم في أكثريتهم حضر . اما البدو الرحل فيعيشون بصورة خاصة في الشمال والشرق عند الحدود الصحراوية للربع الخالي .

وقد حرصت السلطات البريطانية المستعمرة على التركيب الاجتماعي — السياسي للتنظيم القبلي الموروث عن تفكك الممالك الكبرى التي سبقت الاسلام ، وذلك بحجة احترام النزعات الاستقلالية المحلية .. هذا التركيب يحتفظ بأهميته دائماً في نظر الاستعمار طالما انه يشكل حاجزاً في طريق توحيد اجزاء الجنوب العربي . والجلترا مرتبطة بمعاهدة ثنائية مع كل

من الكيانات السياسية المعترف بها رسمياً : واللائحة الرسمية في عدن تشير الى ان عددها ثمانية عشر ولكنها في الواقع أكثر عدداً .

ويبدو شبه مؤكد ان الاجزاء المتناثرة لا تعترف بأي عهد نحو أي من الزعماء المعترف بهم في عدن (معاهدة المشايخ) . غير ان السلطات البريطانية تتعمد تجاهل ذلك لتتحاشى تقسيماً أوسع .

والوحدات القبلية الداخلة في نطاق معاهدة الحماية ، كما ذكرها آخر تقرير لمكتب المستعمرات ، هي التالية :

الوحدة	العاصمة	
عبدلي	لحج	(سلطانها يبسط سيادته على عدة قبائل)
اميري	ضالع	
فضلي	شقرا	
يافع — التحتا	القرى	
حواشبي	مسيمير	
يافع — العليا	محجبه	
مسطح	القدمه	
ضوبي	ذي شورا	
مفلحي	الجبّه	
حضرمي	الشبر	
شعيب	عوابل	
قطيبي	الذمير	
علاوى	القشه	
عقربي	بير احمد	
عواذلي	لودر	

العوالقي — العليا   السعيد
العوالقي— السفلى   أهوار
بيهان   بيهان قصب

ان كل هذه الكيانات تسمى « دولاً » وعلى الاصح سلطنة لحج وحدها يمكن ، مع التساهل ، اعتبارها تستحق هـذا الاسم . وسلطان لحـج هو أول عاهـل في المحمية الغربية ، معترف به كمولى من الكثيرين من المشايخ الصغار . وكان اول زعيم وقع اتفاقاً ثنائياً مـع البريطانيين . كما ان علاقاته مع سلطان عدن البريطانية كانت حسنة على العموم : وسلطنته هي في الواقع همزة الوصل لكل طرق التجـارة في الزاوية الغربية في الجنوب العربي . ورسوم المرور التي تستوفيها تؤمن لها عائدات مستقلة محترمة .

في نيسان سنة ١٩٥٢ أنزل السلطان فضل عبد الكريم عن العرش ، على أثر تصرفات استبدادية ، فلجـأ الى اليمن ، بينما اختار شيوخ القبائل ، حسب العادة ، أخاه علياً خلفاً له . وكشرط للاعتراف به ، فرضت الادارة البريطانية عليه توقيع « معاهدة تشاور » تضم بنـداً يجبره على قبول مشورة « مستشار » بريطاني ، في حكم سلطنته وادارتها .

في منطقة صعبة المسالك ، معرضة أحياناً الى غارات القبائل اليمنية أو المترددين في المحمية يدير شريف بيهان بلباقة زائدة شؤون القبائل الموكول اليه امرها . وفي هذه المنطقة بالذات القريبة من الحدود اليمنية غير المحددة بدأ واندل فيليبس تنقيباته الاولى عام ١٩٥٠ ، وفي تشرين الاول سنة ١٩٥٦ ظهرت عدة معلومات في الصحف العربية الصادرة في عدن وكلها تشير الى توقيع اتفاق بـين حسين شريف بيهان والسيد فيليبس ، من اجل استثمار بترول بيهان ، بالاتفاق مع شركة بريطانية (شركة الامتياز البترولية)

هذا ومن جهة اخرى يقاسي في محمية عدن الغربية ، الرؤساء المعترف بهم من قبل السلطات البريطانية صعوبات متفاوتة الدرجات في فرض سيطرتهم على قبائل متمردة احياناً . والناقمون ، والمغامرون والمعادون لبريطانيا كل هؤلاء يجدون لهم ، في اليمن دائماً ، عوناً وملجأ وأحياناً سلاحاً وذخائر وتشجيعاً على الثورة . اما القسم الواقع على الحدود الذي حدد عام عام ١٩٠٥ بين الطرف الجنوبي الغربي من الجزيرة وقرية « قطبة » اليمنية ، فهو هادىء على العموم . ولكنه لا يمثل سوى ثلث خط – حسب الخريطة البريطانيـة – يتعرج كثيراً ، حسب اهواء الانجليز ، قبل ان يصل الى رمال الربع الخالي حيث يكسب استقامة وهمية مطلقة : على طول هذه الحدود الوهميـة لا تنقطع الاسباب الداعية للاشتباكات ، لا سيما والناس هنا يعيشون وايديهم على الزناد . ومع ذلك ، فالتقدم الاقتصادي ، عن طريق استصلاح الاراضي الزراعية ، يعيد السلام الى بعض المناطق المحظوظة كمنطقة « عبيان » . ومنطقة كانت فيما مضى بالغة الخصب ، مساحتها اربعون الف هكتار ، تمتد بين فضلى ، ويافع السفلى ، امكن استصلاحها للزراعة : تستخدم منذ سنوات مزارع تجربة لزراعة القطن والمنتوجات التجريبية الاخرى ، بما في ذلك تحسين الزراعات الحياتية التقليدية وتربية المواشي : ان مشروع « عبيان » هو مدعاة افتخار للسلطات البريطانية الى جانب مضاعفـة الخدمات الطبية والصحية ، والتوسع السريع لنطاق التعليم . عن طريق المستوى المعيشي والصحي والثقافي ، الى جانب تنظيم اداري مختلف ، يحاول البريطانيون جهدهم خلق هوّة في المستوى بين سكان المحميات ، وسكان اليمن المستقلة . اما الهدف الظاهر والخفي الذي يتطلع اليـه البريطانيون فهو ان يصبح شافعيو المحميات ، اكثر تطوراً وتقدماً وغنى ليشكلوا قطباً جاذباً يجـذب شافعيي اليمن المغلوبين على امرهم الذين يشكلون اكثرية السكان ، الامر الذي يقضي على السيطرة الزيدية لأئمة

صنعاء ، في حال تحقيقه . ترى هل لحظ المسؤولون اليمنيون هذا الخط المداهم ؟ اميل الى الاعتقاد بأن تصرفاتهم تدل على ذلك :

حضرموت ، الواحدي ، مهره

ان القسم الاكثر اتساعاً في محمية عدن ، هو في الوقت نفسه اقل اقسامها سكاناً ونحن نجد في اغوار حضرموت والواحدي ومهره ، التي تشكل محمية عدن الشرقية ثلاثمائة وخمسين الف نسمة فقط وقد عرفت هذه المناطق الاكثر جفافاً في الماضي هجرة اوسع وأوفر : والحياة في المدن الداخلية البعيدة عن الساحل بقيت مدة طويلة غير ممكنة الا بفضل المواصلات المؤمنة ، عن طريق قوافل البدو المستمرة الحركة ذهاباً واياباً على نطاق واسع ، لنقل البخور والتوابل . وذلك لان حضرموت كانت فيما مضى مقاطعة زاهرة من العربية السعيدة ، تشرف من مدنها ذوات ناطحات السحاب الشامخة على اربح تجارة في العصور القديمة . اما اليوم فقد حل البترول مكان البخور ، والناقلات الضخمة تقوم مقام الجمال ، بينما تحولت الطرق التجارية الى منطقة اخرى من الجزيرة العربية الفريدة . وحضرموت المنسية بالنسبة للاحساء والكويت ، لم يبق لها سوى مدنها المبنية بحجر الشطوط والطين مثل شيبام ، تريم ، موكلا ، القابعة في طيات الهضاب الكلسية وهي في الشفق المهجور تذكر ، بوزنات احمال البخور ، تحت جدرانها التعبة .

ان بقاء هذه المدن القديمة التي تنطق بفن بنائي هندسي متقدم ، في قلب صحار لا يستطيع احتمالها الا البدو وحدهم هو احد المميزات البارزة لمحمية عدن الشرقية . حضارة معمرة ، حضرية وبدوية ، وكذلك اتاح وجود مدن كبيرة مع طبقة بورجوازية تجارية ، وامراء اسياد مبدئياً على القبائل المجاورة ، انشاء تنظيم سياسي ، اداري اكثر

تقدماً وتعقيداً ساند فيه الحضريون اعداء النزعات القبلية التي تشل الحركة التجارية – ما عدا تجارة الاسلحة – الجهود البريطانية لفرض السلام على مختلف القبائل والعشائر . و. هـ. انغرامز ، الذي اصبح فيما بعد اول مستشار مقيم بريطاني في المحمية الشرقية ، استغل بذكاء نادر ، الوضع الراهن ليحصل عام ١٩٣٧ على هدنة مدتها ثلاث سنوات بين الفئات المتنازعة دائماً . وفيما بعد جدّد سلم انغرامز ، بدون صعوبة ، لمدة عشر سنوات اخرى . وبفضل هذا الوضع الراهن ، كانت التقسيمات السياسية ابسط واقل عدداً في المحمية الشرقية ، لان السلطات البريطانية في عدن لم تعترف الا بالزعماء الاقوى . وتضم حضرموت دولتين : قايطي ، وكاثري ، الاولى هي سيدة الثانية . واما مهرا فتشكل سلطنة كشن ، وسوقطرة التي تقوم عاصمتها في حديبو (تاماريدا) . وتؤلف الواحدي سلطنتين اصغرهما ، بير علي ، وبلحاف وتشمل امارتين ساحليتين صغيرتين هما : ارقه وحورا .

الادارة غير المباشرة

تحتل سلطنة قايطي بعاصمتها مكلا ساحل حضرموت باسره وتمتد بعيداً في الداخل . واميرها كان عام ١٩٣٧ اول من وقع مع السلطات البريطانية (معاهدة تشاور) . واليوم جميع زعماء المحمية الشرقية واكثر زعماء المحمية الغربية ، مرتبطون مع بريطانيا بمعاهدات ثنائية مماثلة . وبموجب هذه المعاهدة ، تعهد الامراء العرب باستشارة المستشار البريطاني قبل اتخاذ اي اجراء فيما عدا تلك التي تتعلق بالدين الاسلامي والتقاليد المحلية ، او على الاصح تعهدوا بأن يحكموا بالعدل والحلم بالتعاون التام مع الحاكم .. ويقبلوا دون تحفظ رأيه في كل الشؤون المتعلقة بازدهار وتطور البلاد . وقد اكملت هذه الاتفاقات الداخلية

معاهدات الحماية التي تضع شؤون السيادة الخارجية في يدي حاكم عدن البريطاني ، وتمنع على اي من الامراء ان يتصرف بحرية في شأن اي من اراضيه دون موافقة بريطانيا المسبقة على ذلك .

وفيما يختص بحضرموت ، اعترف ، الميثاق الانجليزي – القايطي – الكاثري الموقع في الثاني من آذار سنة ١٩٣٩ ، بأولوية سلطان قايطي ، وأعلن ان « دولتي قايطي والكاثري تشكلان مقاطعة واحدة هي حضرموت وهذه بدورها تتبع الامبراطورية البريطانية » . وعن طريق هذه الشبكة من العلاقات التي قامت على المعاهدات الثنائية عبر الانجليز الى تلك المنطقة بنفوذهم سراً ووطدوه . ودول حضرموت التي اعيد استقرارها ، في الوقت الحاضر هي اكثر دول محميات عدن تقدماً ، سياسياً واجتماعياً . وفيها يشرف المستشارون البريطانيون دون ان يتدخلوا مباشرة في شؤون السلطنات الداخلية على ادارة هذه الشؤون فيشيرون ويعرضون ويقدمون مساعدتهم . ووفقاً للقانون الذي أصدرته الحكومة البريطانية عام ١٩٣٧ ، بشأن ولادة محميات عدن ، احتفظت لنفسها بحق التشريع والادارة في كل انحاء المحميات . ولكن هذا الحق المعطى للتاج لم يُستخدم عملياً . وفيما عدا الشؤون الخارجية والدفاعية والمالية ، تنعم السلطنات باستقلال ذاتي حقيقي وجميع المجالس الحكومية والدوائر الوزارية والادارة الاقليمية والبلدية لا تعمل الا بالاشتراك مع أعضاء وطنيين . وهذا النظام المستعمل في حضرموت كان قد استوحي من المثل « الملتقي » الموضوع عام ١٩٣٩ على يدي هارولد انغرامز : اما السلطنات الاخرى في المحمية الشرقية التي ما زالت في مستوى أدنى من حيث التطور السياسي فتميل الى تقليد تطور حضرموت والافادة من تجربتها . ومهرة وسوقطرة التي لم يوقع سلطانها على ميثاق التشاور الا عام ١٩٥٤ ، ما زالت في هذا النطاق متأخرة كثيراً :

سوقطرة المنسية

سوقطرة جزيرة المحيط الهندي الكبرى تُلقّب ايضاً « جزيرة دم التنين » ما زال اهلها الذين يجنون الصبر والبخور شبه عراة ، يتكلمون لغة غريبة ، ويزاولون عبادات قديمة في لباس اسلامي . وقد بقيت هذه الجزيرة في معزل عن كل نفوذ اجنبي وكل احتلال ، لصعوبة الاقتراب منها دائماً واستحالة ذلك أحياناً .

في أوائل القرن السادس عشر حط « البوكرك » رحاله فيها ليترك هناك قلعة صغيرة أثراً له . أما الانجليز الذين أرادوا ان يتخذوها محطة لهم على طريق الهند عام ١٨٣٠ ، فسرعان ما تخلوا عنها وتحولوا الى عدن ؛ وذلك لأنها محاطة بصخور قاطعة مسننة لا يمكن الاقتراب منها طيلة ستة أو ثمانية أشهر في السنة . وفي عصر الطائرات والطائرات العمودية قد تُعيد بريطانيا الكرة لاستخدامها قاعدة لها . وفي هذه الحالة ترى هل تتمكن من تطوير حياة سكانها ؟؟ وسوقطرة تخضع لسلطان مستبد ، يجهل حتى عود الثقاب في عصر الصواريخ ، ويعيش سكانها من تربية المواشي وقليل من الزراعة وصيد الاسماك . ويغطس سكان السواحل أيضاً للبحث عن اللؤلؤ في بحر بخيل ، ويسكن القسم الاكبر من الأهلين في مغاور التلال الصخرية في الداخل ، بين الأشجار التي تعطي لآلىء من نوع آخر هي كتل البخور .

كانت جزيرة سوقطرة سابقاً تساوي ثقلها ذهباً ، أما اليوم وقد أصبحت الجزيرة احدى تلك المناطق الضائعة المتأخرة الى درجة لا يقبلها العقل في عالم مليء بالرحالين ، والعسكريين ، والمنقبين عن البترول . ومع ذلك تمركز فيها عام ١٩٥٤ مندوب بريطاني . ويبدو على الرغم من البؤس الظاهر والجهل والمرض ، ان مصيرها يزعج هؤلاء الذين

أخذوها على عاتقهم .ان سوقطرة من الوجهة الستراتيجية لا تقدم سوى افادة محدودة جداً للبريطانيين اذا ما بقوا في الصومال وعدن وتلك عن طريق مطار قضوب ، قرب حديبو الذي يمكن توسيعه وتحسينه(وحسب معلومات أعلنها مصدر حسن الاطلاع ، شهدت الجزيرة عام ١٩٥٧ نشاطاً كبيراً : وكل شيء يدفعنا الى الاعتقاد انه يجري انشاء قاعدة جوية كبرى ، وربما كان ذلك تحسباً للطوارىء فيما لو اشتد النزاع البريطاني اليمني .) واقتصادياً لا نعلم فيما اذا كان المنقبون عن البترول قد بدأوا أعمالهم في هذه القلعة الطبيعية . وأغلب الظن ان الامتياز الذي منحته سلطات عدن البريطانية للتنقيب في المحمية كلها يشمل جزيرة سوقطرة :

التقدم الاقتصادي والاجتماعي

يظهر النفوذ البريطاني في المحمية واضحاً بصورة خاصة في الحقل الاقتصادي . وهناك يقوم الاقتصاد المعيشي التقليدي كما هو معروف على الزراعة ، وتربية المواشي في الداخل ، وصيد الاسماك في الساحل . وقد سبق لي واشرت الى برنامج تطوير « عبيان » الذي اتاح جني تسعة عشر الف بالة في عام ١٩٥٢ – ١٩٥٣ ، واربعين الف بالة من القطن ذي التيلة الطويلة المأخوذ من الساكل المصري . وهناك مشروعات اخرى من النوع نفسه ولكنها اقل اهمية ، بُدىء بتنفيذها ايضاً . ان الاكثار من السدود الصغيرة وشبكات الري من شأنه ان يزيد من المساحات المزروعة ، كما ان حسن اختيار البذار واتباع الوسائل الحديثة في الزراعة سيؤدي الى مضاعفة الانتاج في الهكتار . وفي حضرموت ، حيث الري مرتبط ارتباطاً شبه كلي بالآبار الارتوازية ، جرى تعميم استعمال المحركات على الآبار في كل البلاد : وقد اتاحت خمسمائة

مضخة ديزل تعمل منذ سنة ١٩٥٤ ، زيادة الاراضي الزراعية المروية الى اربعة اضعاف . وتباع هذه المضخات بالتقسيط عن طريق الحكومات المحلية التي تستورد لها بحرية المحروقات اللازمة وفي صيون عاصمة الكاثري، في قلب وادي حضرموت ، يقوم معمل آلي لصيانة هـذه الاجهزة وتصليحها . وتموّل مشروعات الانماء الاقتصادي في محميات عدن المؤسسة البريطانية لتمويل المستعمرات ورفع مستواها وقد بدأ ذلك عقب المجاعة الفظيعة التي اصابت حضرموت بسبب جفاف طويل الامد عام ١٩٤٢ – ١٩٤٣ . وعلى الرغم من ان انجلترا آنذاك كانت في حالة حرب فإن الحكومة اقرّت مساعدات عاجلة لمكافحة المجاعة . وبعد الحرب خصصت الاموال الممنوحة على العموم لتمويل مشروعات من شأنها ان تمنع البؤس والشقاء . ومن مجموع الاموال التي منحتها المؤسسة البريطانية بين سنة ١٩٤٦ – ١٩٥٣ وقدرها اربعمائة وسبعون الف جنيه استرليني ، ذهب ثلاثمائة وخمسة آلاف الى اعمال الري وتصليح السدود مما اتاح ان تنشأ شعبة للابحاث الزراعية وتوضع خطط للانعاش . وأهم تلك المشروعات مشروع عبيان .

حتى عام ١٩٥٥ وزعت المؤسسة البريطانية اكثر من خمسمائة الف جنيه استرليني في محميات عدن وأرصد ايضاً للفترة الواقعة بين عامي ١٩٥٥ – ١٩٦٠ مبلغ سبعمائة وسبعين الف جنيه . بالاضافة الى المشروعات الاقتصادية الصرفة ، ساعدت هذه الاموال على انشاء المدارس والوحدات الصحية المتحركة والمستشفيات . والجدير بالذكر انه اصبح في المحمية سنة ١٩٥٥ مئة وسبع مدارس ابتدائية ، وخمس مدارس متوسطة ، ومدرسة ثانوية ، وخمس مستشفيات ، وسبع وستون وحدة صحية ، ومركزان للتدريب الصحي .

وما دمنا نتحدث عن الموارد الاقتصادية في حضرموت فيجب الا ننسى الهجرة التي تعتبر مورداً رئيسياً في هذه البلاد . منذ القرن السادس

الميلادي ، بعد تدهور تجارة البخور وانهيار سد مأرب وأهل حضرموت يهاجرون الى الهند واندونيسيا حيث اسسوا مستعمرات تجارية قوية . وهؤلاء هم الذين ادخلوا الاسلام الى العالم الملقي وخاصـة الى جاوه وسومطرة . وقد سمحت بلادة السكان الاصليين لهم كما سمحت للصينيين ان يجمعوا ثروات طائلة بعد عمل متواصل . وابناء حضرموت لا ينسون مطلقاً وطنهم الام . وكثيرون منهم يعودون اليه بعد جمعهم الثروات الطائلة ، والآخرون يعيلون عائلاتهم في الوطن مما يرسلونه لها من المهجر . وقد قدرت قبل الحرب ، الاموال التي يرسلهـا هؤلاء المهاجرون الى حضرموت بستمائة الف استرلينية سنوياً . ولكن هذا الوضع له نتائج خطيرة تترتب عن كل هجرة اقتصادية . ويخشى ان يؤدي قطـع المواصـلات في الظروف القاهرة الى عواقب وخيمة كما حدث لدى احتلال الجيش الياباني لسنغافورة في الحرب العالمية الثانية . فقد كان ذلك احد الاسباب الرئيسية التي ادت الى المجاعة الكبرى في حضرموت خلال الحرب . وهناك نتيجة اخرى أعمق وأبعد أثراً هي التأثر الروحي الفكري المتبادل المختلف الدرجات الذي عرفت حضرموت من جرائه اختلاط الدم واللغات والعادات مما وجد في الجنوب العربي نفوذاً هندياً ملقياً يشده الى المحيط الهندي الاسلامي اكثر من عالم الجزيرة العربية .

اتحاد ، قومية وبترول

تحت تأثير البيئة في الحكام البريطانيين ، بعد ان بنى هؤلاء النظام الملقي لمواثيـق التشاور ، اتجهوا نحو ايجاد نوع من الاتحـاد بين محميـات الجنوب العربي . وفي السابع من كانون الثاني سنة ١٩٥٤ اطلق حاكم عدن السير توم هيكنبوتام ، تصريحاً رسمياً تضمن تلك الرغبة . وعلى الرغم من المعارضة الشديدة من قبل اليمن وحليفاتها ، واصـل

الحاكم البريطاني الجديد ، السير وليم لوس ، المعين في آب سنة ١٩٥٦، سيره في نفس المخطط السياسي الذي وضعه سلفه ، والذي كان قد دعا اليه المنظم الاكبر للمحميات ، السيد هارولد انغرامز . وفي آذار سنة ١٩٥٦ صدر في لندن تصريح رسمي آخر يعلن ان سياسة الحكومة البريطانية في المحمية ، كما في غيرها ، هي مساعدة جميع الاقطار التابعة لبريطانيا من اجل الوصول الى اقصى حد من الانماء الاقتصادي والتطور السياسي تسمح به ظروف هذه الاقطار . وحكومة صاحبة الجلالة تشاطر الرأي القائل بأن دول المحمية اذا جمعت اجزاؤها الصغيرة الضئيلة السكان ، القليلة الموارد في كيان مشترك امكنها ان تصل الى ارفع درجة من التطور الاقتصادي والسياسي ؛ وبسبب ذلك يقتضي عليها ان تسعى لاقامة نوع من الاتحاد فيما بينها ، للمساعدة والمساندة المتبادلة ، وتقوية الاقتصاد الداخلي والتنظيم الاجتماعي .

اننا نلاحظ جيداً العبارات المبهمة الواردة في هذا التصريح السياسي الرسمي الذي يبدو كأنه يتراجع عما سبق اعلانه عام ١٩٥٤ ، ذاك الذي ادى الى اثارة نقمة اليمن وجامعة الدول العربية والى سلسلة من الاشتباكات العنيفة على حدود المحمية وفي داخلها . ان تصريح عام ١٩٥٤ قد دعا صراحة لاقامة اتحادين ، واحد لكل من المحميتين الشرقية والغربية ومن ثم دمجها فيما بعد في اتحاد للجنوب العربي ، ان نجاح التجربة الملقية كان حاضراً بالطبع في اذهان الذين صاغوا التصريح ، ولكن الغارات اليمنية ، والاختلافات التي نشأت بين زعماء المحمية الغربية وتوقيع ميثاق جدة ، والتقارب السوفياتي اليمني ، كل ذلك دفع البريطانيين الى التراجع . واثناء اضطرابات سنة ١٩٥٧ ، اصر الامام احمد على فضح نوايا بريطانيا في الحصول على اراض بترولية ؛ وبفضل التطورات اللاحقة ، وتزايد النفوذين السوفياتي والاميركي في المنطقة بصورة خاصة وجدت السياسة البريطانية نفسها معرضة للامتحان

والتجربة امام العداء الاستعماري الذي الف بين العرب والبلدان الشيوعية، وكتلة باندونغ والولايات المتحدة الاميركية .

ونجاح المخطط البريطاني للاتحاد اصبح من جراء ذلك موضع شك عام ١٩٥٨ ، وهو بالطبع اسهل تحقيقاً في المحمية الشرقية (حضرموت) منه في المحمية الغربية . ولكن تحقيقه مرتبط ، على كل حال ، بقدرة البريطانيين على سبق اليمن في مضمار التقـدم الاقتصادي والاجتماعي ، وعلى امكانية التوفيق بين سكان المحميات انفسهم وليس بين زعمائهم فقط ، بسبب انتشار الدعاوة للافكار القومية . ولن نستطيع تقدير مدى التأثير العظيم الذي يتركه في بلدان متخلفة كهذه ، ادخال اجهزة الراديو اليها . وترى اليوم البدوي والأمي في المحميات ينتظر بفارغ الصبر مواعيد بث اذاعة صوت العرب الموجهة اليه . ومن القاهرة ، صوت العرب ينشر الرياح ، وسواه يحصد العواصف وقد صرح الشريف بيهان وهو من أنصار التضامن الوثيق مع بريطانيا ومن مؤيدي فكرة الاتحاد ، صرح قائلاً : هذا الاتحاد ضروري ، والثروات المخبأة في جوف ارضنا لا سيما بترول بيهان ، والمشروعات الزراعية الكبرى يجب أن تتيح لنا تحمل هذه المهمة . انني ارثي لراديو القاهرة الذي يحاول خداعنا في هذا المضمار . أما امام اليمن فلا يرى هذا الرأي . وبالنسبة له ، بترول بيهان هو بترول يمني ، وقد أعلن عزمه على متابعة الجهود من أجل تحرير القسم المحتل من اليمن الجنوبية ، بقوله : « لقد برزت قضية الاتحاد في الوقت الذي تجري فيه محاولات لاستخراج البترول من جوف الاراضي اليمنية » . وادخال شبوة ، المنطقة البترولية أيضاً ، في المحمية الشرقية ، لا يصونها من مطالب اليمنيين وغاراتهم . وفضلاً عن ذلك ، ما أن يكتشف البترول في منطقة ما حتى تثور الخواطر . في حضرموت ، في بير ثمود الواقعة في منطقة مسالمة بعيدة نوعاً عن اليمن ، هاجم الاهالي الناقمون المنقبين عن البترول هنالك في شهر شباط

سنة ١٩٥٧ ، حيث تأكد وجود البترول في هذه المنطقة منذ سنة ١٩٥٤

وبترول بيهان وشبوه وبير ثمود هل هو موجود يا ترى بكميات صالحة للاستثمار التجاري ؟ من المؤكد ان البعد عن الشاطىء ، والعقبات الطبيعية الواجب تذليلها هما أهون بكثير من العقبات التي تثيرها المقاومة اليمنية . وسلسلة اخرى من العقبات ستبدأ في البروز عندما يصل منقبو الارامكو في سلسلة تنقيباتهم نحو الجنوب ، الى المناطق المتنازع على سيادتها في رمال الربع الخالي .

القسم الرابع

شرقي الجزيرة العربيّة

١٢

حارس الخليج العربي

كان الخليج العربي فيما مضى مشهوراً بقراصنته القساة ، وتجار الرقيق ولآلىء الشرق النادرة فيما بعد. أما اليوم فهو ذائع الصيت لكثرة ما يحوي من بترول . ان بترول الشرق الاوسط يأتي في أكثره من الآبار الواقعة جنوبي العراق وايران ، اي من حقول الكويت والاحساء التي لا مثيل لها . وأكثر من نصف احتياطي العالم موجود في جوف قوس عجيب تغسل اطرافه مياه الخليج التي تمخرها الناقلات القادمة لحمل البترول من موانىء الفاو ، وبندر شاهبور ، وميناء الاحمدي ؛ وقبل الوصول الى هذه الموانىء تمر السفن المحملة بالمياه المالحة على طوله الف وستمائة كيلومتر أمام شواطىء عمان وتعبر مضيق هرمز عند رأس ماسندام ، فتتعرف على آخر صخرة من صخور سلطان مسقط مع تعرفها الى البواب الثابت للخليج العربي .

تشكل سلطنة مسقط وعمان التي تقع بين صحراء الربع الخالي والبحر العربي الطرف المستدير لهذه الحزمة العريضة التي تؤلفها الجزيرة

العربية ، وكما هي الحال بالنسبة لحضرموت ، تدفع صعوبة المواصلات على الصحراء الداخلية الكبرى ، السلطنة الى التطلع بالطبع نحو العالم الهندي ، ولم يكن الانجليز قد قدروا بعد اهميتها الستراتيجية العظيمة ، عندما ادخلوها في منطقة نفوذهم في اواخر القرن الثامن عشر . واقامتهم في مسقط عام ١٨٠٠ كانت نقطة الانطلاق للمركز الممتاز الذي حصلت عليه بريطانيا خلال القرن التاسع عشر وحافظت عليه خلال النصف الاول من القرن العشرين ، بعد معركة طويلة للقضاء على كل محاولة لبسط النفوذ في تلك المنطقة قد تلجأ اليها الدول الاخرى ، وخاصة فرنسا .

واليوم أيضاً ، بعد الخروج من الهند ، وبعد النزاع الايراني ، وعلى الرغم من انحسار نفوذها في الشرق الاوسط ، وارتفـاع اسهم النفوذ الاميركي بسرعة ، ما زالت بريطانيا تبدو دولة رئيسية كبرى في المنطقة التي تشرف سلطنة مسقط وعمان على مدخلها . وقد رأينا ذلك ايضاً خلال صيف سنة ١٩٥٧ عندما سارعت القوات البريطانيـة الجوية والبرية لنجدة السلطان ، ضد ثورة القبائل العمانية في الداخل .

وهذه السلطنة التي لا تُعرف لها حدود ثابتة وكيان سياسي فريد ، وتعتبر نظرياً مستقلة ، مع ان قواتها المسلحة تخضع لقيـادة ضباط بريطانيين ، ووزير خارجيتها يدعى السيد « نيل اينز » يساعده قنصل صاحبة الجلالة الخاضع لسلطة المقيم السياسي البريطاني في منطقة الخليـج العربي . والاسم نفسه الذي يطلق على الدولة مبهم . فهو يجمع بين اسم العاصمة التي يبلغ عدد سكانها ثلاثة آلاف ، وداخل البلاد الذي تزيد مساحتها على مائتي الف كيلو متر مربع . وعدم الدقة في حدودها وصل الى درجة انه ذهبت بعض المصادر الى القول بأن مساحة السلطنة هي ما بين مائتين الى مائتين وعشرين الف كيلو متر مربع . بينما تؤكد شركة بترول العراق ، صاحبة الامتياز للتنقيب عن البترول هناك ،

بأن هذه المساحة لا تقل عن ثلاثمائة وخمسين الف كيلومتر مربع .

وقد احتاجت سلطة السلطان مراراً الى مساندة البريطانيين كي تفرض نفسها في الداخل في جبال عمان التي تسكنها قبائل بالغة القسوة، والمقاطعة الواقعة الى الغرب من السلطنة ضفار ، تجاور مهره احدى اقسام محمية عدن الشرقية مدينتها الرئيسية « صلالة » تضم قصر السلطان الصيفي ، ويتكون الداخـــل من تلال مخضرة حيث ينبت شجر البخور بصورة طبيعية منذ اقدم عصور التاريخ ، وشبه جزيرة « ماسندام » على مدخل الخليج العربي هي نوع من المراكز المتقدمة التي لا تتصل مباشرة بالسلطنة ، وكذلك في حالة خوضر ، التي هي جيب اخير يبلغ مساحته ثمانمائة كيلومتر مربع ويقوم على الجهة الثانية من خليج عمان في الباكستان (بلوخستان) .

ويجمع بين مختلف اجزاء السلطنة خضوعها لسيادة مسقط . وهذه البلدة هي افضل ميناء طبيعي في المنطقة تقع في خليج صغير يشبه الى حد كبير خلجان اسكندينافيا الملقبة بالفيورد.والى مسافة بضعة كيلومترات الى الشمال تقع قرية مطره . وهي اهم مركز تجاري في السلطنة ، بين هذه المدن وشاطىء القراصنة، سهل الباطنة الساحلي ينتشر الى ما لا نهاية اشجار النخيل ، انه المنطقة الخصبة الوحيدة على شاطىء زائد الحرارة وذي مناخ قاس على الاوروبيين، ومسقط ومطره مشهورتان بأنهما اكثر واشد مدن الجزيرة العربية حرارة ، والمقيمون الانجليز القلائل فيهما لا ينفكون يرددون ما قاله ذاك الزائر الايراني لها في القرن الخامس عشر اذ قال : « لقد كانت حرارة مرتفعة الى درجة انها تقلي النخاع داخل العظـــام وتذيب السيف في قرابه كالشمع ، وتحول قبضة الخنجر الى فحم ، وفي السهل يبلغ الصيد سهولة لا توصف لأن الصحراء امتلأت بالغزلان المشوية على الطبيعة » ان نسبة الامطار قليلة لأن الجبل الاخضر يحتكر الغيوم الثقيلة ليوزع امطارها على ساكنيه . وقمم الجبل التي يزيد

ارتفاعها على ثلاثة آلاف متر تكتسي احياناً بثوب الثلج الابيض . وفي الداخل، في الناحية الاخرى من الجبل تسير المنحدرات الجبلية في الانخفاض شيئاً فشيئاً نحو رمال الصحراء لتذوب نهائياً في صحراء الربع الخالي.

انهم قليلون الاوروبيون الذين زاروا منطقة الجبل الاخضر المنيعة ، وما من واحد منهم استطاع ان يعرفها على حقيقتها . ويعد سكانها ، وهم من العرب حـوالي خمسمائة الف نسمة يعملون في الزراعة ورعاية المواشي ، ويعتنقون المذهب الخارجي في الاسلام ويخضعون لسلطة امام خاص بهم . اما التركيب الاجتماعي فهو حتماً التنظيم القبلي، لأن الوصف الذي أعطاه « جيمس موريس » الذي رافق سلطان مسقط في جولته في السلطنة عام ١٩٥٥ يشير الى وجود عدد من المشايخ نزلوا من الجبل ليعربوا عن ولائهم للسلطان .

وفي المنطقة الساحلية على خليج عمان ، السكان خليط عجيب من العرب والهنود الباكستانيين والايرانيين والافريقيين .

هذا في المدن الساحلية ، اما خارجها ، إن في ضفار ، وإن في باطنة فالعرب يشكلون اكثرية ساحقـة ، ومجموع عدد سكان السلطنة يجب ان يكون في حدود ستمائة الف نسمة .

البؤس وجنون البترول

يعيش سكان الساحل العماني ، كما كان اباؤهم واجدادهم ، يعيشون في امل الانتظار للحصول على صفقة رابحة ، اذ ينتظرون نبأ اكتشاف البترول في جوف اراضيهم . وهذا السراب الدائم في الوقت الحاضر يساعدهم على تحمل اقسى درجات البؤس والشقاء .

تلك هي حال البقاع الجافة الفقيرة ، اما المنـــاطق التي تكثر فيها الامطار وتصلح للزراعة في ضفار ، والجبل الاخضر ، والباطنة ، في

السهل فهي اسعد حالاً وتعطي زراعة النخيل انواعاً مختلفة من التمر . وفي الواحات تتيح زراعة مختلف انواع الخضر والاثمار ، وتشكل الخضر مع التمور والحبوب المنتوجات الرئيسية في البلاد . وفي الداخل كما في اليمن ، تختلف الزراعــات باختلاف درجة الارتفاع في جلول مروية حسب وسائل موروثة عن الجدود ، ويعمل الحضريون كلهم في الزراعة على منحدرات الجبل الاخضر ، او في الاودية التي لا تصيبها رياح الصحراء المخربة ، من هذه المنطقة يُصدَّر عنب مسقط التي ادخلت اليها الكرمة على ايدي القادمين الجدد البرتغاليين في القرن السادس عشر.

وعلى الشاطىء تحوّل السكان الذين ينحدرون من اشرس قراصنة عرفتهم البحــار الى صيادي سمك مسالمين وغطاسي لؤلؤ جلودين ، ولكنهم لا يستهينون بالتهريب وتجارة الأسلحة اذا واتت الفرصة وذلك على الرغم من المراقبة الشديدة التي يفرضها خفر السواحل البريطانيون .

والشاطىء الكثير الاسماك يدعو الكثيرين من ابناء السواحل الى البحث في صيد الاسماك عن موارد العيش ، وفصل الشتاء الذي يبرد ميــاه المحيط ويدفع نحو الشاطىء الدافئة الاسماك الصردة هو افضل موسم لصيد سمك السردين على طول الشاطىء من مضيق باب المندب حتى مضيق هرمز ، ويصطاد السكان كذلك سمك القرش الذي يجفف ويملح ثم يصدر الى الصين ، وحسب انواعها تصدر الاسماك الاخرى الى الخارج او تباع في الأسواق الداخلية .

وبسبب التجارة الخارجية المتجهة تقليدياً منذ القدم نحو الهند والشرق الاقصى اختار سلطان مسقط الروبية الهندية عملة رسمية في سلطنته، وكما هي الحال في محمية عدن واليمن يفضل سكان الداخل « الثالر » الفضي البراق خاصة ماري تيريز امبراطورة النمسا . وتصدر عمان التمور والخضار والاسماك المجففة لتستورد الارز والمنسوجات القطنية والقمح والبن .

وخط بومباي ــ البصرة للشركة الانجليزية ــ الهندية للملاحة البخارية

يمر في مسقط التي يعبرها ايضاً خط ف. ستريك وشركة الهافر الجديدة للملاحة . وتقوم المراكب الوطنية بنشاط دائم بين مختلف موانيء الخليج والباكستان ، وتغامر في الابحار حتى زنجبار مجتازة المحيط الهندي كبحارة مسقط القدماء الذين دفعتهم جرأتهم النادرة الى منافسة البرتغال على امتلاك مستعمرات في افريقيا الشرقية .

وخلال الحرب العالمية الثانية بنى الحلفاء مطارات في صلاله ، وفي جزيرة مزراح على شاطيء عمان مقابل عائدات سنوية بلغت ستة آلاف جنيه استرليني ، وهناك مطار آخر قرب مطرة للطيران المدني ولكن لا يمكن استخدامه الا بعد علم مسبق بثماني واربعين ساعة على الاقل ، والحصول على موافقة السلطان . ولا يوجد في السلطنة حتى اليوم طريق معبدة تستحق ان يطلق عليها هذا الاسم ، اذ ما استثنينا سبعة او ثمانية كيلومترات تربط مسقط بمطره . والرحلة التاريخية التي قام بها السلطان سعيد بن تيمور في انحاء سلطنته في كانون الاول سنة ١٩٥٥ كانت اول اتصال بري بين ضفار ومسقط ، ثم طريق اللف حول السلسلة الجبلية من الشمال ، ومنذ ذلك الحين والتنقيب عن البترول يفرض على الشركات ذوات الامتياز شق طرقات وتعبيدها بين الساحل والداخل في ضفار وعمان .

الامتيازات والتنافس

حتى عام ١٩٥٣ كانت شركة فرعية تابعة لفريق شركة بترول العراق هي وحدها صاحبة الامتياز للتنقيب عن البترول في السلطنة وتدعى شركة التطوير البترولي المحدودة (عمان) ولم تتوصل هذه الشركة الى نتيجة ايجابية في تنقيباتها فتنازلت عن امتيازها في ضفار وفي ظروف غامضة ، الى السيد واندل فيليبس الذي باعه بدوره الى سيتي اويل

سرفيس كومباني ، وبدا ان هذا التحويل في ملكية الامتياز كان له آثاره الفعالة في توسيع نطاق التنقيب .

وبعد تنقيب ، وحفر دام عـــدة سنوات ، اعلنت سيتي سرفيس خلال عام ١٩٥٧ نبأ نجاحها في الاهتداء الى كميات من مخزون البترول صالحة للاستثمار التجاري . والنفوذ الى داخل ضفار حمل الشركة على شق طريق تتيح لها ذلك ، واذا ما قدر التثبت من صحة صلاح هذا البترول للاستثمار التجاري ، فإن معنى ذلك ان النمو السريع سيصيب هذه المنطقة . وهذا الامر يجب ان يعزي السلطان سعيد بن تيمور على فشله في عمان .

لقد ساد الاعتقاد فيما مضى ان منطقة عمان الجبلية الثائرة هي التي تحوي اكبر حظ في العثور على البترول : وهكذا هم البشر،لا يتطلعون الا ما هو صعب المنال . والتنقيب الذي جرى في ظروف مضنية بسبب عدم الاستقرار والخوف ادى في كانون الاول سنة ١٩٥٥ الى العملية الصاعقة التي انتهت بعد حملة خاطفة مولتها الشركة البريطانية المنقبة عن البترول بعزل امام عمان زعيم القبائل الثائرة . والى الشمال من عمـــان ايضاً تعرضت واحة البريمي هي الاخرى الى الاحتلال على ايدي قوات مسقطية يقودها بريطانيون ، وما ان خلا المكان حتى نقل البريطانيون جواً كل ادوات وآلات الحفر الى فهـــود ، بينما كان العمال من ناحية ثانية يشقون طريقاً برية لربط الساحل بحقول البترول ، واشارت التنقيبـــات الاولية في الطبيعة وطبقات الارض التي عينت المكان المختار لاجراء الحفر واخراج البترول الى دلائل مشجعة وتبشر بنتائج حسنة وسريعة .

وفي الوقت الذي كانت السلطات البريطانية من وراء سلطان مسقط تضع يدها على سلطنة عمان وتعزل امامها الثائر ، كثر الحديث عن فهود وما تبعثه من آمال في مخزون بترولي عظيم . وبعد مضي ثمانية عشر

شهراً من ذلك التاريخ دلت المعلومات المستقاة من مقر شركة بترول العراق ان هذه الآمال لم تكن في موضعها .

في شهر حزيران سنة ١٩٥٧ حفر بئران عميقان ، ووصل الحفر الى عمق اثني عشر الف قدم ، دون ان يصل الى الجيوب المنتجة ، حتى ولا الى ما يشير الى دلائل مشجعة . وكان الفنيون يستعدون لنقل آلات الحفر عندما أدت عودة الامـــام غالب في شهر تموز سنة ١٩٥٧ الى اندلاع نار الثورة في عمان . وفي نهاية السنة كانت كل الآلات قد نُقلت الى الشمال . وبالطبع لا يعني عدم نجاح عمليات الحفر هذه انه لا يوجد ابداً كميات من البترول في منطقة فهود . وفضلاً عن ذلك ، ما زال البحث مستمراً يحدوه بعض الامل . وقد بدأ صبر السلطان ورعاياه ينفد من طيلة الانتظار ، بينما الامارات الاخرى تثري بسرعة هائلة بفضل اكتشاف البترول فيها . وقـــد وصل جنون البترول الى أكثر مناطق الجزيرة العربية غموضاً . وبفضله أصبح الامراء البدو مستعدين للتنازع في سبيل شبر من الارض ، كما كان يفعل الفلاحون الاوروبيون من قبل . والنزاع هنا أقوى وأعنف .

امبراطورية سلاطين مسقط المندثرة

يعني اكتشاف البترول ، بالنسبة للسيد سعيد بن تيمور سلطان مسقط الذي ورث عام ١٩٣٢ امبراطورية منهارة يتأكلها الفقر ، بعث البلاد من جديد . وسعيد هذا رجل صامت صبور ، يهتم بتطوير سلطنته أشد الاهتمام . كثير الاحلام والمشروعات يدونها في مفكرة يدسها في جيبه . وليس من أحد يعلم حالياً مدى عائداته التي يجب ان تكون متواضعة جداً لأنها تقوم على المكوس الجمركية والايجار السنوي الذي تدفعه له

الشركات البترولية صاحبة الامتياز .

ان سلطان مسقط كثير الغدوات والنزهات ، وهو يمشي دوماً ساهماً إذ يأمـــل ، عندما ينفجر البترول في السلطنة ، ان يبني سداً هنا ، وطريقاً هناك ، ومدرسة في هذا المكان ، ومستشفى في ذاك . وعُمان العجيبة الغامضة المنسية ستعود من جديد بلداً كبيراً فائق الاهمية .

قبل احتلال مسقط على يد « البوكرك الكبير » كان تاريخ عُمان مجهولاً جهلاً تاماً تقريباً لدى الاوروبيين . ويذكرنا اليوم حصن برتغالي ، ما زال قائماً هناك ، ان مسقط قـد جوت مدة قرن ونصف القرن مستودعاً مهماً يشرف على مجمل التجارة في كل مناطق الخليج العربي ، واستخدمت كقاعدة للانطلاق الى المناطق الداخلية عند الفاتحين البرتغاليين .

وحوالي عام ١٦٥٠ ثار العمانيون العرب وطردوا المحتلين الاجانب من بلادهم . وشيئاً فشيئاً ، حتى عام ١٧٣٠ ، كان على العمانيين ان يبسطوا سيادتهم على جميع المستعمرات البرتغالية السابقة في شرقي افريقيا : موغاديشو ، مومباسا ، وجزر مافيا وزنجبار . وبعـد اجتياح ايراني موقت دام من سنة ١٧٤١ الى سنة ١٧٤٣ قدمت العائلة المالكة الحالية من الجبال لتؤسس سلطنة مسقط .

وفي نهاية القرن الثامن عشر احتل السيد سلطان ، جدُّ العاهل الحالي ، مسقط والمنطقة الساحلية . واجتاز الخليج ليحتل خوطر ، كشم ، شهبار ، وهرمز ، وبقي الرئيس الروحي سيد الداخل . ولكن السيد سلطان بسط سيادته على ضفتي مضيق هرمز ، وعلى الجزر ، وامتدت امبراطوريته حتى افريقيا .

وكانت تلك الحقبة تشهد تنافساً عنيفاً على بسط النفوذ في منطقـة الخليج وغيرها من المناطق ، بين الفرنسيين والبريطانيين ، وكان نابليون الاول يحلم بانتزاع امبراطورية الهند من الانجليز ، فأرسل « الكابورال الصغير » رسله الى مسقط ، غير ان الانجليز كانوا أسرع منه ، فنجحوا

عـام ١٧٩٧ في الحصول من السلطان على عقـد أول معاهدة صداقة معهم ، موجهة بصورة خاصة ضد الاطماع النابليونية ، ومن ثم ضد الهولنديين النشيطين .

وفي سنة ١٨٠٠ سمح لأول مُقيم سياسي بريطاني ان يقيم في مسقط . عندئذ نظم البريطانيون حملتهم ضد القرصنة التي تهدد مصالح شركة الهند الشرقية (البريطانية) وأمنوا منذ ذلك الوقت الحراسة الدولية في الخليج العربي بالاشتراك مع حليفهم المحلي . والمصلحة الواضحة للبريطانيين كانت ضمان حرية المرور للسفن البريطانية في مضيق هرمز ، لأن الدخول الى الخليـج العربي معناه الولوج الى منطقة الشرق الاوسط من الباب الخلفي السري . وفي الوقت نفسه منعوا قيام أية دولة أخرى يمكن ان تصبح في المستقبل خطراً على مواصلاتهم البحرية والبرية بين انحـاء الامبراطورية البريطانية .

وفي ظـل السلطان سعيد بن سلطان (١٨٠٤ — ١٨٥٦) عرفت امبراطورية سلاطين مسقط البحرية أوج مجدها وازدهارها ، اذ كانت المراكب العمانية الكبرى تربط باستمرار بين السلطنة وممتلكاتها في افريقيا الشرقية . وبدت الصداقة مع بريطانيا مثمرة لأن الازدهار لوّن وجوه التجار وزادها بشراً .

وفي سنة ١٨٣٢ خبا نجم مسقط فترة من الوقت ، بعـد ان قرر سلطانها نقل عاصمته الى افريقيا . وفي زنجبار ، حيث أقام ، بقي السلطان يبسط سلطانه على امبراطوريته حتى مماته . وبعد سعيد بن سلطان عام ١٨٥٦ قسمت الامبراطورية الى قسمين بين ابنيـه ، فاحتفظ احدهما بالممتلكات الافريقية ، بينما أخذ جد السلطان الحالي القسم العربي منها . لقد تطورت الحال ولم يبق ثابتاً سوى الحماية البريطانية ، وكتب لزنجبار ان تقع أكثر من مسقط في قبضة البريطانيين .

هذا وقد جذب المركز الستراتيجي الفريد للسلطنة العربية الى بلاطها

مبعوثي مختلف الدول . ومنذ عهد السلطان سعيد بن سلطان قويت العلاقات الخارجية واتسع نطاقها . وقد زاد هذا الميل فيما بعد .

ففي سنة ١٨٣٣ وقع ميثاق صداقة ، لا يزال ساري المفعول بين السلطنة والولايات المتحدة الاميركية . وبريطانيا من جهتها وقعت مع السلطان ميثاقاً جديداً للتجارة والصداقة عام ١٨٣٩ ، وفرنسا دخلت في علاقات تعاهدية مع مسقط عام ١٨٤١ فوقعت مع السلطان ميثاق صداقة عام ١٨٤٤ . أما هولندا فقد عقدت مع مسقط معاهدة تجارية عام ١٨٧١

وقد تنافس الحصانان الكبيران في المنطقة ، فرنسا وانجلترة ، وعاكس كل منهما الآخر ، خلال القسم الاكبر من القرن التاسع عشر . وبفضل هذا التنافس الشديد بين الدولتين الكبيرتين استطاع السلطان ان يحتفظ « باستقلاله » . وفي سنة ١٨٦٢ قبلت فرنسا بالاتفاق مع بريطانيا ان تضمن استقلال وحدود سلطنة مسقط . ولازعاج البريطانيين الذين أعلنوها حرباً شعواء على القراصنة والمهربين سمحت السلطات الفرنسية القنصلية لأكثر من مركب ان ينجو من ملاحقة البحرية الملكية ، برفع العلم الفرنسي المثلث الألوان . ولكن فرنسا اضطرت ان تقلع عن هذا العمل إزاء احتجاجات بريطانيا الشديدة وشكاويها ، وبعد توقيع الاتفاق الحبي بين الدولتين المتنافستين .

التفوق البريطاني

لدى نشوب الحرب العالمية الاولى ، وعلى الرغم من ان معاهدة الصداقة الفرنسية — المسقطية كانت سارية المفعول ، أقفلت قنصلية فرنسا في مسقط . ومن جراء ذلك أصبح التفوق البريطاني مطلقاً . ومع ذلك احتفظت بريطانيا شكلاً بمظاهر الاستقلال الخارجية ، ودعمت نظام

السلطنة الاساسي الذي اعترف به في محكمة لاهاي الدولية عند دراسة مشكلة مراكب مسقط عام ١٩٠٥ ، وأعطت لندن لممثلها هناك لقب قنصل ، مع انه كباقي المندوبين السياسيين البريطانيين في سائر امارات الخليج يخضع لسلطة المقيم السياسي البريطاني للخليج العربي المقيم في البحرين. وهكذا وضعت بريطانيا علاقاتها مع السلطنة في اطار قانوني يحفظ المظاهر .

وفي الخامس من شباط سنة ١٩٣٩ جدد ميثاق الصداقة والتجارة والملاحة الذي ضمن حقوقاً خاصة للرعايا البريطانيين المعقود في آذار سنة ١٨٩١ ، وكان السلطان قد اصدر منذ العشرين من كانون الثاني سنة ١٩٢٣ مذكرة يعد فيها بعدم اعطاء أي امتياز للتنقيب عن الثروات قبل أخذ رأي الممثل البريطاني في مسقط .

وفي العشرين من كانون الاول سنة ١٩٥١ وقع ميثاق جديد للصداقة والتجارة والملاحة بين السلطان السيد سعيد بن تيمور والمقيم السياسي البريطاني في منطقة الخليج العربي باسم صاحبة الجلالة ملكة بريطانيا ، واحتفظت بريطانيا بحقوقها القانونية المميزة لمواطنيها غير المسلمين في المملكة المتحدة ومستعمراتها . وكانت هذه الامور قد ورد ذكرها في الرسائل المتبادلة الملحقة بالميثاق .

وعلى العموم اذا كان مركز سلطنة مسقط يمكن اعتباره من الوجهة القانونية الدولية سلبياً ، فهو عملياً يجعل من مسقط محمية بريطانية تجاوباً مع التعريف المقبول عادة للكيانات السياسية ، اذ ان الشؤون الخارجية والدفاع والمالية في السلطنة كلها تحت اشراف الانجليز . وبريطانيا هي التي تمثل السلطان في النزاع على واحة البريمي . كما ان جنودها وقواتها الجوية اضطرت الى التدخل في تموز وآب سنة ١٩٥٧ لتدعيم سلطة سعيد ابن تيمور المتزعزعة في عمان بعد اندلاع الثورة ضده هناك .

القوى الخفية في عمان الثائرة

لقد كشفت ثورة عمـــان في صيف عام ١٩٥٧ عن تعقد الاوضاع السياسية في السلطنة . والواقـــع حتى عام ١٩٥٥ ان السيادة الفعلية لسلطان مسقط لم تكن تتخطى المنطقة الساحلية من عمان ، اما الداخل الجبلي الذي تسكنه قبـــائل عنيدة عاصية ، متأخرة ، فكان خاضعاً للامام العبيدي المقيم في نزوة ، وهذا لا يعترف الا بتبعية وهمية اسمية لسلطان مسقط الذي يستطيع ان يقطع عليه خطوط مواصلاته الحيوية مع الخارج .

وفي عام ١٩١٥ عندما ثارت قبائل الداخل ، لم يستطع سلطان مسقط اخماد ثورتها الا بمساعدة القوات البريطانية الهندية ، وبقيت الثورة تزمجر حتى توقيع معاهدة « السيب » المشهورة في عام ١٩٢٠ بين سلطان مسقط وامام عمـــان التي احتفظت لقبائل الداخل بحقهم في نوع من الاستقلال الذاتي . وهذا النص العجيب الغريب لم يعثر له على اثر في اعقاب الخلاف القانوني الذي نتج عن التدخل البريطاني المسلح في ثورة عمان الى جانب سلطان مسقط ، والجدير بالذكر ان امام عمان كان قد اعترف به سيداً لامامة عمان المستقلة عام ١٩٢٨ من قبل حكومة الهند التي كانت تمثل بريطانيا في منطقة الخليج العربي آنذاك .

لم يحاول سعيد بن تيمور الذي خلف والده عام ١٩٣٢ ان يؤكد مطلقاً سيادته في عمان حتى ذاك اليوم الذي وجدت فيه العربية السعودية ومصر مفاوضاً طيعاً في الامام غالب ، وربما اكثر في اخيه طالب ، لقد اشار السعوديون الذين لم يتخلوا مطلقاً عن حلمهم في توحيد الجزيرة العربية كلها ، والقوميون العرب الذين عزموا على ان يقضوا نهائيـــاً على الاستعمار البريطاني اشار هؤلاء على امام نزوة ان يعلن انفصاله عن مسقط

الواقعة في قبضة البريطانيين لا سيما بعد ان اصمت آذانها عن سماع نداءات القومية العربية الداعية للوحدة والتحرر . والتنقيب عن البترول الذي كان ينشط في الجنوب يمكن ان يكون له علاقة بذلك ، وهكذا اعدت عملية سرية — بمساعدة الشركة البترولية — حملت قوات مسقط التي يقودها الكولونيل واترفيلد وضباطــه البريطانيون الى اسوار نزوة في صبيحة الخامس عشر من كانون الاول سنة ١٩٥٥ ، فعزل الامام وفر اخوه طالب الى الخارج .

ولدى اذاعة النبــأ الخطير ترك سعيد بن تيمور ضفار حيث كان ينتظر على احر من الجمر نتائج الحملة ليقوم بجولة طنانة في انحاء سلطنته التي يتجول فيها لاول مرة غير انه في جولته هذه تحاشى ان يتوغل في الجبل.وفيما عدا زيارته لنزوة دار السلطان حول الجبل الاخضر الى الشمال ليعود الى عاصمته الوفية الموالية على الساحل .

هذه هي الجولة التي استطاع السيد جيمس موريس مراسل التايمز ان يرافق السلطان فيها ويصف مشاهداته . وفي كل مراحل جولته هــذه كان السلطان يتلقى عهود الولاء من مختلف شيوخ القبائل والقرى . وقبل ان يعود الى العاصمة مسقط ، توقف سعيد بن تيمــور في البريمي حيث قابل الشيخ شخبوط بن سلطان ابو ظبي الذي يقاسمه السيادة على واحة البريمي في جنوبي شرقي الجزيرة العربية ، وفي الطريق زار المنقبين عن البترول جماعة « السيتي سرفيس » في ضفار ، وجماعة « البتروليوم دفلوبمانت — عمان » في فهود . وفي كل مكان كان السلطان يسجل ملحوظاته في مفكرته الخالدة . وبعد عودته الى قصره المتواضع ، لم يكن احد يعلم مغزى الالغاز التي كانت تخبئها علائم التعب البادية عليه .

واذا كان السلطان يعتقد ان كل شيء ما زال في بدايته ، فهو على حق . وقبل بضعة اسابيع كانت قوات شاطىء القراصنة تحت قيادة

ضباطها البريطانيين ، قد طردت خارجاً القوات السعودية . وهكذا تلقي نزاع البريمي حلاً قاسياً موقتاً غير منتظر .

ان انتزاع السلطة هكذا من يد الامام غالب الرئيس الروحي المنتخب انتخاباً شرعياً وحليف آل سعود ، كان اكثر مما يستطيع تحمله سيد الرياض ، والحقيقة التي زادتها الايام ثبوتاً ، ان هذه الحركات كلها في هذه المنطقة المنسية ليس لها من دافع سوى وجود البترول . وبمجرد الاشارة الى ذلك اشارة عابرة تلقى مراسل التايمز تعنيفاً شديداً من قبل السلطان . ولكن كان يجب ان نعلم اشياء اكثر عن ذلك . وعلى كل حال فإن مطامح سعود والارامكو من جهة ، تقابلها اطماع سعيد بن تيمور وشخبوط بن سلطان وشركة بترول العراق من جهة ثانية .

اثر احتلال نزوة قصد الامام طالب آل سعود ، فسلّحوه . وعاد طالب في تموز سنة ١٩٥٧ على رأس بضع مئات من انصاره ليثير عُمان ضد سلطان مسقط . وكان ان اشتركت الطائرات المقاتلة لسلاح الجو الملكي البريطاني الموجودة في قواعد عدن والشارقة والبحرين ومشاة الجبال الايكوسيين وقوات مسقط ، ومشايخ سلطنات شاطىء القراصنة، كل هؤلاء اشتركوا في محاولة القضاء على الثورة العمانية .

وجميع القوات البريطانية في منطقة الشرق الاوسط انذرت بالبقاء على اهبة الاستعـداد حذرة لمدة عدة اسابيع . واستطاعت الدعاوة الموجهة بحنكة من القاهرة ان تُعطي القضية اهمية وصدى دوليين . لقد فقد البريطانيون برودتهم ومتانة اعصابهم . وكانت خير غذاء للدعاوة ضدهم لصالح الثوار . لقد فشل طالب وغالب في الوقت الحاضر . ولكنهما نجوا من قبضة البريطانيين . وزادت بريطانيا قواتها في مختلف قواعدها العسكرية في الشرق الاوسط. في حين ما زال سلطان مسقط يتساءل عما سيفاجئه به اعداؤه في الجولة القادمة . انه الآن يسيطر على نزوة

ومبدئياً على عُمان ، كما يسيطر على البريمي مع جاره شيخ ابي ظبي ؛ وبمركزه الستراتيجي يشرف على مدخل الخليج العربي ويمكنه ان يعدّ بلهفة وشوق ناقلات البترول التي تمخر عباب اليم امام شواطئه : ومع قليل من الحظ يأمل سعيد بن تيمور ان يرى هذه الناقلات تحمل بترول مسقط ان شاء الله ٠



١٣

البترول بدون حدود

اذا عبر المرء سلطنة مسقط وعمان دخل في العالم المقفل الغامض ، عالم الخليج العربي حيث الدسائس والمؤامرات والمناورات البترولية العنيفة ، والنزاعات والخلافات على الحدود بين المشايخ ، والمصالح المتضاربة للدول الكبرى المتحالفة في الظاهر ، عن طريق شركاتها البترولية الوطنية . واذا ما تركنا عمان متابعين سيرنا الى الشمال على شواطىء الخليج لا نصادف سوى امارات صغيرة تحت الحماية البريطانية ، تحافظ عليها بريطانيا بكل قواها لتبقيها خارج المملكة السعودية الجارة الكبرى من ناحية الغرب حيث تتحكم بالنفوذ البترولي الشركات الاميركية .

لقد كان سكان هذه الامارات رعاة لقطعان الماعز ، وقد اضحوا بعد سنوات من كبار الاغنياء بفضل الثروة التي حملها لهم الذهب الاسود ومثل الجيران الشماليين علمهم البترول انه من الممكن جمع ثروات طائلة بفضل مساحات صغيرة من الرمال لم يكن فيها اية فائدة لاصحابها من قبل . وكل هذه الثروة التي تنساب بشكل سيارات كاديلاك مكيفة

اء تشعل نار الحسد : والروائح الكريهة المنبعثة من السائل البترولي ، تُسكر عرب الخليج بكل تأكيد ، اكثر من الروائح العطرة المنبعثة من « البستان المعطر » رغم ما فيها من حلاوة وقوة مثيرة .

في هذا العالم الصغير الذي تعوّد على النزاعات العائلية والقبلية من اجل الحكم ، وعلى الاحتلال الموقت العابر ، وتغيير السيادات العملية في هذا العالم ، لم تكن الحدود يوماً موضع تعريف دقيق ، وليس ذلك ناجماً عن ان القبائل البدوية والزعماء الذين تحدروا عنها يجهلون معنى الحدود الأرضية ، بل لأن كلمة « حدود » العربية ليس لها نفس المعنى الدقيق الذي نعرفه للكلمات المقابلة للغات الاوروبية . والمفهوم القانوني المعين للحدود المرسومة بوضوح على المصورات الجغرافية ، والمرتبط بحقوق السيادة المعينة التي يتفهمها ، لم يأخذ هنا قيمة وأهمية الا بعد ان ثبت ان السائل العجيب الثمين يستطيع ان ينساب في جوف الارض دون وجل او خوف ، وكسب بضعة كيلومترات في منطقة الحدود قد يعني بالنسبة للزعماء العرب الثروة او العوز ، وبالنسبة للمستثمرين الاجانب بترول دولار — او بترول استرليني .

وفي العربية السعودية يشمل الامتياز الممنوح للارامكو بالطبع جميع الاراضي السعودية ، هذه الاراضي المجهولة الحدود من جهة صحراء الربع الخالي . وهي مساحات شاسعة خالية في الجزيرة العربية ؟

وفي الجنوب ، والجنوب الشرقي تنعم شركة امتيازات البترول في محميات عدن وشركة « سيتي سرفيس » في ضفار ، و « البترليوم ديفلو بمانت » في عمان وشاطىء القراصنة ، تنعم كلها بامتيازات تنتهي نظرياً عند حدود هذه الاقطار ، مع العربية السعودية . ولكن هذه الحدود كلها لا وجود لها . واكتشاف البترول في شبوه وبيرثمود في ضفار وأبي ظبي لا يمكن ان يؤدي الى تحريك اطماع سيد الرياض

وأصدقائه الاميركيين . وفيما خلا ضفار ، مُنح في مساحة قدرها خمسمئة الى ستمائة الف كيلومتر مربع من الجزيرة العربية امتياز التنقيب عن البترول فيها الى شركات تابعة كلها الى شركة بترول العراق التي ترجح فيها كفة المصالح البريطانية .

حول الجانب الجنوبي من صحراء الربع الخالي في الجزيرة العربية تطلبت التنقيبات عن البترول من الشركات البريطانيـة والمستقلة شق طرقات عبر الصحراء في مناطق غير معروفة جيداً حيث « الحدود » السعودية يمكن ان تكون بكل سهولة على مئـة كيلو متر اكثر الى الشمال ، او خمسين كيلومتر الى الجنوب ، حسب الصورة التي يرسمها لها خلفاء ابن سعود . ولدى كل عمل من قبل البريطانيين كان القادمون من الشمال من الناحية الاخرى لمحيط الرمال الراكد منقبو الأرامكو يتقدمون بصورة لاشعورية نحو الجنوب باتجـاه منافسيهم . والوسائل الحديثة من طائرات عامودية ، جرارات خاصة ضخمة ، وبيوت متحركة مكيفة ، تساعد على الانتصار على المسافات الشاسعـة من الطرفين :

وكلما قلت المسافة الفاصلة بين المتنافسين ، ازداد خطر الاصطـدام والنزاع وامكانية ذلك ليست بعيدة ابـداً . وهنا ربما يكمن السبب الرئيسي الذي من أجله بقي البترول المكتشف في مناطق متنازع عليها دون استثمار حتى اليوم . وأحد هذه النزاعات الذي سبق له وانفجر علناً ، بالضبط بعد تقارب فريقي التنقيب التابعين لشركتين مختلفتين متنافستين من بعضها البعض . وقضية البريمي المشهورة برهنت بتطوراتها على مدى اتساع شقي التنافس البريطانسي – الاميركي في المنطقـة : وأهمية واحة البريمي ناتجة ايضاً عن كون السيطرة عليها تساوي آلاف الكيلومترات المربعة المحيطة بها .

الأرامكو ضد شركة بترول العراق

النزاع على البريمي

قد يظن البعض ان كنز واحة البريمي هو البترول ، والواقع انه الماء النادر على حافة الربع الخالي . وفي قلب بلاد جفافها يبعث الحزن تحيي ينابيع البريمي عدة قرى تتجمع عندها جميع طرقات الجنوب الشرقي العربي . وتبعد القرى الساحلية عنها اكثر من مئة كيلو متر ، بينما اقرب قرية سعودية منها تبعد عنها بضع مئات من الكيلومترات . وهذه الواحة هي نقطة التقاء في الداخل الصحراوي بالنسبة لعمان ، ولشاطىء القراصنة معاً . وملكية هذه الواحة فقط تمكن وحدها تعيين الحدود التقريبية لسلطنة مسقط وعمان ومشيخة ابي ظبي ، والمملكة العربية السعودية . ونتيجة لذلك يعين احتلالها عن طريق هؤلاء او اولئك عملياً حدود الامتيازات البترولية لكل من الشركات الاميركية والبريطانية .

والواحة هي ، في الحقيقة ، مجموعة من تسع قرى ، بيوتها من اللبن ، ويفصل بينها مساحات صحراوية متفاوتة الاتساع ، بريمي ، حماسة ، وسارة ، يطالب بها سلطان مسقط وعمان ، بينما يطالب شيخ ابي ظبي بالقيمة وهيلي ، والقطارة ، ومويقح ، والمطرد ، والعين ، والملك السعودي من جهته يطالب بالمنطقة كلها التي اعطتها قرية البريمي اسمها بموجب التعهدات البريطانية المعطاة الى شيخ ابي ظبي . وبناء لطلب سلطان مسقط تمثل بريطانيا مصالح الشيخ والسلطان ، هذه المصالح التي تتوافق مع مصالح شركة بترول العراق .

ان وضع الواحة الممتاز نسبياً في احدى المناطق الاكثر جفافاً في

الجزيرة العربية يجعل منها القسم الاكثر كثافة بالسكان ، فيما عدا الشواطىء ، وشمالي عمان ، وشاطىء القراصنة انها مركز طبيعي للزراعة والتبادل التجاري ، يتهافت عليها البدو الضاربون في ذلك القسم من الجزيرة العربية ، مهما كان نوع الكيان السياسي الذي يفرض عليها . والاثمار والخضار والحشائش والتمور المنتجة في قرى الواحة تستبدل هنا بالارز ، والبن والسكر ، والمنسوجات المنقولة الى الواحة من الساحل . وهنا ايضاً يقايض الرعاة البدو بعض منتوجات مواشيهم بالمواد المستوردة او المنتوجات الزراعية الحضرية . لقد كان لهذه المراكز التجارية أهمية بالغة ، في كل وقت ، لوجودها في مناطق صحراوية ، حيث تكتسب صفة العاصمة في دائرة يبلغ شعاعها مئات الكيلومترات . والقرية الرئيسية في الواحة ، البريمي ، تشكل مع « حماسة » مكان التجمع وتبادل السلع بالنسبة للبدو . وتأكيد وجود البترول الذي بات ثابتاً في جنوب شرقي الجزيرة العربية ، كان من شأنه مضاعفة الاهمية الستراتيجية والاقتصادية للواحة .

وتستند المطالبة السعودية بالواحة الى ان اسلاف الاسرة السعودية المالكة قد بسطوا سيادتهم على الواحة بين عام ١٨١٣ و ١٨٦٩ . وبصورة خاصة اثناء نمو الدولة الوهابية الاولى . وبعد زوال السلطة السعودية الوهابية عنها يظهر ان البريمي بقيت فترة من الزمن دون سيد معروف ، بوضوح ، وذلك كما هي الحال في القانون البحري بالنسبة الى البحر العميق في وسط بحر مقفل من كل الجهات . ثم عمد سلطان مسقط بصورة طبيعية الى ضم القرى التابعة لقبائل ترتحل الى عمان الشمالية الى سلطنته كما اعتبر شيخ ابي ظبي القرى الست التي ترتحل قبائلها الى اراضيه جزءاً من مشيخته . وليس من المستبعد مع ذلك ، ان يكون بعض البدو الذين تجتذبهم البريمي نفسها ممن يرتحلون في مناطق يرجع قسم منها على الاقل لسيادة السعودية ، غير ان معرفة ذلك متعذرة

لصعوبة تعيين النقطة التي تبدأ منها الاراضي السعودية .

وفي النزاع على البريمي ليس من نصوص يمكن الاعتماد عليها ، والمواقف نفسها التي يتخذها مختلف الفرقاء هي كل ما في ايدينا .

وقد برز النزاع لاول مرة عام ١٩٣٥ ، ثم أدى عام ١٩٣٧ الى أول تقويم للحدود دون ان تشمل المطالب السعودية المنطقة المتنازع عليها اليوم . وتقريباً في الوقت نفسه لكن في الطرف الآخر من المملكة ، في الشمال الغربي ، كان ابن سعود يعلن انه لن يتخلى عن منطقة معان — العقبة التي الحقها البريطانيون بامارة شرقي الاردن ، وبعد الحرب ، وكان قد بدأ عهد البترول في الجزيرة العربية وتناست العربية السعودية حقوقها في منطقة معان — العقبة ، لتطالب بأراض جديدة في الجهة الجنوبية الشرقية من الجزيرة . وفي عام ١٩٤٩ اطلقت السعودية مطلباً جديداً ، يشمل هذه المرة الاراضي المحيطة بقرية البريمي ، وتدعي الحكومة السعودية ان موظفيها لم ينفكوا عملياً عن جمع الزكاة من قبائل الواحة . اما لندن فتقول ان علاقات الواحة التجارية وغيرها هي مع شاطىء القراصنة او عمان وليس مع المملكة السعودية علاقات فعاية وذلك رداً على المطالب الوهابية التوسعية .

النزاع المسلح والتحكيم

في اواسط عام ١٩٥٢ احتلت القوات السعودية بقيادة تركي بن عطيشان قرية حماسة . فما كان من بريطانيا الا ان احتجت وأرفقت احتجاجها بأعمال تعسفية أرغمت تركي بن عطيشان على الانسحاب سنة ١٩٥٣ . ثم وقعت هدنة بين الفريقين خففت من حدة النزاع . وطالبت العربية السعودية ان يتقرر مصير الواحة باجراء استفتاء شعبي من قبل الاهلين ، بينما اقترحت بريطانيا من جانبها اجراء تحكيم دولي .

ومنذ ذلك الوقت والتنقيب عن البترول مستمر في المنطقة . وفي كانون الثاني سنة ١٩٥٤ جاء اعلان اكتشاف البترول في ابي ظبي ليؤكد الصفة البترولية للنزاع . ولكن أهمية هذا الاكتشاف لم يفصح عنها حتى اليوم .

ونتيجة للمفاوضات التي جرت بين الخارجية البريطانية وحكومة الرياض ، بين كانون الثاني وتموز سنة ١٩٥٤ استقر الرأي على التحكيم في جدة . وتألفت على الأثر لجنة دولية قوامها سعودي وبريطاني وثلاثة حياديين مهمتها تعيين الحدود المشتركة بين العربية السعودية وابو ظبي في المنطقة التي طالبت بها العربية السعودية عام ١٩٤٩ وابي ظبي عام ١٩٥٢ ، وبالتالي معرفة السلطة التي يجب ان تتبع لها المنطقة الواقعة داخل دائرة البريمي ، التي يمر محيطها في نقطة التقاء خط العرض ٢٤ درجة و٢٥ دقيقة شمالاً بخط الطول ٥٥ درجة و٣٦ دقيقة شرقاً .

وقد اجتمعت لجنة التحكيم الدولية لأول مرة في نيس في الثاني والعشرين من كانون الثاني سنة ١٩٥٥ برئاسة القانوني البلجيكي المشهور شارل فيشر قاضي محكمة لاهاي الدولية سابقاً . وكانت اللجنة تضم عضواً كوبياً هو السيد دي ديهغو ، وباكستانياً هو السيد محمود حسن ، كما ضمت الشيخ يوسف ياسين عن العربية السعودية والسير ريدر بولارد عن بريطانيا بوصفها ممثلة مسقط وابو ظبي . وبعد ان طلبت اللجنة من الفريقين المتنازعين الامتناع عن أي عمل في المنطقة موضع الخلاف ، انفضت اللجنة ، بعد ان اتخذت قراراً بعقد مؤتمر التحكيم في جنيف في موعد لاحق .

وعلى الرغم من ذلك القرار دخلت الرياض ولندن في معركة الكلام والمذكرات والبيانات فاتهمت لندن السعودية بالرشوة وتهريب الاسلحة ، وأجابت الرياض ان بريطانيا تجوع سكان الواحة بفرض الحصار عليهم . وما ان أعلنت الحكومة البريطانية ان القوات الوطنية بقيادة ضباط

بريطانيين تسعى جهدها لمنع تهريب الاسلحة والذهب المخصص للرشوة حتى ردت الحكومة السعودية مؤكدة بأن هذه الأموال انما هي تقليدية ، ورفعت شكواها الى الصليب الاحمر الدولي ومنظمة الصحة الدولية لأغاثة « حماسة » التي فرض عليها البريطانيون الحصار .

استحالة التحكيم

في هذا الجو الملبد بالغيوم افتتحت في جنيف في الثامن من ايلول سنة ١٩٥٥ دورة اللجنة الدولية للتحكيم . وسرعان ما اتضح ان الجو لم يكن مناسباً لفض الخلافات . وفي الحادي عشر من ايلول أعلن رجل القانون البريطاني المشهور السير هارتلي شوكروس المستشار القانوني الاول للوفد البريطاني أمام اللجنة ، بأن العربية السعودية لم تنفك عن خرق اتفاق التحكيم ومقررات نيس ، وهي ما زالت ترسل مبعوثيها محملين بالذهب الى البريمي لرشوة زعماء القبائل وادخال الاسلحة وقوات الشرطة الى الواحة ، وطلب الى اللجنة اعتبار اعمـــال كهذه مخالفة لمقررات وأوامر اللجنة الدواية ، هذه اللجنة التي عليها ان تؤمن احترام مقرراتها . وفضلاً عن ذلك تسرب الشك الى المستشارين البريطانيين في تجرد عضو اللجنة الباكستاني الذي طالت اقامته في مكة المكرمة الى درجة حملت على تأخير موعد بدء المناقشات . وسلامة نية السعودي ايضاً كانت موضع شك ، مما حمل الرئيس على ان يذكر بحفظ النظام .

وبعـــد بضعة ايام استقال من اللجنة السير ريدر بولارد ، العضو البريطاني ، مرفقـــاً استقالته بضجة كبرى ، بعد ان اتهم الحكومة السعودية بالافساد المنظم المتعمد المستمر في سعيها لتأمين سيادتهـــا على المنطقة موضع الخلاف . وبعد قليل من الوقت قدم رئيس اللجنة شارل دي فيشر والعضو الكوبي دي ديهغو استقالتها من اللجنة .

وعلى الأثر نشرت الخارجية البريطانية بياناً طويلاً يكشف تفاصيل الجلسات . ويقول هذا البيان ان العربية السعودية كانت قد دفعت مبالغ طائلة من المال لبعض زعماء القبائل لتكسبهم الى جانبها . وان الشيخ زيد وحده شقيق شيخ ابي ظبي قبض مبلغاً قدره ثلاثون مليون جنيه استرليني من الحكومة السعودية ، وقد شهد بذلك أمام المحكمة .

وعلى هذا البيان ردت السفارة السعودية في لندن ببيان نشرته في التاسع من تشرين الاول ، كذبت فيه جملة وتفصيلاً ، الاتهامات البريطانية . كما أعلنت حكومة الرياض ان جلسات محكمة التحكيم كانت سرية ولا يجوز نشر ما جرى فيها . ولذلك لا تستطيع ان ترد بنداً بنداً على ما ادعاه الانجليز ، بل اكتفت بأن اتهمت بريطانيا بأنها انسحبت من المحكمة في الوقت الذي ثبت لديها فيه ان القرار لم يكن لصالحها .

وفشل التحكيم في قضية البريمي يبين بصورة خاصة الصعوبة التي ترافق محاولة فرض مبادىء وأساليب غربية ، هي نتاج تطور طويل الامد ، على شعوب شرقية عرفت تطوراً مخالفاً في حياتها .

وسنرى كيف ان هذا الامر سيكون له نتائج أخرى .

القوة حل موقت

في السادس والعشرين من تشرين الاول سنة ١٩٥٥ أعلن السير انطوني ايدن نائب رئيس الوزارة البريطانية أمام مجلس العموم ان قوات شاطىء القراصنة قد احتلت واحة البريمي وطردت القوات السعودية منها .

وأضاف ايدن : « بما ان مفاوضات التحكيم قد فشلت لم يبق أمامنا لاحترام عهودنا ومساندة اصدقائنا سوى اللجوء الى القوة . » وفي اليوم التالي أذاعت الخارجية البريطانية انه قد تم أسر خمسة وعشرين جندياً سعودياً اثناء احتلال البريمي ، سلموا الى السعودية فيما بعد ، واثناء

ذلك وقع في قبضة الانجليز عدد من المستندات . وعلى الفور احتجت العربية السعودية بشدة ضد العدوان البريطاني المسلح على واحة البريمي واحتلالها عسكرياً في سلسلة من البيانات والمنشورات على التوالي في لندن وباريس وهيئة الامم المتحدة في نيويورك . وأشار البيان المنشور في باريس بصورة خاصة الى ان العربية السعودية لن تعترف بأي امتياز ممنوح أو سيمنح في المستقبل لأي كان دون موافقتها في البريمي .

والعلاقات البريطانية السعودية التي بدأت تسوء منذ توقيع حلف بغداد وصلت بعد هذا الحادث الى أحرج ساعاتها . وانتظر العالم ان يؤدي ذلك الى قطع العلاقات الدبلوماسية بين البلدين . ولكن ذلك لم يحدث على الرغم من استدعاء السفير السعودي من لنــدن . وظلت العلاقات متوترة عدة أشهر .

وفي الرابع والعشرين من تشرين الثاني سنة ١٩٥٥ رفضت حكومة لندن صراحة عرضاً تقدمت به السعودية في التاسع من تشرين الثاني ، يقترح العودة الى عمليات التحكيم التي انقطعت ، وأكدت في جوابها ان الافساد والتهويل قد وصلا الى درجة لا تطاق منذ ثلاث سنوات .

ويشير البيان البريطاني الى ان العملية التي تمت في ٢٦ تشرين الاول ، على يد القوات المحلية ، لم يكن هدفها سوى إعادة وضع سابق شرعي كان قد نقضه السعوديون في حملتهم على البريمي عام ١٩٥٢ تلك الحملة التي كانت مخالفة صريحة للمواثيق السابقة (المــادة السادسة من ميثاق جدة بصورة خاصة) والوضع العام في منطقة الشرق الاوسط الذي كان توتره في ازدياد مستمر ، لم يكن غريباً عن تصلب موقفي البلدين المتنازعين .

وفي الخامس عشر من كانون الاول سنة ١٩٥٥ طفــح الكيل عنــد السعوديين وعيل صبرهم عندما نزلت الضربة الثانية في نزوة وأرغمت امام عمان على الهرب موطدة سيادة أصدقاء بريطانيا على سلطنة عمان . وفي نهاية شهر كانون الاول سنة ١٩٥٥ اجتمع السلطان سعيد

ابن تيمور سلطان مسقط وعمان في قرية البريمي بزميله سلطان ابي ظبي الشيخ شخبوط بن سلطان لابرام اتفـاق تاريخي بشأن اقتسام السيادة على الواحة .

وبعـد سكوت دام بضعة اشهر أدى الضغط في الولايات المتحدة الاميركية الخائفة الناقمة من تطور الاحداث الى بعث القضية على الصعيد الدبلوماسي . وخلال زيارة السير انطوني ايدن لواشنطن في شباط سنة ١٩٥٦ كانت قضية البريمي في رأس قائمة الموضوعات التي أعدت ليدرسها المسؤول البريطاني مع المسؤولين الاميركيين . وقـد حاولت الخارجية الاميركية عبثاً اقناع البريطانيين بالعودة الى التحكيم من جديد . والسعوديون الذين بدأوا يظهرون مخاوفهم من تطور الاوضاع هم الذين طلبوا الى الرئيس ايزنهاور ان يتدخل في قضية البريمي شخصياً . ولكن اجتماعات ايدن — ايزنهاور لم تؤدِ مباشرة الى الحل المطلوب . واضطرت كل من الخارجية البريطانية والاميركية لأن تعترف بوجود تباين في وجهات النظر بشأن قضية البريمي .

كان البريطانيون آنذاك مسرورين لأنهم وفقوا الى ضبط محاولات تهريب الاسلحة لذلك اظهروا تصلبـاً كلياً ولكن ممثليهم الدبلوماسيين تلقوا اخيراً تعليمات بوجوب الابقاء على شعرة معاوية . وفي السادس والعشرين من نيسان سنة ١٩٥٦ اعلنت الخارجية البريطانية بإنجاز عودة العلاقات الدبلوماسية الطبيعية بين بريطانيا والعربية السعودية . وفي الثاني من شهر ايار التالي علم ان السفير البريطاني في جدة قد بدأ محادثاته من اجل اعادة العلاقات بين البلدين الى ما كانت عليـه من ود وصداقة تقليديـين . ولكن هذه المحادثات لم تصل الى نتيجة ايجابية لأن ازمة السويس آنذاك في الشرق الاوسط قد سدت كل باب للتفاهم سلمياً بين العرب وبريطانيا .

بريطانيا امام التجربة

ليس هناك من شك في ان الضغط الاميركي هنا وهناك قد لعب دوراً هاماً في اعادة العلاقات الانجليزية السعودية . فقد كانت الولايات المتحدة تخشى تدويل نزاع قد تضطر فيه ان تساند وجهة النظر السعودية. واميركا ذاتياً عن قصد او غير قصد تضع نفسها في المعسكر المعادي لبريطانيا. قبل ثلاثة اشهر من ضربة السويس الصاعقة ، كانت الخارجية الاميركية ما تزال تعتبر جمال عبد الناصر عنصر تهدئة في الشرق الاوسط. ويبدو ان جون فوستر دالس قد خُدِع بتقارير سفيره في القاهرة السيد هنري بايرود.وقد بنى استراتيجيته على اساس حسن نية الزعيم المصري، رغبة منه في قطع الطريق على الاغراءات السوفياتية . وبعد ان شجعت الولايات المتحدة اللعبة المصرية فترة طويلة ، اعتقدت انها اصبحت سيدة الموقف ، فسحبت فجأة عرضها لتمويل بناء السد العالي ، على اعتبار ان الوصل بين عبد الناصر والاتحاد السوفياتي قد انقطع . وبعد مضي اسبوع واحـد فقط على تصرف الولايات المتحدة هذا اجاب الرئيس عبد الناصر على ذلك في السادس والعشرين من تموز سنة ١٩٥٦ بضحكة مقهقهة . اذ قد اعلن تأميم قناة السويس، وفوراً اعلنت العربية السعودية انها تؤيد مصر تأييداً تاماً في خطوتها المباركة .

وقد كان تأميم قناة السويس كما هو معروف نقطة انطلاق لأحداث كبيرة . وكان لا بد ان توضع جميع خلافات الشرق الاوسط الاخرى على الرف مدة بضعة اشهر. وهكذا وجدت قضية البريمي نفسها معلّقة. ثم جاء التدخل الفرنسي – البريطاني على مصر في تشرين الثاني سنة ١٩٥٦ « ليجمدها » وكان من نتيجة ذلك قطع العلاقات الدبلوماسية بين بريطانيا والعربية السعودية ، بداية عهد جديد من العلاقات العربية

البريطانية :

ان التحدي الكبير الذي جبه به عبد الناصر الدول الغربية الكبرى ، وفشل كل محـاولة قانونية لفض الخلاف ، ثم اخيراً العدوان الفاشل المخزي على بور سعيد ، كل هذا جعل من ازمة السويس ثورة احس بها العرب اكثر من الاوروبيين . وفضلاً عن ذلك ، فيما يتعلق بالخليج العربي بصورة خاصة ، يبدو لي ان العرب اساءوا تقدير العزم البريطاني. ففي عام ١٩٥٨ كما في مطلع العصر ، تعتبر بريطانيا ان كل محاولة للقضاء على وجودها ونفوذها في الخليج العربي يهدد اكثر مصالحهـا الحيوية . وللمحافظة على مصالحها البترولية مستعدة كل الاستعداد للمخاطرة بكل شيء ، وشن اية حرب مهما كانت النتائج وذلك لأن قطع البترول عنها معناه على كل حال القضاء على وجودها نفسه .

وفي الوقت نفسه تقفل بريطانيا على نفسها في نطاق تزداد خطورته مع الايام . ونتيجة تعهداتها القديمة التي تفرض عليها حماية علاقاتهـا وامتيازاتها ، ترى بريطانيا نفسها مضطرة لحماية استقلال امارات ومشيخات رجعية التركيب ، في الوقت الذي يتطـور فيه رعاياها بسرعة مذهلة يفتحون عيونهم على ما يجري حولهم : والخوف المسيطر على لندن يكاد يقض مضجع المسؤولين فيها ،واي تهاون او ضعف في المساندة البريطانية في نقطة او في اخرى من الخليـج ، معناه انهيار نظام قائم على بضعة اشخاص مخلصين للصداقة البريطانية. وللاحتفاظ ببترول الخليـج والارباح الطائلة التي يدرها ، تجد بريطانيا نفسها ملزمة اكثر فأكثر بوجوب تقديم مساندة مسلّحة لكل من اصدقائها حكام الخليـج ، مهما كانت نوعية الاسباب الداعية لذلك :

ترى هل هذا النظام هو الافضل ؟ – نستطيع احياناً ان نشك في ذلك . لقد عزمت وزارة الخارجية البريطانية كما يبدو وقررت نهائياً ان تربط بها مصير جميع الامارات والمشيخات العربية الواقعة على الخليج

العربي دون ان تأخذ بعين الاعتبار كبر هذه الكيانات او صغرهـــة وانتاجها البترولي ، وامكاناتها الحياتية . في هذه المنطقة التي لا حدود لها فاصلة فيهـــا ، والتي سممها البترول ، لم يبق للدولة الوصية حرية الاختيار، وهي ملزمة بالدفاع عن المصالح المشتركة بين الشركات البترولية وامراء الخليج ومشايخه .

وهذا التصرف معناه رفض التبصر ، وعدم الاقرار بأن الايام قد تغيرت حتى في الخليج العربي .

١٤

شاطئ القراصنة وشاطئ البترول

بين شبه جزيرة ماسندام نهاية الخليج العربي ، وشبه جزيرة قطر في وسطه يحمل شاطىء الجزيرة العربية اسم « شاطىء القراصنة » او « شاطىء الهدنة » والى الشمال من هذا الشاطىء بين الاحساء والكويت نجد اكبر احتياطي معروف للبترول في العالم . ان هذه الضفة العربية للخليج مقسمة سياسياً بين العربية السعودية في الاحساء ، وحوالي عشر امارات تدخل كلها في نطاق الحماية البريطانية ، وهي متفاوتة المساحة ، ويعود الفضل في الابقاء على استقلالها الى التنافس البترولي بين الشركات الاميركية والبريطانية ، وامارات الخليج كما يطلق عليها احياناً ، لا تمثل مع ذلك لا منفردة ولا مجتمعة كياناً سياسياً مماثلاً لمحمية عدن ؛ مع ان النتيجة العملية هي واحدة .

في الجنوب العربي تمنح وثيقة الحماية الحكومة البريطانية سلطة التشريع والادارة ، اما امارات الخليج فقد أشير في النصوص الرسمية الى انها « دول ذات سيادة مرتبطة بمعاهدات خاصة مع الحكومة البريطانية »

انها « دول محمية » وينطبق عليها التعريف التالي — بلد خاضع لحاكم محلي ينعم بحماية الدولة البريطانية التي تشرف على سياسته الخارجية دون ان تتدخل في شؤونه الذاتية — وهذا الفرق بين محمية من الطراز الاستعماري ، كمحمية عدن او « دول محمية » كأمارات الخليج يظهر في التطبيق العملي للحماية ، اذ ان الحماية الاولى تتعلق بوزارة المستعمرات بينما الحماية الثانية من اختصاص وزارة الخارجية .

ونظام الدولة المحمية « يشمل مشيخات شاطىء القراصنة السبع ، وقطر ، والبحرين ، والكويت » ان بريطانيا مرتبطة مع كل هذه الدول بمعاهدات تخوّلها الاشراف التام على سياستها وعلاقاتها الخارجية وخاصة فيما يتعلّق بالامتيازات البترولية التي لا تستطيع هذه الدول ان تمنحها الا بموافقة الحكومة البريطانية . وهذا الوضع الممتاز لبريطانيا كان ابن سعود قد اعترف به رسمياً في المادة السادسة من معاهدة جدة المعقودة في العشرين من ايار سنة ١٩٢٧ ولم يعكر صفاؤه الا في الفترة الاخيرة.ومن الوجهة التاريخية كانت اقامة اول مقيم بريطاني في مسقط احد الاسباب التي اتاحت للحكومة البريطانية ان تستأثر بالنفوذ في هذه المنطقة الحساسة من العالم . والصراع ضد القرصنة وتجارة الرقيق ، اللذين حرّمها القانون البريطاني منذ فجر القرن التاسع عشر ، أدّيا عام ١٨٣٠ الى عقد سلسلة من اتفاقات الهدنة مع مختلف زعماء شاطىء القراصنة وشركة الهند الشرقية (البريطانية).ثم تبع ذلك وأكمله عام ١٨٣٠ الاتفاق العام للسلام الدائم ، الذي فتح صفحة السيطرة البريطانية المطلقة على الخليج العربي ، هذه السيطرة التي مضى عليها ما يقرب من قرن ، وهذا الاتفاق هو الذي اعطى شاطىء القراصنة ، اسمه الجديد « شاطىء الهدنة » .

شاطىء القراصنة

لم يؤد النفوذ البريطاني بالطبع مباشرة دون جهد ، الى زوال القرصنة في الخليج العربي ، ولم يكن لاجمل المعاهدات وأفضلها في يوم من الايام القدرة السحرية على تغيير العادات الموروثة عند البشر فجأة . لقد كانت منطقة الخليج منذ القدم ملجأ خطيراً لمغامري البحر ، ولكن مراكبهم الصغيرة ذات المؤخرة المرتفعة لم تكن تستطيع أن تدخل في سباق السرعة مع السفن البخارية الحديثة . وشيئاً فشيئاً تمكنت البحرية الملكية من ان تنتصر على القراصنة . والتهريب وتجارة الاسلحة والرقيق الابيض كل ذلك ما زال حتى اليوم وسيلة من وسائل الربح في هذه المنطقة الشحيحة لجوّابي البحار الحقيقيين ولم يقض عليها نهائياً .

يبسط المشايخ الصغار السبعة الذين تتقاسم اماراتهم ، التسمية العامة لشاطىء القراصنة سيادتهم على مساحات متفاوتة من الصحراء الجرداء ، التي تنتشر فيها المستنقعات المالحة هنا وهناك . والمساحة الهامة لا يمكن تقديرها الا على وجه التقريب . وهي بين عشرين الى ثمانين الف كيلومتر مربع ، وتنحصر الحياة الانسانية تقريباً في قرى الشاطىء ، وفي قرى واحة البريمي . وقدر هؤلاء السكان بثمانين الف نسمة ، ثلاثون الفاً منهم يجتمعون في ظبي والميناء الرئيسي في المنطقة ، ومقر الممثل البريطاني . وفقر هذه المنطقة اذا ما قورن بالاقطار المجاورة العجيبة يدفع سكانها الى الهجرة الموقتة للعمل في البحرين ، وقطر ، او الكويت ، اما البدو المتنقلون في الداخل فعددهم يزيد عن عشرة آلاف .

وأربع من هذه الامارات ليست سوى قرى ساحلية هي ، عجمان ،

ام الكيوين ، رأس الخيمة ، وفجيرة ، وبين الثلاث الباقية ظبي هي اكبر مدينة ، والميناء الاكثر اهمية ، والشارب التي تتبعها كلبه مشهورة بالقاعدة الجوية التي اقامها سلاح الجو الملكي البريطاني فيها وأما ابو ظبي فهي اوسع الامارات مساحة . ومهما تكن المساحة صغيرة ام كبيرة فان كلاً من هذه الامارات السبع تحرص الحرص كله على استقلالها التام : ونزاعاتها المستمرة فيما بينها ازدادت حدتها في السنوات الاخيرة بعد ان تسلط البترول على عقول ومخيلات الناس والمشايخ .

ويمضي المندوبون البريطانيون كامل اوقاتهم في فض خلافات لا طائل تحتها والمحاولات السرية التي بدأت منذ سنة ١٩٤٥ بغية اقامة نوع من الاتحاد بين الامارات أدت الى عقد اجتماعات نصف سنوية تقريباً في نطاق مجلس الامراء الذي يشرف عليه المندوب البريطاني . وقوات شاطىء القراصنة التي يقودها الكولونيل اريك. ف. جونسون وضباطه الاثنان والعشرون المختارون من الجيش البريطاني ، تفرض السلام البريطاني وقد رأينا الدور الذي لعبته هذه القوات في قضية البريمي .

الصراع من اجل الحياة والامتيازات

ان هذا الشاطىء المتقطع الذي تتحمله الصخور المرجانية والجزر الصغرى ، والاعماق السحيقة ، هو اول ميدان للمعركة الضارية بين الانسان وعناصر الطبيعة . على الشاطىء نجد البحارة كل وقت يبنون مراكبهم الراقصة ، للصيد الموسمي ، صيد اللؤلؤ او صيد السمك

والزوارق نفسها ما زالت تمر احياناً في الليل امام سفن دوريات الامن البريطانية لتفرغ بدون ضجة ، في جون ما ، حمولتها المهربة بعيدة عن اعين الرقباء ؛ وفي الداخل عدا بعض الاماكن النادرة التي تنعم بالمياه وبضع شجيرات من النخيل ، تحتكر واحة البريمي كل مظاهر الحياة والزراعة الحضرية . ومنذ احتلالها في تشرين الاول سنة ١٩٥٥ والواحة تفيد من المساعدات المالية البريطانية التي تستهدف تنمية الانتاج . وقد تم حتى الآن تصليح اقنية الري الضرورية ، وزود الفلاحون بمضخات الماء الى جانب مستوصف مجاني .

ورأس الخيمة آخر الامارات الى جهة الشرق ، والأكثر قحلاً وفقراً هي الأخرى موضع اهتمام خاص لتطويرها زراعياً . وقد أعدت الحكومة البريطانية مشروعاً انمائياً لمدة خمس سنوات يكلف مبدئياً نصف مليون جنيه استرليني .

واذا كان احفاد القراصنة القدماء قد بقوا بصورة خاصة صيادي أسماك وغطاسي لؤلؤ ، فما ذلك إلا لأن الفائدة التي يمكن ان تقدمها بلادهم الفقيرة لا تأتي الا عن طريق البترول . وقد نشطت عملياته منذ عدة سنوات ، ولكن النتائج لم تكن مشجعة كثيراً اذ تبين أن الآبار جافة والزيوت بالغة الثقل والغازات خطرة : وما زال الحفر مستمراً في عدة اماكن على اليابسة وتحت مياه الخليج . وامتياز التنقيب على اليابسة هو من نصيب شركة التطوير البترولية المحدودة (شاطىء القراصنة) احدى تابعات فريق شركة بترول العراق التي تم القسم الأكبر من تنقيبها في ابي ظبي . اما الامتيازات القعرية فقد منحت لشركات مختلفة . ومنذ تصريح ترومان سنة ١٩٤٥ ، والدول البحرية في العالم تعلن سيادتها على الحوض البحري . وفي عام ١٩٤٩ اكدت امارات الخليج

سيادتها على الحوض البحري الممتد من الشاطىء حتى خط وسطي وهمي يقسم الخليج . وبعد ذلك فتح الامراء المزاد .

وقد مُنح امتياز التنقيب في الحوض البحري في ابي ظبي اول الامر الى الشركة العليا للبترول « السوبريور اويل » التي تتبع الشركة البحرية الدولية للبترول « الانترناشيونال مارين اويل كومباني » وعلى اثر احتجاجات شركة التطوير البترولية احدى بنات شركة بترول العراق، تشكلت لجنة دولية للتحكيم ، اجتمعت في باريس في تموز سنة ١٩٥١ لتتعرف الى ماهية الامتياز الجديد . ودون عناء تخلت الشركة البحرية الدولية للبترول قبل ان تتوسع في عمليات التنقيب عن حقوقها عام ١٩٥٢ وحصلت على الامتياز من جديد في آذار سنة ١٩٥٣ شركة « دارسي للتنقيب » احدى توابع شركة البترول البريطانية (الأنجلو ايرانيان سابقاً) بالاشتراك مع شركة البترول الفرنسية بنسبة الثلث . ومنذ بداية سنة ١٩٥٤ بدأ العلماء الجيولوجيون دراساتهم . وفي اوائل عام ١٩٥٨ بدأت عمليات الحفر في المياه المحيطة بجزيرة « داس » .

اما شيخ ظبي الامارة الثانية في الشاطىء من حيث الأهمية ، فقد منح منذ عام ١٩٥٢ امتيازاً للتنقيب في الحوض البحري مدته ستون سنة لشركة ثلثاها لشركة البترول البريطانية والثلث الباقي لشركة البترول الفرنسية .

التفرد البريطاني

تعود في الوقت الحاضر بدلات الامتيازات البترولية على شاطىء القراصنة بما يقرب من مئة وخمسة وسبعين مليون فرنك ، ثمانون بالمئة منها تذهب الى ابي ظبي . وتبدو هذه المبالغ كأنها حسنات زهيدة اذ ما قيست بالمليارات التي تنهال بالمئات على صناديق الكويت والعربية

السعودية . حتى لو لم يعثر على البترول مطلقاً هناك ، فأن شاطىء القراصنة يجب ان يطور ويدافع عنه من قبل الانجليز بالاندفاع نفسه اذا لم يكن اكثر من الاندفاع الذي يدافعـون به عن الكويت وقطر والبحرين . وشاطىء القراصنة الخالي من البترول هو الثمن الذي تدفعه بريطانيا للمحافظة على نفوذها وسيطرتها في الخليج على شاطىء البترول . وفي مظاهرتي القوة في البريمي وعمان اظهرت لندن ما يكفي من العزم لتبرهن على ان الحكومة البريطانية تفهم قضايا امارات الخليج كلاً لا يتجزأ .

وتميل بريطانيا الى عدم احترام تعهداتها بدقة تامة تجاه جميع الامراء والمشايخ العرب الداخلين في حمايتها حتى لا تخسر ودّ اي من اولئك الذين تجني منهم اضخم الارباح . وهي مضطرة بسبب هذا الموقف العام ان تحافظ على زعماء هذه « الدويلات » الصغيرة وتساندهم لأن اجدادهم كانوا قد وضعوا مصيرهم بين يدي التاج البريطاني .

ففي آذار سنة ١٨٩٢ وقع مشايخ القراصنة معاهدات ثنائية مانعـة كتلك التي وقعها زعماء محمية عدن . وبموجب هذه الاتفاقات وعد كل من المشايخ بألا يقيم اية علاقات مع اية من الدول غير بريطانيا ، الا بموافقة هذه الاخيرة كما وعد من ناحية ثانية بألا يتنازل عن اي قسم من اراضيه لأي كان او لاية حكومة الا للحكومة البريطانية ، وكذلك وضع كلياً على عاتق بريطانيا مهام علاقاته الخارجية بما في ذلك علاقاته مع باقي مشايخ الشاطىء . اما الاتفاقات اللاحقة التي وقعت في عامي ١٩١١ و١٩١٢ فقد وسعت نطاق الاحتكار البريطاني ليشمل الامتيازات اللؤلؤية والبتروليـة . وبموجب هذه الاتفاقات التي ابرمت لأجل غير مسمى يشرف ضابط سياسي بريطاني على سياسة شاطىء القراصنة الخارجية بينما يحتفظ المشايخ بحرية التصرف داخلياً . وهم يحكمون حكماً مطلقاً ، وهذا « المطلق » مقيد بتعهداتهم بمنع القرصنة وتجارة الرقيق وبصورة عامة كل عمل مناوىء في البحر .

وتظهر بريطانيا منذ بروزها في شاطىء القراصنة وعلى الاصح ممثلوها المحليون خوفاً شديداً من الزوار الاجانب كأنهم مرض خطير او وباء مبيد. ولا يتجول اجنبي على شواطىء الخليج العربي اذا لم يكن مرغوباً فيه . ويجب ان يكون له مهمة ولا يستغنى عنها. وهذه المراقبة الحذرة تستطيع ان تمنع الافكار والعادات الجديدة من التسرب والانتشار والقضاء كدود الخشب ، على نظام الحياة القديمة في الصحراء ، ويبدو ان كثيرين من البريطانيين قد افهموا ذلك . ولكن ما زال هناك حفنة من اشباه اللورانسيين في لندن والخليج لم يروا من تحت كوفيتهم التي يحرصون على نظافتها شيئاً من التطورات التي تحصل منذ عشر سنوات في المنطقة، ولم يتحسسوا بعد بالقومية العربية الصاعدة . ولم يبقَ عليهم الا ان ينظروا حولهم في الخليج ليروا ان النفوذ البريطاني اصبح من مخلفات الماضي

قطر

قطر هي احدى الامارات الصحراوية التي تنفرد فيها الحكومة البريطانية بحقوق مميّزة . وهنا كما هي الحال في البحرين والكويت يقلب انتاجُ البترول المعطيات القديمة رأساً على عقب . وفي كل هذه الامارات البترولية تمر الاحداث سريعة ، الامر الذي يزيد من اهمية تاريخ فترة ، لن يكون لها وجود في حركة تطورية بالغة السرعة :

تغطي الامارة بالضبط شبه الجزيرة التي تقسم الخليج الى قسمين : وقد يخامرنا الظن ان تكوينها الطبيعي يقلل من اخطار الخلافات على السيادة . ولكن شيئاً من هذا لم يحدث . ذلك ان حدودها الداخلية لم تعين يوماً . وهي في نزاع مستمر تارة مع ابي ظبي ، وطوراً مع العربية السعودية ، من اجل تعيين هذه الحدود .

ومساحة شبه الجزيرة القطرية التي تبلغ عشرين الف كيلومتر مربع

تقريباً تشكل منبسطاً صحراوياً مستوياً مجدباً ومحرقاً ، يحيط به شاطىء متقطع ، تتخلله الصخور المرجانية . ولا مجال هنا للتحدث عن تطوير زراعي . اذ ان بعض الآبار فقط تُعطي مياهاً شحيحة ومالحة ، تسقي واحات صغيرة من النخيل هي ملاجىء البدو .

وليس هناك ما يقطع كآبة الصحراء سوى الطرقات الحديثة التي تربط بين المراكز البترولية ، ميناء ام سعيد ، والدوحة العاصمة.

والسكان الذين قُدّر عددهم بخمسة وعشرين الفاً عام ١٩٥٤ ، يظهر انهم تضاعفوا فيما بعد . وهناك قسم من سكان شاطىء القراصنة جذبهم بالطبع ازدهارُ شبه الجزيرة المجاورة . والى جانب استثمار البترول تقبل النشاطات الثانوية المتطورة عدداً متزايداً من القطريين الذين كانوا يرتزقون من الصيد وصناعة اللؤلؤ وتربية المواشي . وبين الحقول الجديدة المزدهرة، يحتل البناء مركزاً ممتازاً الى جانب النقل في السيارات . ولقد دخلت قطر في ميدان التطور بعد تردد . ولكن عائداتها المتصاعدة دائماً اجبرتها على الاقتداء بجاراتها المنتجة ، وهنا طبعاً ، لا يفيد الجميع النسبة نفسها من الثروة الجديدة. ان اكبر الاغنياء في هذه المنطقة ممن بثوا قوتهم على الاحتكار الغريب في حقول مختلفة ، هو عبد الله درويش « الرجل الذي يملك خمسين سيارة كاديلاك »

انه السيد الاكبر في هذا اللسان الصحراوي المتقدم في البحر الذي لا يحتوي على موارد سوى البترول الاسود .

البترول

كان بترول قطر فترة من الوقت من نصيب الشركة الانجليزية الايرانية ، ثم تحول الى احدى تابعات شركة بترول العراق شركة التطوير البترولية التي تدعى شركة بترول قطر . يبدأ الامتياز من سنة

١٩٣. وهو خمس وسبعون سنة ، حتّى عام ٢٠١٠ والتنقيب الذي بدأ عام ١٩٣٧ اعطى نتائج ايجابية منذ سنة ١٩٣٩ على الشاطىء الغربي من شبه الجزيرة ، المقابل للبحرين . وفي منطقة دخان الكثيرة المستنقعات عُثر على جيب صالح للاستثمار . ولكن الحرب العالمية الثانية اوقفت كل تنقيب . واضطرت الشركة الى اقفال الآبار الاولى التي حفرتها.

وادت الاعمال التي استؤنفت عام ١٩٤٧ الى انتاج تجاري متزايد منذ عام ١٩٤٩ . وفي فترة وجيزة مُـــدّت الانابيب وبنيت الخزانات ، واحدثت مرافىء التعبئة ، والمدن البترولية للعمال ، وهذه لائحة بالانتاج الخام بالطن المتري :

السنة	الانتاج بالطن
١٩٤٩	٩٦،٠٠٠
١٩٥٠	١،٦٣٢،٠٠٠
١٩٥١	٢،٣٦٩،٠٠٠
١٩٥٢	٣،٢٩٧،٠٠٠
١٩٥٣	٤،٠٦٢،٠٠٠
١٩٥٤	٤،٧٧٨،٠٠٠
١٩٥٥	٥،٤٣٨،٠٠٠
١٩٥٦	٥،٨٧٦،٠٠٠
١٩٥٧	٦،٦٤٨،٠٠٠

وعلى الرغم من النكسة التي اصيب بها الانتاج في شهر تشرين الثاني سنة ١٩٥٦ من جراء اقفال قنال السويس عاد المستوى الى الارتفاع خلال سنة ١٩٥٧ حتّى تجاوز ستة ملايين طن . وبسبب هذا النمط من الانتاج المتزايد سينضب المخزون البترولي المعروف في شبه الجزيرة بسرعة.وخلافاً لما جرى بالنسبة للقارة العربية لم يكتشف في قطر اي حقل بترولي بعد

دخان . وحسب تقديرات ١٩٥٣ يبلغ احتياطي قطر ملياراً ومائتي مليون برميل اي ما يمثل في ذلك الوقت نسبة واحد في المائة من احتياطي العالم غير الشيوعي آنذاك .

ولكن اليأس لم يدب في القلوب بعد ، لأنه ما زالت هناك امكانية العثور على البترول في الحوض البحري وقد كانت قطر اول امارة منحت امتيازاً للتنقيب في الحوض البحري في عام ١٩٤٩ الى شركة غير تلك التي تعمل في اليابسة . ونتج عن ذلك خلاف بين شيخ قطر والشركة صاحبة الامتياز في اليابسة (شركة بترول العراق) حُلَّ في النهاية لصالح الشيخ عن طريق لجنة تحكيم اجتمعت في الدوحة في كانون الثاني سنة ١٩٥٠ ، ونتيجة لذلك حصلت شركة شل للتنقيب عبر البحار التي تتبع فريق « رويال — دوتش — شل » على امتياز التنقيب في الحوض البحري الممنوح في البدء الى الشركة العليا للبترول التابعة «للشركة البحرية الدولية للبترول » وقد بدأت شل اعمال الحفر في جون الدوحة منذ سنة ١٩٥٤ بواسطة جزيرة اصطناعية عائمة فريدة من نوعها في العالم وأنفقت مئات الملايين على هذا العمل الذي ذهب هباءً بسبب عاصفة غير منتظرة هبت في كانون الاول سنة ١٩٥٦ وخربت كل ادوات الحفر . وكانت قد كلفت ملياراً من الفرنكات وسنتين من العمل. وعلى الرغم من ذلك اعلنت في اوائل شباط سنة ١٩٥٧ عن تصميمها على العـودة الى العمل من جديد في مكان آخر ، وعلى تأجير مكان للحفر الى شركة اخرى . ان هذا الاصرار يؤكد الآمال في العثور على جيوب بترولية هامة في الحوض البحري .

تشكل العائدات الناتجة عن الصناعة البترولية المورد الرئيسي في قطر، ويخصص الشيخ قسماً كبيـراً من هذا المورد لترقية حياة رعاياه الذين يبلغ عددهم عشرين الفاً تقريباً .

ومنذ عام ١٩٥٢ وقع اتفاق جديد لتقاسم ارباح البترول مناصفة بين

الشيخ والشركة الأمر الذي جعل عائدات الشيخ ترتفع الى خمسة عشر مليون دولار عام ١٩٥٥ . والدوحة العاصمة الطينية القديمة لهذه الامارة الرملية هي في طريق التحول الى مدينة حديثة مضاءة بالكهرباء ، مرصوفة الشوارع ، ومياه البحر المكررة تسيل عذبة من حنفيات منازلها .

ان الشيء الذي لم يتغير بعد ، هو نظام الحكم المطلق الذي يزاوله الشيخ علي بن عبد الله بن قاسم آل ثاني ، الذي خلف والده عام ١٩٤٩ والى جانب ابنه الشيخ احمد هناك مستشار بريطاني يدعى المستر هنكوك وهو يعاون الشيخ في ادارة شؤون الامارة الداخلية ، على رأس عدد من كبار الموظفين البريطانيين الذين يعملون في خدمة الامارة ؛ اما الشؤون الخارجية والدفاعية فهي بين يدي وزارة الخارجية البريطانية ، عن طريق ممثلها السياسي في قطر السيد د. س. كاردن . وتزاول انجلترا هذه السلطات بموجب اتفاقات مماثلة للمعاهدات المعقودة مع سادة شاطىء القراصنة ، التي تعطي بريطانيا حق التفرد في العلاقات والامتيازات ؛ والاتفاق الأول المعقود في الثالث من تشرين الثاني سنة ١٩١٦ جدد عام ١٩٣٤ ليشمل ويعرّف الحماية البريطانية . ومع ان محتواه لا يختلف عن محتوى الاتفاقات المعقودة مع مشايخ شاطىء القراصنة فإن شيخ قطر مرتبط بعلاقات اوثق مع الدولة الحامية .

البحرين ، لؤلؤة الخليج

تتألف امارة البحرين المشهورة منذ القدم بمصائد اللؤلؤ من مجموعة من الجزر . وأكبر جزيرة فيها هي التي اعطت اسمها للأرخبيل ؛ والبحرين التي جعلت مقر المقيم السياسي البريطاني في منطقة الخليج ، تختلف عن جاراتها في عدة نواح .

يغطي الأرخبيل بأسره مساحة لا تزيد على خمسمائة وواحد وخمسين

كيلومتر مربع ٥ واثنتان من الجزر الخمس الصغرى مأهولة بالسكان فقط الى جانب الجزيرة الكبرى . وعلى الرغم من صغر المساحة فان البحرين لؤلؤة الخليج العربي ، تحوي مجموعة كثيفة من السكان كثيرة الحساسية مستعدة دائماً الى التظاهر . بعضها يعيش في المدن ، والبعض الآخر في القرى . والينابيع الطبيعية التي تتفجر في شمال الجزيرة الكبرى اتاحت للبحرين تطوراً زراعياً فريداً ، تكلل عام ١٩٥٧ بمظاهر لا سابق لها ، هي اول معرض زراعي في الخليج العربي ..

والسكان الذين قدر عددهم عام ١٩٥٧ بمئة وخمسة وعشرين الفاً يضمون حوالي السدس من الأجانب الذين تأتي في مقدمتهم الجاليات الايرانية ، والهندية ، والانجليزية والباكستانية . وهناك ايضاً جاليات اتت من البلدان العربية الاخرى ، وامارات الخليج . وهي متفاوتة الأهمية . وبين هؤلاء العرب نجد المثقفين الذين جاؤوا من مصر وفلسطين والعراق ولبنان وسوريا ، وهؤلاء على الرغم من قلة عددهم يتمتعون بنفوذ بارز ، والى جانبهم نرى السعوديين والعمانيين ، والقطريين ، واليمنيين ، وغيرهم ، وهؤلاء جميعاً يبدون كأنهم اندمجوا تماماً مع اهالي البحرين . وفي البحرين الفا بريطاني ، وما يقرب من خمسمائة اميركي وأوروبي ، وثلاثة اخماس السكان يعيشون في المدن الثلاث ، المنامة ، المحرق والحد . أما الباقون فموزعون على تسعين قرية ومزرعة وهناك بضعة آلاف يعيشون في مراكبهم باستمرار .

التطور الاقتصادي والنزعة القومية

البحرين بلد اسلامي اجمالاً ، وستة وتسعون بالمئة من سكانها مسلمون والصفة الرئيسية للمجتمع البحريني ، تكمن في تنوعه الطائفي ، اذ ان المسلمون منقسمون الى سنّة وشيعة ، وقد كانت هاتان الطائفتان على

مر تاريخها في نزاع مستمر . وحصلت بينها مناوشات . ويبدو الآن ان النزعة القومية ستنتصر في القضاء على الفرقة بين ابناء الطائفتين ، فتوحد بينها لمجابهـــة الأجانب الايرانيين والهنود الذين يعملون في التجارة او لحساب الشركة البترولية . واليهود اختفوا تقريباً من البحرين بعد ازدياد النقمة عليهم هناك ، على أثر قيام دولة اسرائيل على اشلاء عرب فلسطين.

وعلى الرغم من ان السنيين أقلية فهم يتصرفون كأنهم الأكثرية ، الأمر الذي يعكس وضع اليمن من الناحية الطائفية . وعائلة آل خليفة التي تحكم البحرين منذ قرنين من الزمن ، تدين بالمذهب السني . وكذلك المراكز الحساسة في البلاد كلها في يد السنيين . وأما الشيعـــة الذين يملأون المراكز الأدنى من المجتمع ، فانهم يشتكون مما يلحقهم من تمييزات مقصودة . غير أن التطور بدأ يخرج بهم عن نطاق أعمالهم في الخدمة البيتية ، على أثر تركهم الزراعة التقليدية ، وطبقـــة المثقفين « العرب التي تنعم بحظوة كبرى » تزود البحرين بجهاز تعليمي ؛ كما تزود البحرين البترولية بجهاز اداري . وهؤلاء المثقفون ، هم الذين يمكننا ان نسميهم ، كما اعتقد ، في البحرين كما في غيرها من الامارات، « رسل القومية العربية »

والقلق التقليدي في الامارة الذي كان يرافق فيما مضى اصطدامات السنّة والشيعة المتباغضين ، حوّله القوميون العرب الى نقمة عارمة ضد الأجانب ، وخاصة البريطانيين . والبحرين هي اكثر امارات الخليج اليوم اضطراماً ، . اذ ان النهضة الاقتصادية التي خلفتها الصناعـــة البترولية ، خلقت جواً مناسباً لانتشار الدعوة القومية .

وبفضل مركزها الجغرافي ، وينابيعها غير الاعتيادية ، وصناعتها اللؤلؤية القديمة وتجارتها البحرية ، عرفت البحرين في كل وقت في الخليج ازدهاراً نسبياً ، وكوم الأصداف اللؤلؤية في مياهها هي أغنى كوم في المنطقة . وحتى ظهور اللؤلؤ الاصطناعي كان نصف السكان

يعملون في الغطس وراء اللؤلؤ .

وفي غير موسم الغطس كان البحارة والغطاسون البحريون يتعاطون صيد السمك والتجارة . والصناعة اللؤلؤية اليوم هي في تقهقر مستمر في كل انحاء الخليج ، ولا تشغل في البحرين سوى الفين فقط من السكان اثناء موسم الغطس .

والتجارة البحرية وتجـارة العبور ، هي النشاط الثاني التقليدي في الارخبيل الذي يستورد ثم يصدر لجيرانه كميات كبرى من مختلف البضائع التجارية . وقـد أقيمت منشآت مرفأية جديدة في المنامة الميناء الرئيسي عاصمة البحرين ، وذلك لتسهيل حركة المبادلة . وفي أول كانون الثاني سنة ١٩٥٨ أصبح البحرين ميناء حراً هو الاول من نوعه في الخليج .

وفي الداخل يزرع الفلاحون الحبوب والعلف والنخيل والخضار . والنصف الجنوبي من الجزيرة صحراوي ، ينابيعه وبركه مالحة اذا وجدت : وتزود المدن بالمياه الحلوة المكررة من مياه البحر . وفي البحرين اربعة آلاف وستمائة وخمسون هكتاراً من الاراضي الزراعية المروية : ومزرعة « بو ديـّة التجريبية » تجري تجاربها من أجل تحسين الانتاج وادخال مزروعات جديدة .

وفي تشرين الثاني سنة ١٩٥٧ نظم اسبوع الانماء الاقتصادي وفيـه حلت مشكلة الماء عن طريق تدشين الشيخ العمل في آلة حفر مخصصة لشق أقنية لجر المياه .

شركة بترول البحرين

تفيد امارة البحرين كثيراً من عائدات الصناعة البترولية المقسمة بين الاستخراج والتكرير ، على الرغم من أنهـا أقل ثروة من جاراتها : واكتشاف البترول في البحرين هو الذي لفت أنظار الشركات البترولية

الى هذا القسم من الخليج ، كما كان اكتشاف بئر مسجد السليمان في ايران الحافز الذي جعل صيادي الامتيازات يتسابقون في الوصول الى المنطقة . وامتياز التنقيب في البحرين منح أولاً عام ١٩٢٥ للشركة البريطانية خاصة الميجور هولمز ، قبل ان تصبح عام ١٩٣٠ ملكاً للشركة الاميركية « ستندرد اويل اوف كاليفورنيا » التي أنشأت لهذا الغرض شركة كندية تابعة لها هي « البابكو » شركة بترول البحرين . واشتراك ستندرد كاليفورنيا مع تكساس أويل عام ١٩٣٤ أدّى الى تشكيل الفريق اللامع كالتكس الذي يملك ٦٠٪ من الارامكو العربية السعودية .

والبابكو شركة كندية الجنسية ، ولكنها اميركية من حيث رأس المال والادارة ، وبريطانية من حيث الجهاز الاداري .

وقد عُثر على البترول في « العوالي » جنوب غربي المنامة سنة ١٩٣٢ وبدأ استثماره منذ عام ١٩٣٤ ، وانتاجه المتواضع نسبياً لا يمكن زيادته إلا بصعوبة ، نظراً للتركيب الطبقي الارضي الذي توجد فيه جيوب البترول . وفي كل سنة يجب ان يجري العمل في عشر الى اثنتي عشرة بئراً للمحافظة على المستوى الانتاجي . وقد وصل هذا الانتاج الى حده الأعلى سنة ١٩٤٨ اذ بلغ مليون وخمسمائة الف طن في السنة ، وكان الاحتياطي البترولي في البحرين مقدراً عام ١٩٥٣ بثمانمائة مليون برميل . اما تكرير الحقل الثاني من النشاط البترولي في البحرين فقد عرف نمواً مستمراً ، مستفيداً بصورة خاصة ، من اقفال مصفاة عبادان الكبرى خلال النزاع الانجليزي الايراني (١٩٥١ — ١٩٥٤)

وقد أنشئت مصفاة البحرين عام ١٩٣٦ في سترة . ومن ستة وستين مليون برميل عام ١٩٥١ زادت طاقتها الى ثمانية وسبعين مليون برميل عام ١٩٥٤ ، أي حوالي عشرة ملايين طن . ولكن تطور منشآت العربية السعودية والكويت حدّ تقريباً من تطور مصفاة سترة . والقسم الاكبر من الخام المكرر في سترة يأتي من آبار الاحساء في أنابيب مدت

تحت الماء طولها ستة وعشرين كيلومتراً.

ومنذ عام ١٩٥٣ بدأت المصفاة تتلقى بترولاً خاماً من سومطرة . وكمية البترول الخـام التي يجري تكريرها من انتاج البحرين مستقرة تقريباً في حدود احد عشر مليون برميل في السنة ، مقابل ثلاثة وستين مليوناً من العربية السعودية .

تستخدم « البابكو » تسعة آلاف شخص ، وهي مع ازدهار الحقول المجاورة الشاسعة والنشاط التجاري المتزايد في كل هذا القسم من الخليج قد جعلت البحرين في وضع ممتاز . وتبلغ العائدات البترولية نحواً من مليونين ومائتين وخمسين الف جنيه استرليني في السنة منذ توقيع اتفاق تقاسم الارباح مناصفة عام ١٩٥٢ . وتأتي الرسوم الجمركية التي تتقاضاها الامارة في الدرجة الثانية من حيث الاهمية في العائدات المقسمة الى ثلاثة اقسام : الثلث الاول مخصص للامير وعائلته ، ويذهب القسم الأكبر منه الى الهبات التقليدية . والثلث الثاني يستثمر في أسواق المـال ويدر أرباحاً جديدة . بينما يخصص الثلث الاخير الى شراء ما تحتاجه الامارة من الخليج ، والى تنفيذ برامج التطوير الاجتماعي فيها . وقد بذل جهد خاص في السنوات الأخيرة في حقـل التعليم والصحة . وفي امكان الامارة اليوم ان تفاخر بمدارسها ومستوصفاتها ومستشفياتها الحديثة .

النزاع الانجليزي — الايراني

يعود الفضل في القسم الاكبر من التطور السياسي والاجتماعي في البحرين الى علاقاتها الطيبة مع بريطانيا ، هذه العلاقات التي تستند ، كما هي الحال في شاطىء القراصنة ، الى الاتفاق الاول المعقود سنة ١٨٢٠ بـين شركة الهند الشرقية (البريطانية) وامير البحرين آنذاك ، ثم

الاتفاقات المعقودة في الثاني والعشرين من كانون الاول سنة ١٨٨٠ ، وفي الثالث عشر من آذار سنة ١٨٩٢ . وقد ربطت شيخ البحرين بنفس القيود التي ربطت بها سائر مشايخ الخليج والتي أدت الى الاولوية البريطانية . وأخيراً في رسالتين صادرتين سنة ١٩١١ و ١٩١٤ وعد عاهل البحرين البريطانيين بألاّ يمنح أي امتياز اؤلؤي أو بترولي قبل مشورة الممثل البريطاني لديه والحصول على موافقته . والعاهل الحالي الشيخ سليمان بن حمد آل خليفة خلف أباه عام ١٩٤٢ ، وهو يحكم منذ ذلك الوقت بمساندة مستشاره البريطاني السير بلغريف .

ان أخطر معارضة لوضع البحرين السياسي تأتي من جانب ايران ، التي تطالب بالارخبيل منذ سنة ١٨٢٩ ، اذ تتهم بريطانيا باختلاس السيادة : وتوقيع معاهدة جدة البريطانية — السعودية عام ١٩٢٧ ، التي جاء في مادتها السادسة ان البحرين دولة مستقلة تربطها علاقات خاصة مع المملكة المتحدة ، أدى الى رفع شكوى ايرانية الى عصبة الامم : ووفقاً لما تدعيه طهران اعترفت المذكرة المؤرخة في ٢٧ نيسان سنة ١٨٦٩ الصادرة عن وزير خارجية بريطانيا آنذاك اللورد كلارندون اعترافاً صريحاً بحقوق ايران في السيادة على البحرين الأمر الذي تكذبه لندن بشدة .

هذا وقد كان منح الامتيازات البترولية عام ١٩٣٠ و١٩٣٤ في كل مرة موضع احتجاج شديد من قبل حكومة الشاه : وعندما قصفت ايطاليا قاعدة البحرين البريطانية في تشرين الاول سنة ١٩٤٠ احتجت ايران ، التي كانت لا تزال على الحياد ، لدى روما ضد هذا الاعتداء على أراضيها . وفي عام ١٩٤٦ عادت ايران الى مطالبتها من جديد تساندها الصحافة السوفياتية ، الامر الذي أدى كرد فعل رئيسي الى تقوية القاعدة البريطانية في البحرين . ثم جاء النزاع الانجليزي — الايراني ليبعث القضية من جديد . وفي عام ١٩٥٢ جدد الدكتور مصدق

الادعاءات الايرانية التي لم تتخل عنها حكومة زاهدي فيما بعد . وقبل الاجتماع الاول لاعضاء حلف بغداد الذي عقد في كراتشي اعلن الدكتور علي اردلان وزير خارجية ايران في السابع من نيسان سنة ١٩٥٦ في طهران بأن البحرين كانت تشكل جزءاً لا يتجزأ من ايران وتلقى ممثلو ايران الدبلوماسيون تعليمات تقضي بالاحتجاج الشديد ضد كل عمل لا يتفق مع السيادة الايرانية على البحرين . وفي الثاني عشر من تشرين الثاني سنة ١٩٥٧ اخيراً اعلنت حكومة ايران انها ضمت ارخبيل البحرين الذي اصبح الولاية الرابعة عشرة من الولايات الايرانيــة . ومنذ مدة طويلة ، فضلاً عن ذلك ، والحكومة الايرانية ترفض كل جواز سفر يحمل تأشيرة « اجنبية » للبحرين ، الامر الذي لا يتوافق مع «ملكيتها» للارخبيل . ثم عينت طهران حاكماً ايرانياً للبحرين ، وبهذا الخصوص اكتفت لندن بأن اكدت استقلال الامارة في ظل حمايتها .

لم افعل هنا سوى التذكير بالمراحل الرئيسية التي مر بها النزاع السلمي بين بريطانيا وايران بشأن البحرين . وهذا الموجز يدل حسب رأيي على اصرار ايراني عنيف في مطالبة ليس لها اي امل في النجاح في الوقت الحاضر : فلا البحرين ولا اية من الدول العربية الاخرى تقبل مثل هذا الامر وتسلّم به . والارخبيــل بالنسبة لبريطانيا هو مركز الحراسة ، وقاعدة وجودها في الخليج . ميناؤه قاعدة بحرية ، ومطاره قاعدة جوية وفي احدى مدنه المنامة مقر المقيم البريطاني السياسي لمنطقة الخليج العربي . حيث السير برنار دبوروز يسهر على مصالح بلاده : هذا وقد ادت الاحداث التي وقعت في شرقي الجزيرة العربية في عمان والبريمي الى تقوية النفوذ البريطاني في الارخبيل . وقرار « الضم » الايراني اثر حسب اعتقادي على اثر الاصرار على اعلان خلق ميناء حر في المنامة . ومهما يكن من امر ، فإن ايران قد اظهرت في هذه القضية عناداً شديداً .

النظام الداخلي

تتولى بريطانيا الممثلة بمندوب سياسي غير المقيم العام شؤون البحرين الخارجية والدفاعية ، كما هي الحال في امارات الخليج الاخرى . وفي الداخل يحكم الشيخ سلمان بن حمد آل خليفة ، يعاونه مجلس ادارة مؤلف من افراد عائلته ، ومن كبار الموظفين الانجليز وابرز مستشار بين هؤلاء السير شارل بلغريف الذي يقيم في البحرين منذ عام ١٩٢٦ ؛ والاضطرابات التي بدأت عام ١٩٥٤ باضراب عام استهدف قبل كل شيء السير شارل بلغريف نفسه . ويبدو ان انهاء خدماته في البحرين عام ١٩٥٧ جاء نتيجة للضغط الشعبي .

ويلطف من نظام الحكم في البحرين وجود مجالس للصحة والتربية ، نصف اعضائها ينتخبون انتخاباً منذ عام ١٩٥٦ . بينما يعيّن الامير النصف الآخر . ويتم تأليف المجالس البلدية في مدن المنامة والمحرق والحد ، ورفاع ، بنفس الطريقة . وهناك لجان خاصة مكلفة بشؤون اقسام خاصة من الادارة . وعلى الرغم من نظام الحكم في البحرين وما فيه من نواقص فإنه متقدم جداً على انظمة الحكم في الامارات المجاورة . ومع ذلك تزمجر المظاهرات احياناً في لؤلؤة الخليج ، وقد حصلت اصطدامات حادة عنيفـــة عام ١٩٥٦ اثناء مرور السيد سلوين لويد وزير الخارجية البريطانية في البحرين . واضطرت السلطات الى تأخير موعد سفره اربع ساعات كتدبير خاص للمحافظة على حياته من نقمة الجماهير . وفي تشرين الثـــاني سنة ١٩٥٦ كان للتدخل البريطاني المسلح في بور سعيد رد فعل مباشر عنيف في البحرين تجسد فوراً في المظاهرات الصاخبة وعرقلة الاعمال ، الامر الذي اضطر الانجليز الى الاسراع في ارسال نجدات عسكرية بطريق الجو . وقد اعتقل كثيرون من قادة حركة

المظاهرات ، كما فرضت الرقابة المشددة على الصحف : وتحوّل نظام الحكم الى نظام بوليسي.وفي كانون الثاني سنة ١٩٥٧ تجددت المظاهرات الصاخبة في مدن البحرين على اثر صدور الاحكام على عدد من القادة القوميين . ان هذا الجو السياسي القلق في البحرين يبرز المخاوف التي يبديها عادة اولو الامر في دول الخليج تجاه التطور والتقدم .

١٥

الكويت الأسطورية

الكويت هي اشهر امارات الخليج العربي ، على الاطلاق . وثروتها البترولية الهائلة ، وتطورها البالغ السرعة يجعلان من العسير ، ان لم يكن من المستحيل ، التحدث عنها دون استعمال الفاظ التفضيل والمبالغة : لقد غمرت الثروة الكويت كالوباء . ولم ينج شخص تقريباً من غنغرينـا الذهب . والاساطير العربية المذهلة تبدو هزيلة باهتة ، ومغامرات علاء الدين عقيمة صغيرة امام « المعجزة » الكويتية . وقد جمع اميرها ، المهراجا الحديث ، عام ١٩٥٦ بالدولار والسترليني ما يوازي اربعمائة مليون فرنك يومياً ، وانتاج البترول ينتظر ان يزيد ثلاثة اضعاف في السنوات الخمس القـادمة : ان مساحة الكويت اصغر بمئة مرة ، من مساحة العربية السعودية ومع ذلك تنافسها على المركز الاول في احتياطي بترول العـالم . وهي صحراء مستوية دون ماء عذب ولا زراعة ، تشبه اسفنجة مشبعة بالبترول : ويروى عن بترول الكويت هذه الظرفة النادرة التي شاعت في انحاء المعمور :

في عام ١٩٥١ توجه مبعوثو أمير الكويت الى الولايات المتحدة الاميركية ، لشراء تجهيزات خاصة لتكرير مياه البحر . وقد شده الاميركيون آنذاك اذ كيف يمكن ان يعيش بشر في بلد محروم من المياه العذبة ، فنصحوهم قائلين :

— ولكن ، افعلوا شيئاً ما ، احفروا آباراً ؟

فأجاب المبعوثون الكويتيون مكرهين : ان هذا أمر مستحيل ، وما ان نحفر في الأرض بحثاً عن الماء ، حتى نعثر على البترول .

قد تكون هذه الرواية صحيحة او مختلقة ، ومهما يكن فهي توجز حكاية الكويت وطن الذهب الاسود الاسطوري ، الذي لم يعد يعيش الا بالبترول ومن أجل البترول . وحول مرفأ طبيعي صغير على الخليج الهادىء الازرق ، تحول البحارة اليائسون ، وصيادو السمك، في ظرف عشر سنوات الى تجار ، ومقاولي بناء ، ورجال أعمال . وأصحاب الكفايات المحدودة منهم يعملون لحساب الشركة البترولية او الشركات الخاصة ، بأجور خيالية . ومدينة الكويت العاصمة القديمة هدمت كلها تقريباً وأقيم مكانها مدينة حديثة بأبنية بيضاء فخمة ، وشوارع عريضة مستقيمة . وعلى الشوارع العريضة الجميلة ، المزفتة ، التي حلت محل طرقات القوافل القديمة ، تسير متهادية سيارات البويك والكاديلاك التي أرغمت الكويتي على ان ينسى الجمل . والماء العذب، هذا السائل النادر الثمين ، الذي كان يستورد من العراق ، يسيل الآن من الحنفيات المنكّلة في بيوت مكيفة بالهواء . واللافتات الضوئية التي تفترس الليل بأنيابها المختلفة الألوان تذكر بمحطة سان لازار او بيكاديللي اكثر مما تذكر بسوق شرقي .

لقد جعلت الظروف الاستثنائية ، الكويت أكثر بلدان الشرق تقدماً، وفيه تحدث تجربة اجتماعية خيالية يعيش فيها الانسان خلال بضع سنوات عصوراً طويلة من التطور .

بحّارة وبناة مراكب

يتجمّع سكان الكويت بصورة خاصة ، على الشاطىء ، حول الجون الجميل . وتضم مدينة الكويت حوالي مئة وعشرين الف نسمة ، على الساحل الجنوبي من الجون . وهناك ثمانون الى مئة الف آخرين موزعون في عدد من القرى والمراكز البترولية . والى الجنوب من الجون الطبيعي أنشىء ميناء الأحمدي ، المرفأ البترولي . ومركز الكويت ، في الزاوية الغربية من الخليج جعلها الباب الطبيعي لبلاد ما بين النهرين ، ولشمالي الجزيرة العربية . ومنذ مدة أعلن العراق رغبته في إنشاء ميناء بترولي ، ولكنه اصطدم بمعارضة وحذر أمير الكويت ، نظراً للاطماع التوسعية القديمة التي دغدغت مخيلة حكام العراق . وحدود الكويت معينة بموجب بروتوكول العقير . وهي تفصلها عن جارتيها الكبيرتين العراق والعربية السعودية ، وبسبب ذلك تركت مساحة مستوية صحراوية يرتحل فيها حوالي عشرة الى عشرين الف بدوي محايدة بين الدول الثلاث . وهذه البقعة المحايدة مقسمة الى منطقتين الاولى الى الجنوب من الكويت ، والثانية في الداخل من الوراء . المنطقة المحايدة الجنوبية للخليج بين الامارة والاحساء تخضع للسيادة المشتركة السعودية والكويتية . وقد سبق لي وأشرت الى الدافع المصلحي الوحيد في هذه المنطقة ، الا وهو الاستثمار البترولي . وحقوق الكويت في المنطقة ، مُنحت للمؤسسة البترولية الاميركية المساة (امينويل) التي تضم عشر شركات بترولية اميركية « مستقلة » ، تعمل في تعاون مع شركة جيتي للبترول ، صاحبة الامتياز الممنوح من الجانب السعودي .

والكويتيون الاصليون كلهم عرب ومسلمون سنيون . وهناك الف ايراني يقيمون في العاصمة الكويتية منذ القرن الثامن عشر . ولم تتعرض

الامارة الى أشكال النفوذ الاجنبي الظاهرة في «الدول المحمية» الأخرى من الخليج . والمركز الجغرافي الفريد للجون الطبيعي ، على شاطىء الخليج كان الحافز الى تأسيس الدولة- المدينة التي حملت اسم الكويت. كما كان لمدة طويلة العامل الذي يقرر لون النشاط الذي تزاوله أكثرية السكان ، بين بحارة ، وغطاسي لؤلؤ وبناة مراكب فريدة من نوعها ؛ ومنذ بدء عهد البترول وهذه المهن القديمة تتلاشى ، والسكان الاصليون يختلطون بالمهاجرين العرب الذين جاؤوا من مناطق الخليج الأخرى او من البلاد العربية الاخرى كالعراق وسورية ولبنان وفلسطين ، لا سيما بطبقة المثقفين العرب .

في الماضي كان الكويتيون يميلون بصورة خاصة الى مهن البحر : وهم مشهورون بالشجاعة والمهارة في صنع المراكب البحرية . بسبب ذلك تخصص هؤلاء الغطاسون وراء اللؤلؤ والصيادون الذين يعملون في في مواسم معينة ، منذ وقت طويل بشؤون التجارة البحرية بين الخليج العربي وبلدان المحيط الهندي في آسية وافريقية . وكانوا يحملون في الذهاب تمور البصرة السكرية ويعودون ، في الاياب بأحمال الاخشاب التي كانوا يستخدمونها في بناء مراكبهم السريعة التي تبلغ حمولتها مئات الاطنان . وهذه المراكب المشهورة من بومباي الى زنجبار ، في المحيط الهندي كله ، وحتى في البحر الأحمر ، هي مجال افتخار الكويتي ٥ وعندما رغب الأمير السابق ان يكون له يخت فضل ان يجري بناؤه في الورش المحلية دون الخارج . وما زال استيراد خشب المالابار مستمراً ، غير ان صناعة بناء المراكب ، كصناعة اللؤلؤ ، هي في تقهقر مستمر .

وليس في الكويت المحرومة من المياه ، عملياً ، اية زراعة ، جميع المواد الغذائية يجب ان تستورد من الخارج . أما المياه العذبة ، فيكررها من مياه البحر ، مصنعان يعملان ليلاً نهاراً . في السابق كان الماء العذب

يستورد في مراكب من شط العرب في العراق، على مسافة ثمانين كيلومتراً من الكويت . ومن خزانات خشبية محملة على عربات ، كان الماء يباع على الابواب في قرب من الجلد . وجر الماء من شط العرب بدأ منذ بدأت موجة الازدهار الغريبة التي أصابت الأمارة . وهذا المشروع في حال انجازه يوفر امكانية تطوير زراعي محدود . ولكن هنا لا بد من ان نتساءل : من يريد ان يكون فلاحاً في بلاد اصحاب الملايين هذه ؟

منذ الآن ، تواجه الشركة البترولية صعوبة كبرى في المحافظة على الجهاز العامل الذي تكونه من الوطنيين ، اذ ان من السهولة في الكويت جمع ثروة ، الأمر الذي يجعل الافراد الاكفاء يفضلون تجربة حظهم في العمل الحر . وهذه المشكلة لا تقتصر على الكويت وحدها ، بل تشمل جميع المناطق البترولية في الخليج .

شركة بترول الكويت

منح الامتياز البترولي الذي يشمل الاراضي الكويتية كلها عام ١٩٣٤ ومدته خمس وسبعون سنة لشركة بترول الكويت . والاتفاق الجديد من اجل اقتسام الارباح الموقع عام ١٩٥١ ، يجعل مــدة الامتياز خمساً وسبعين سنة ابتداء من كانون الاول سنة ١٩٥١ ، وشركة بــترول الكويت المسجلة في كندا احتراماً للنفوذ البريطاني ، تتألف مناصفة من شركة دارسي الكويتية للبترول احدى توابع شركة البترول البريطانية ومن شركة بترول خليج الكويت ، احدى توابع الشركة الاميركية الكبرى ، شركة «الغولف» أي الخليج . ومبدئياً ، ومع ذلك تستعيد كل من الشركتين حريتها في العمل بمجرد خروج البترول الخـام من حدود الامارة .

بعد سلسلة من اعمال التنقيب غير المجدية ، عثر على أول جيب

بترولي عام ١٩٣٨ ، ومنذ اللحظة الاولى بدأ الحوض يعطي بترولاً هو من حيث التركيب أفضل ما في العالم . ما من بئر في الكويت يتجاوز عمقه الف وخمسمائة متر . وظروف الاستخراج ، على العموم ، تمتاز بأنها غير مكلفة . وقرب الحقل البترولي من البحر ، الذي يتيح ايصال البترول الخام الى الشاطىء بدون ضخ ، هو ميزة اخرى اضافية . وعلى الرغم من كل ذلك لم يبدأ الانتاج التجاري إلا سنة ١٩٤٦ بسبب الحرب العالمية الثانية ، وقد وصل بسرعة الى ارقام قياسية . وامكانيات الكويت الهائلة في هذا الحقل وضعت موضع التجربة خلال الازمة الانجليزية — الايرانية ، وتوقف الشركة الانجليزية — الايرانية احدى توابع شركة البترول البريطانية ، عن الانتاج في ايران ، على الضفة الاخرى من الخليج .

التقدم الحيالي

في حزيران سنة ١٩٤٦ ، خرجت أول شحنة من بترول الكويت الخام في طريقها الى اوروبا . والثمانمائة الف طن المستخرجة في تلك السنة عادت على الامير بمبلغ ثمانمائة الف دولار . وفي سنة ١٩٥٠ بلغ الانتاج سبعة عشر مليوناً وثلاثماية الف طن وارتفعت العائدات الى اثني عشر مليوناً واربعمائة الف دولار . ثم جاء عام ١٩٥١ الاتفاق الجديد الذي يقضي بتقاسم ارباح البترول مناصفة بين الامارة والشركة . وفي سنة ١٩٥٦ ، على الرغم من هبوط الانتاج الذي سببته أزمة السويس، وصل الرقم الى خمسة وخمسين مليون طن ، وقد عادت هذه الكمية على الامير بمبلغ ثلاثمائة مليون دولار ، يضاف اليها ايجار وعائدات المنطقة المحايدة . وفي السنين المقبلة تسعى الشركة لمضاعفة الانتاج حتى يصل عام ١٩٦٢ الى مئة وثمانين مليون طن ، أي ما يوازي انتاج الشرق الاوسط لعام

١٩٥٦ بأسره . والانقلابات الجذرية العامة في الكويت تقوم على أساس هـذه الارقام : من ٨٠٠،٠٠٠ طن الى ٥٥،٠٠٠،٠٠٠ طن ارتفع الانتاج في عشر سنوات كما ارتفعت العائدات في نفس الحقبـة . من ٨٠٠٠،٠٠٠ الى ٣٠٠،٠٠٠،٠٠٠ دولار . وينتظر ان تضرب هذه الارقام بثلاثة علي الاقل في السنوات الخمس المقبلة .

ويبين الجـدول التالي بالارقام القفزات الجبارة التي سجلها الانتاج البترولي في الكويت منذ عام ١٩٤٦ :

١٩٤٦	٨٠٠،٠٠٠	طن
١٩٤٧	٢،٢٠٠،٠٠٠	»
١٩٤٨	٦،٣٠٠،٠٠٠	»
١٩٤٩	١٢،٤٠٠،٠٠٠	»
١٩٥٠	١٧،٣٠٠،٠٠٠	»
١٩٥١	٢٨،٢٠٠،٠٠٠	»
١٩٥٢	٣٧،٦٥٠،٠٠٠	»
١٩٥٣	٤٣،٣٠٠،٠٠٠	»
١٩٥٤	٤٧،٧٠٠،٠٠٠	»
١٩٥٥	٥٤،٧٥٠،٠٠٠	»
١٩٥٦	٥٥،٠٠٠،٠٠٠	»
١٩٥٧	٥٧،٣٠٠،٠٠٠	»

هذا ويجب التذكير انه لا يمكن اعتبار سنتي ١٩٥٦ — ١٩٥٧ سنتين عـاديتين ، بسبب التدخل المسلح في بور سعيد : والكويت ، كسائر امارات الخليج ، واجهت بعض العراقيل . وتعذر وصول ناقلات البترول المفاجيء ، بصورة خاصة ، هو الذي جعل الانتاج في شهر تشرين الثاني سنة ١٩٥٦ يهبط الى النصف . ولم يعـد المعدل الشهري الى مستواه الوسطي إلا ابتداء من شهر حزيران سنة ١٩٥٧

قدر احتياطي البترول في الكويت في سنة ١٩٥٣ بثمانية عشر مليار ومائتين مليون برميل ، ١٥٪ من احتياطي العالم غير الشيوعي . وفي عام ١٩٥٥ قُدِّر هذا الاحتياطي بخمسة وعشرين مليار برميل . والحقول الجديدة المكتشفة حديثاً في الشمال ، التي لم يجر تقدير غناها بعد ، تضيف على هذا الرقم عدداً محترماً من ملايين البراميل .

ويقع الحقل الرئيسي على مسافة تناهز أربعين كيلومتراً الى الجنوب من مدينة الكويت ، وفيه تستثمر اليوم آبار برقان ومقوع . ومنذ سنة ١٩٥٦ حصلت الشركة على نتائج مشجعة بحفرها آباراً تجريبية في منطقة نائية في الشمال . وتوجد المنطقة البترولية الجديدة ، مقابل المنطقة الاولى بين الجون والحدود العراقية . وبعد النتائج المشجعة التي أحرزت في الردهتين ، انتقل عمال الحفر الى « صبرية » الواقعة جنوب النقطة الاولى ، ثم الى بحرة في الجنوب الشرقي ، وأخيراً الى مطربه في الشمال الغربي . وشكلوا بعشرات الآبار التي حفروها نوعاً من الدائرة ، قصد منها تحديد الحقل الجديد . وفي نهاية سنة ١٩٥٨ وعام ١٩٥٩ أعطى هذا الحقلُ الجديد عدة ملايين من الاطنان الاضافية . وينتظر ان تربط هذه المنطقة بخط أنابيب مع الشاطىء .

وتقوم مراكز التخزين والمكاتب الادارية للشركة في الاحمدي ، على مسافة بضعة كيلومترات من حقول الانتاج في برقان ومقوع . ويضخ البترول الخام حتى خزانات الاحمدي ، حيث يمكن ايصاله بسهولة فائقة الى ميناء الاحمدي البترولي احدث الموانىء البترولية في العالم . وهنا ايضاً تقوم مصفاة تكرير تعمل لسد الحاجات المحلية وتزويد الناقلات العاملة في الخليج بما يلزمها من وقود . وطاقتها السابقة التي كانت في حدود مليون وخمسمائة الف طن ، رفعت عام ١٩٥٨ الى ثمانية ملايين وخمسمائة الف طن . وتجهيزات التعبئة الموجودة في ميناء الاحمدي هي أحدث تجهيزات من نوعها وتستطيع ان تعبىء في بضع ساعات أكبر

ناقلات البترول العاملة اليوم في العالم . مع العلم بأن الجهاز الآلي قد خفض الى بضعة رجال من العمال اللازمين لتأمين هذه العمليات المستمرة ليلاً نهاراً . ويستطيع ميناء الأحمدي ان يعبىء أكثر من مليون برميل من البترول الخام في اليوم ، أي ما يمثل الى حد بعيد الرقم القياسي في العالم في التعبئة الخام . وفي عام ١٩٥٤ عبأ ميناء الكويت البترولي وصدّر أكثر من خمسة وأربعين مليون طن من البترول الخام على متن الفين وأربعمائة وسبع وتسعين ناقلة ، بمعدل سبعين ناقلة في اليوم . وعلى الرغم من تطوير وتحسين الموانىء والمصافي البترولية المجاورة ، ما زال ميناء الأحمدي في الطليعة من حيث الأهمية .

وتستخدم شركة بترول الكويت ، مباشرة ، مع وجود الوسائل الآلية في مشروعاتها اكثر من ثمانية آلاف شخص ، بينهم ألف من الأوروبيين والأميركيين . واستخراج البترول يفتح أبواب العمل والربح أيضاً أمام قسم كبير من السكان . والنشاط المتزايد في مجال البناء والأشغال العامة ، والتوسع التجاري الذي تبع ازدياد الطلب في كل الحقول ، هما وراء اثراء متفاوت الدرجات . والكويت بالاضافة الى ذلك تعتبر مركزاً للتخزين . وتجارة العبور تنقل بواسطة المواد والمنتوجات الصادرة عن داخل الجزيرة العربية او الواردة اليها . وحركة الاستيراد والتصدير هي حركة تجارة خارجية متزايدة النشاط باستمرار . وفضلاً عن البترول تصدر الكويت الصوف والجلود واللؤلؤ . كما تبيع المراكب الى جاراتها امارات الخليج الاخرى . وتشمل الواردات المواد الغذائية بمختلف انواعها ، والأدوات والتجهيزات المصنوعة : اي ان الكويت الغنية تستبدل بذهبها الأسود مختلف انواع المنتوجات . ومنذ عدة سنوات ، وحجم الواردات في تضخم مستمر ، وتقتسم الولايات المتحدة الاميركية مع بريطانيا القسم الأكبر من هذه المبيعات المختلفة .

الدولة المثال

لقد ساعدت الاتفاقات البترولية الجديدة على مضاعفة السرعة في التطورات المذهلة التي تحصل في الكويت ، في الوقت الذي يقفز الانتاج فيه قفزاً عدة ملايين طن كل عام . وابتداء من سنة ١٩٥٣ كان على عائدات الامارة ان تصل الى نصف الأرباح التي حققتها الشركة . ونتيجة لهذه الاتفاقات الجديدة عام ١٩٥١ نشأت ضريبة « بترولية » تحسب قبل حسم ضريبة الدخل المدفوعة في بلد المنشأ ، بطريقة تتيح للكويت ان تستأثر بنصف الأرباح العامة . انه النظام الذي اطلق عليه بسماجة التعبير الأميركي « فيفتي — فيفتي » (نصف — بنصف) . وهذه الاتفاقات قابلة لاعادة النظر فيها ، فيما لو حصلت البلدان الرئيسية الأخرى المنتجة للبترول على شروط افضل .

وتستخدم هذه العائدات الطائلة التي يتلقاها الأمير ، بتعقل . والشيخ عبد الله السالم الصباح كحاكم فرد واع ، قرر ان يجعل من امارته مثالا للدولة الحديثة . لذلك وظف قسماً من العائدات البترولية في أسواق المال بقيم ثابتة متوسطة وطويلة المدى وتشرف على ذلك ادارة انشئت خصيصاً لهذه الغاية . وهذا العمل يحول الى مورد جديد عائدات البترول المستخرج من آبار قد تجف غداً . وبعد تخصيص قسم من العائدات لأفراد اسرة الأمير ، والهيئات التقليدية ، ونفقـات الادارة ينفق القسم الأكبر من العائدات في مشروعات ضخمة . وأصدق مثل على هذه المنجزات التي تحدث انقلابات في مستوى معيشة الكويتيين ، هو مصانع تكرير مياه البحر التي كلفت عشرات الملايين . وبعد ما أصبح الأمير في حل من التبعية للعراق من أجل ماء الشفة ، قبل ان تجر مياه شط العرب الى الامارة في قناة طولها مئة كيلومتر . لقد وفق الأمير ولكن بتكاليف

باهظة الى ان يجعل عاصمته أحدث عاصمة في العالم ، بعد ان امر ببنائها من جديد وزوّدها بشوارع وطرقات وميناء ومطار ، ومستشفيات ومدارس وشبكات لتوزيع المياه العذبة والغاز والكهرباء ، ومجارير ، وتكييف هواء وبهذه الوسائل كلها حوّل المدينةالصغيرة القديمة الفقيرة القائمة على الرمال الى جنة في منطقة الخليج .

وقد بذل الشيخ جهداً خاصاً لتمويل مشروعات الخدمات الصحية والتربوية . والامارة التي لم يكن فيها سوى مستشفى حقير قبل عهد البترول ، اصبحت مضرب المثل في التقـدم الصحي ، ومقصد سكان البلدان المجاورة يأتونها للاستشفاء . وفيها اليوم خمس مستشفيات مجهزة بأحدث الآلات انشئت مؤخراً وهي تعمل باشراف جهاز ضخم من الأطباء والممرضين جيء بهم من البلدان العربية المجاورة . وفي الوقت نفسه أحـدث خمسة وعشرون مستوصفاً توزع عنايتها المجانية ، في مختلف انحاء الامارة كما ان شركة بترول الكويت تملك أجهزتها الصحية الخاصة من مستشفيات ومستوصفات .

والتعليم الذي انتشر كثيراً ، هو الآخر مجاني تماماً كالخدمات الصحية. انهما مظهران مميزان في هذه الدولة المثال ، وقليلة هي الدول التي تفوز بمثلهما . في الكويت يلبس التلامذة ويأكلون ويعتنى بهم مجاناً خلال كل مدة الدراسة . وفي أقل من عشر سنوات ، استطـاعت الامارة ان تجعل التعليم في متناول ٩٥ ٪ من أبنائها الذين هم في سن الدراسة . وأنشأت لذلك خمساً وخمسين مدرسة للتعليم الابتدائي والثانوي والتكنيكي يدرس فيها اكثر من ألف مدرس . وهناك عشرون الف تلميذ من بنين وبنات ؛ كما تدل الاحصاءات الرسمية لعام ١٩٥٧ . وعلاوة على ذلك تابع مئات الشبان الكويتيين دراساتهم العالية في الخارج ، على حساب الدولة ، في مصر وبريطانيا . وهناك ايضاً منح للدراسات التكنيكيـة توزعها الشركة التي لها مراكزها الخاصة بها للتعليم التكنيكي والاعداد المهني .

ظلال في اللوحة

ان هذا التقدم الملحوظ في الكويت يحمل معــه بذور الانقلابات الجذرية التي ستحصل في المستقبل . لقد اضطرت الكويت كبلد صغير يعيش في ظروف اجتماعية واقتصادية غير متكافئـــة ان تلجأ في كل الميادين الى فنيين واختصاصيين غرباء . وجهاز التعليم مثلاً يضم نسبة كبرى من المصريين والفلسطينيين . وهؤلاء يشكلون « دعـــاة » للقومية العربيـــة في الكويت . وعندما يكون اعداد الأجيال القادمة في بلد ما ، في عهدة اشخاص ثوريين في تفكيرهم ، فقل عندئذ على الأنظمة القديمة القائمة السلام . والشبيبة الكويتية التي اعتنقت الفكرة الحديثـــة للقومية العربية ، تنظر باحتقار لتلك الحدود التي تحيط بهذا المربع الرملي الذي يحكمه الشيخ العجوز ، وهي لا ترى في الاديولوجية القومية اية اطماع . وهذا الخطب الفاضح المقبل بالنسبة للعرب من العسير جداً تلافيه : ومهما يكن فان الحكم الاستبدادي المتفتح ، في الكويت ، هو في المستقبل في طريق الزوال ، ولكننا ما زلنا نجهل كيفية زواله . في عام ١٩٥٧ صرح رجل أتاحت له أعماله ان يعرف أوضاع الكويت عن كثب ، ان الكويت ستثور بعد عشر سنوات . ويمكن ان تكون الفترة اللازمة للثورة أقصر مما قدرها ، هذا الرجل المطلع ، ولكن السؤال الرئيسي الذي يخامر الأذهان ، قبل كل شيء يستهدف معرفة الجهة التي ستندلع ضدها هذه الثورة .

ان الكويتيين مشغولون دائماً بالاعمال وجمع المال ، لذلك لم يعيروا كبير اهتمام مغريات القومية العربية . والرأسماليون الكويتيون الذين وظفوا رأسمالهم في البلاد العربية اتخذوا مبدأ عاماً لهم كالألمان « الاعمال قبل السياسة » . ولكن العمال والمثقفين ، وصغـــار البورجوازيين اصبحوا

اكثر تحسساً بالدعاوة ضد بريطانيا ، التي يقودها احمد سعيد بمهارة من راديو صوت العرب في القاهرة . ان رباط التبعية الذي يربط الكويت ببريطانيا لا يختلف عن الروابط المماثلة في سائر انحاء الخليج . وهذا الامر ، يغذّي الحركة القومية ، ويزوّد الدعاوة العربية بما تحتاجه من مستندات لمهاجمة بريطانيا والاستعمار . وقد كان من بين النتائج الوخيمة للعدوان على بور سعيد ، تخريب بعض المنشآت في شركة البترول في الكويت. ان الامير يفضل ان يبقى مستقلا عن العراق والعربية السعودية وسائر البلدان العربية الاخرى . واليوم كما كان الامس ، هو في امس حاجة الى الحماية البريطانية . ولكن هذه الحماية تحمل بذور ضعفها معها.

الحماية البريطانية

ولدت مدينة الكويت في القرن الثامن عشر ، وقد بنتها قبيلة «عتيبة» القبيلة البدوية التي جاءت من داخل الجزيرة وقد استهواها موقع الجون الممتاز وفي عام ١٧٩٣ ، فتح التجار الانجليز مستودعاً لبضائعهم فيها ، وفي عام ١٨٢١ ، اقام ضابط سياسي بريطاني في جزيرة فيلقـــه مقابل الجون .

وفي سنة ١٨٢٩ دخلت الكويت في نطاق الامبراطورية العثمانية لتصبح ، امارة مستقلة بموجب اعتراف من الباب العالي عام ١٨٨٨ ، ومن بريطانيا نفسها عام ١٩١٤ . واسرة الصباح التي تحكم الكويت نجدية الأصل ، وقد جاءت هذه المنطقة سنة ١٧٥٦ .

وعلى الرغم من ازدياد النفوذ البريطاني في اواخر القرن التاسع عشر ، حاولت تركيا ان تحتل الامارة عام ١٨٩٨ ، وخوفاً من مطامع السلطان العثماني ، عقد امير الكويت مع بريطانيا معاهدة الثالث والعشرين من كانون الثاني ١٨٩٩ ، التي تشبه الى حد بعيد المعاهدة المعقودة ، سنة

١٨٩٢ بين بريطانيا والبحرين : وتنص هذه المعاهدة بالنسبة للموقعين عليها على نفس البنود التي وردت في المعاهدات الاخرى المعقودة مع سائر امارات الخليج : وبموجبها تعهدت الكويت بعدم اقامة اية علاقات مع اية دولة اجنبية ، وبعدم التصرف عن اية طريقة كانت بأي قسم من اراضيهـــا دون موافقة الحكومة البريطانية . وفي عام ١٩٠٤ عينت بريطانيا أول مندوب سياسي لها في الكويت .

وفي الرسائل المتبادلة عام ١٩١١ و١٩١٤ ، تعهد الامير ، من ناحية اخرى بعدم منح اي امتياز بترولي أو لؤلؤي قبل الحصول على موافقة الحكومة البريطانية على ذلك . وقد تحدّد مركز المملكة المتحدة بالنسبة للأمارة في المذكرة المتبادلة في الثالث من تشرين الثاني سنة ١٩١٤ ، حيث وعدت الحكومة البريطانية بتقديم كل مساعدة للأمير واعترفت باستقلال الامارة في ظل الحماية البريطانية :

ويجب الاعتراف ان هذه الحماية هي التي ابقت الامارة مستقلة ، على الرغم من الغارات والهجمات والضغط الشديد من قبل العراق والسعودية سنة ١٩١٩ و١٩٢٢ و١٩٢٨ .

وقد عُينت حدودها بفضل الجهود البريطانية التي بذلها مندوبوها في مؤتمر العقير بين كانون الاول ١٩٢٢ وكانون الثاني سنة ١٩٢٣، وكان عبد العزيز سعود لا يزال في ذلك الوقت مرتبطاً بمعاهدة سنة ١٩١٥ ، والنفوذ البريطاني على اشده في الرياض عن طريق جون فيلبي : وفي ذلك الحين كان العراق وشرقي الاردن خاضعين للأنتداب البريطـــاني والسلطة فيهما لم تكن في ايدي حكامها العرب ، وكانت الادارة المدنية الهندية ، والخارجية البريطانية تتنافسان في حماية مصالحها الخاصة. وبالنسبة للكويت بقي الاستقلال الداخلي محافظاً عليه ، وعهد بشؤون الخـــارجية والدفاعية الى بريطانيا الدولة الحامية .

تسلم الامير الحالي الشيخ عبد الله السالم الصباح الحكم بعد ابن عمه احمد الجابر الصباح ، عام ١٩٥٠ . وفي عام ١٩٥٤ ، عند عودته من اوروبا حيث زار لندن وباريس وروما ، كاد الشيخ عبد الله السالم ان يذهب ضحية انقلاب اعده احد اقاربه الشيخ عبد الله المبارك مدير الشرطة. اذ ان هذا الاخير بسبب ميله الى التطور كان قد قرّر ان يستولي على السلطة . واستجابةً لذلك انطلق الأمير الحاكم في طريق العمل دون ابطاء ، ولم يترك سبباً للمعارضة واستتب له الأمر من جديد بعد اجراء مصالحة عامة . والنتيجة الرئيسية لهذه الحادثة العارضة كانت مضاعفة نفوذ عبد الله المبارك في الامارة . وذلك لأن الامر على الرغم من النظام الفردي يستعين مبدئياً بمجلس استشاري لأدارة الامارة يتألف من ابناء العائلة الحاكمة ، الذين يتولون مسؤولية الدوائر الوزارية المختلفة وفي هذه الحكومة الارستقراطية يعلو صوت مدير الشرطة العام ويبدو هو المسيطر .

ان نظام الحكم في الكويت نظرياً ملكي دستوري وقد سبق للأمير ان أنشأ في حزيران سنة ١٩٣٨ مجلساً تشريعياً استشارياً . ولما اعلن بعض اعضائه ميلهم الى الانضمام الى العراق ، اسرع الامير الى حله قبل ان يفلت الزمام من يده . والمحاولة الثانية التي جرت سنة ١٩٣٩ أدّت الى النتيجة ذاتها فحل المجلس ، والقي بالزعماء المحرضين في السجن بينما انفجرت في انحاء الامارة اضطرابات دامية . عندئذ سن الامام دستوراً جديداً يقول بوجوب تشكيل مجلس تشريعي آخر من عشرين عضواً ينتخب نصفهم والنصف الآخر يتم انتقاؤه بطريقة التعيين ولكن هذا الدستور لم ينفذ مطلقاً .

كان يوجد في الامارة ، فيما مضى ، تيار قوي من اجل الانضمام الى العراق وكان يوجهه جماعات من الطلاب الذين تلقوا علومهم في المدارس العراقية. والمعارضة الشديدة لحكم الامير الفردي ، كانت تدار من الاراضي العراقية على يد جمعية عرب الخليج التي تأسست في البصرة في كانون الثاني سنة ١٩٣٩ .

لقد كانت مطالب المعارضة تنحصر في نطاقي الاجتماع والاقتصاد ، وكان من مصلحة الكويت الفقيرة آنذاك ان تتحد مع العراق : وقبيل الحرب العالمية الثانية كانت الامارة ممزقة بين تيارين متناقضين هما انصار الامير الحريصون على استقلال امارتهم ، وانصار المعارضة المطالبـــون بالانضمام الى العراق .

اثر ذلك ، بدأ عهد البترول الذي حول الكويت الى بلد الاساطير والثروات والسحر ، ونتيجة لهذا التطوير اصبح الطلاب رجال أعمال في وطن منظم يعطي اصدق مثال للازدهار المنقطع النظير : وليس هناك ما يشير الى ان هذا التقدم الشامل السريع في حقل الاجتماع والبحبوحة والثروة التي اصابت الجميع تقريباً اقتصاد ثوري عنيف .

ان المشكلات السياسية في الوقت الحـــاضر ليست اساسية ومستعجلة ولكنها قد تصبح كذلك بسرعة . واهم العوامل الرئيسية لذلك هو هذا العداء الذي تتزايد حدته عند العرب ضد بريطانيا :

وبالنسبة لهذا البلد الاخير يعتبر الابقاء على نفوذه في الكويت اكثر الامور اهمية ، ويظهر ذلك جلياً في سياسته الشرقية. ان الامارة الصغيرة تزود المملكة المتحدة بنصف حاجتها من البترول . وهذا السائل الحيوي، يدفع ثمنه بالجنيهات السترلينية في الكويت ، الامر الذي يوفر على الخزينة البريطانية مبالغ طائلة من النقد النادر . وعلاوة على هذا الوفر ، تزود الكويت خزينة بريطانيـــا بمبالغ طائلة من النقد النادر . وارباح الامير المحولة الى نقد نادر تودع في مصارف لندن ، وما من احد في سوق

لندن يجهل ان مجلس التوظيف الكويتي هو افضل مشتر فردي . والاعمال الكبرى التي تنفذ في الامارة ، تشترك فيها عدة شركات اجنبية، اكثرها بريطانية ؛ وشركة البترول البريطانيـــة التي تملك نصف شركة بترول الكويت (لها صوت راجح فيها) تشرف عليها حكومة لندن من خلال الأسهم العائدة للامبرالية البريطانية ، واهم مصالح هذه الشركة التي توزع نشاطها في شتى انحاء العالم متجمعة في الكويت ، وهذا الوضع لغريب الشاق يجعل اكبر الشركات البريطانية واحدى اكبر الشركات الاحتكارية في العالم تحت رحمة وضع سياسي قد يحمل الكثير من المفاجآت؛

ولذلك نرى مديريي شركة البترول البريطانية بالغي الحذر ، شديدي التأثر بالسياسة البريطانيـــة في منطقة الخليـج ، لأن الامتيازات البترولية الاخرى تخص شركة بترول العراق ، التي تملك شركة البترول البريطانية الرسمية ٢٣،٧٥٪ من اسهمها . وفي عام ١٩٥٦ بلغ انتـــاج الشركة البريطانية للبترول في العالم تسعة واربعين مليون طن، اكثر من نصفها — سبعة وعشرين مليون طن — جاءت من الكويت وحدها . ان الوجود البريطاني مهدد من الداخل والخارج علناً في كل منطقة الخليـج . لذلك هو موضع بحث من جديد وقد بينت ان الخروج من هذه المنطقة غير وارد بالنسبة لبريطانيا . والمسؤولون عن السياسة البريطانية في هذه المنطقة يميلون اكثر فأكثر الى اجراء تعديل جذري عليها تجاوباً مع تطور الاحداث والزمن ؛ ولكن مناهضي النفوذ البريطاني سواء كانوا مصريين أو سعوديين أو سوفياتيين أو اميركيين يخطئون في الحساب بكل تأكيد واذا كانوا لا يضعون في حسابهم ، ما قد تلجأ اليه بريطانيا اذا ما تضايقت ومن يدري فقد تحارب بضراوة الوحش المفترس الجريح للابقاء على نفوذها ووجودها في الخليـج الذي لا تستغني عن بتروله . ان الخليـج بالنسبة لبريطانيا هو كالجزائر بالنسبة لفرنسا على الصعيد العملي الحياتي.

وفي الوقت نفسه اتصلت بعدد كبير من البريطانيين ذوي النظر الثاقب

المطلعين على شؤون بلدهم في الشرق الاوسط ، لمعرفـة ما اذا كانوا مقتنعين مثلي باستحالة الاستمرار في تطبيـق السياسة الاستعمارية القديمة، ان حدود المملكة المتحدة هي في الخليـج العربي بين الكويت ومسقط، وحدود الامبراطورية لم تكن يوماً معرضة لأخطار مداهمة كهذه واذا ما استمرت بريطانيا في تطبيق الاساليب التي ادت الى قوتها في القرن التاسع عشر فانها تعرّض نفوذها للتلاشي في المنطقة ازاء القوى الجديدة التي لم تعد تملك قدرة السيطرة عليها :

القسم الخامس

الجزيرة العربيّة في العالم

١٦

صاحب الجلالة البترول

كان من الممكن ان تكون سنة ١٩٥٧ حاسمة في تاريخ بترول الشرق الأوسط ، لقد انخفض الانتاج في بدايتها الى النصف ، ومن ثم ارتفع وانتهت السنة برقم قياسي ادى الى قلق خفيف . والولايات المتحدة التي لم توافق على تزويد اوروبا بالبترول الخام إلا ممتعضة خلال المدة بين كانون الثاني وآذار سنة ١٩٥٧ ، خفضت استيرادها من الشرق الأوسط في الفصل الأخير من السنة ، مع ان القسم الأكبر من هذا البترول يأتي من الجزيرة العربية .

ولو الغيت الحدود من شبه جزيرة قطر حتى الجنوب العراقي لأصبحت أغنى حقول بترولية في العالم خاضعة لسيد واحد اذ ان بترول العالم موجود تحت الرمال المحاذية لشاطىء الخليج . ووجود هذا الذهب الأسود — الذي لسنا في حاجة الى تبيان دوره في الاقتصاد والسياسة العالميين — يتيح لأصحاب المليارات الأشحاء ان يعاملوا باستخفاف دبلوماسيي مختلف الدول الكبرى ، وأن يزعزعوا بمزاجهم استقرار

رؤساء هذه الدول .

هذا هو السبب الذي دفعني الى ان انهي هذا الكتاب بفصل عن البترول تعميماً للفائدة .

الانتاج والاحتياطي لسنتي ١٩٥٦ – ١٩٥٧

قبيل التدخل المسلح في بور سعيد في شهر تشرين الثاني سنة ١٩٥٦ كان المعدل العام للانتاج العام في الشرق الأوسط يزيد عن المعدل الوسطي السنوي البالغ مئة وثمانين مليون طن من البترول . وفي تشرين الأول سنة ١٩٥٦ كان الخبراء يقدرون ان الانتاج سيصل في نهاية السنة الى مئة وتسعين مليون طن . ولكن العدوان على بور سعيد ، كان من نتائجه المباشرة ، هبوط مفاجىء في الانتاج البترولي في اغلب البلدان خلال الأشهر الثلاثة الأخيرة من السنة . واثر ذلك عاد الانتاج الى الانتعاش رويداً رويداً في النصف الأول من عام ١٩٥٧ . ومع ان البلدان المنتجة الرئيسية قد تأثرت ، فقد وصل الانتاج العام الى مئة واثنين وسبعين مليون طن . وكان مقدار ما انتجته الجزيرة العربية (الكويت والعربية السعودية ، قطر والمنطقة المحايدة ، والبحرين) مئة واثني عشر مليون طن وتقاسمت العراق وايران المقدار الباقي بأكمله تقريباً . وتأتي الكويت والعربية السعودية في المرتبة الرابعة والخامسة ، بين البلدان المنتجة ، بعد الولايات المتحدة وفنزويلا والاتحاد السوفياتي .

ومن حيث الاحتياطي البترولي تسبق الكويت والسعودية البلدان الأخرى بمراحل وقد اختلف الخبراء في معرفة أيهما تحتل الدرجة الاولى ، الكويت ام السعودية . والرأي الراجح الى جانب السعودية .

وكان انتاج سنة ١٩٥٦ موزعاً كما يلي :

الكويت	٥٤,٩٨٢,٠٠ طن
العربية السعودية	٤٧,٨٧٤,٠٠٠ طن
قطر	٠٥,٨٧٦,٠٠٠ طن
المنطقة المحـايدة	٠١,٦٠٠,٠٠٠ طن
البحرين	٠١,٥٠٠,٠٠٠ طن
مجموع انتاج الجزيرة العربية	١١١,٨٣٢,٠٠٠ طن
العراق	٣١,٣٢٥,٠٠٠ طن
ايران	٢٦,٥٣٠,٠٠٠ طن
مصر	٠١,٨٠٠,٠٠٠ طن
تركيا	٠٠,٣٠٠,٠٠٠ طن
فلسطين المحتلة	٠٠,٠٣٠,٠٠٠ طن
انتاج بلدان الشرق الأوسط الأخرى	٥٩,٩٨٥,٠٠٠ طن
المجموع العام لأنتاج الشرق الأوسط	١٧١,٨١٧,٠٠٠ طن
فنزويلا	١٢٩,٠٠٠,٠٠٠ طن
الولايات المتحدة	٣٥١,٦٤٧,٠٠٠ طن

سنة حاسمة ، ١٩٥٧

لم يتبع انتاج سنتي ١٩٥٦ و ١٩٥٧ بسبب حرب السويس خط الزيادة السابق . وفي العربية السعودية والكويت خفف الخط البياني المتزايد انطلاقه ، وهبط الخط البياني العائد لانتاج العراق عما كان عليه سابقاً اما البلد الشرقي الرابع من حيث الانتاج الأول تاريخياً — ايران — فقد دخل ميدان المنافسة بقوة فائقة وقد تخطى لأول مرة سنة ١٩٥٧ معدل انتاجه عام ١٩٥٦ اي السنة التي سبقت التأميم المصدقي الذي شل الصناعة البترولية في البلاد الايرانية وذلك بزيادة عشرة ملايين طن على

انتاج السنة السابقة ١٩٥٦ ، وهكذا بلغ الانتاج الايراني المعدل المرتقب في اتفاقات سنة ١٩٥٤

ويجب الاعتراف ان توقف النشاط الارادي أو القصري في العراق والكويت والعربية السعودية قد أفاد ايران افادة لا تنكر . وهذا التوقف كان له اسباب متعددة :

فأنابيب شركة بترول العراق بين كركوك وطرابلس — بانياس كانت قد نسفت في سورية في الثالث من تشرين الثاني سنة ١٩٥٦ ، وبقيت معطلة تماماً حتى الثاني عشر من آذار سنة ١٩٥٧ ، فصلحت جزئياً ، وبدأت الانابيب تعمل من جديد ابتداء من هذا التاريخ ، ولكن بنسبة ٤٠٪ فقط من طاقتها ، أي حوالي احد عشر مليون طن في السنة .

والعراق الى حد بعيد كان أكثر بلدان الشرق الاوسط تأثراً بأحداث تشرين الثاني سنة ١٩٥٦ التي رافقت العدوان الثلاثي على بور سعيد . وبالاضافة الى ذلك أقفل خط الانابيب البحري ، الذي يزود مصفاة سترة (البحرين) ببترول السعودية الخام ، الممتدة من ٤ تشرين الثاني سنة ١٩٥٦ الى ١٠ آذار سنة ١٩٥٧ ، اما خط الأنابيب عبر البلاد العربية فقد استمر في ضخ البترول الى ميناء صيدا في لبنان ، ولكن العربية السعودية كانت قد رفضت ان تزود بريطانيا وفرنسا ببترولها بسبب موقفهما من مصر . وقناةُ السويس ايضاً بقيت معطلة من أول تشرين الثاني سنة ١٩٥٦ الى نهاية ايار سنة ١٩٥٧ مما أرغم ناقلات البترول على ان تسلك طريق رأس الرجاء الصالح ، التي تزيد المسافة الواجب قطعها ، وتقلل من عدد رحلات الناقلات . وفي تشرين الثاني وآذار نتيجة لذلك ، لم يصل معدل الانتاج العام الى أكثر من مئة مليون طن .

وقد بدأ هذا الوضع يتحسن تحسناً ملموساً منذ ايار سنة ١٩٥٧ ،

ووصل الانتاج الى معدله الطبيعي في شهر حزيران . وانتهى النصف الاول من سنة ١٩٥٧ بإنتاج أرفع قليلاً من مستوى الانتاج لما قبل الأزمة . وقد عوض الانتاج الايراني النقص الذي لحق بالانتاج العراقي، بينما استعادت بلدان الجزيرة العربية نسبة انتاجها السابق . وهكذا انتهت سنة ١٩٥٧ على العموم في ظروف أفضل وكان الانتاج موزعاً كما يلي :

الكويت	٥٧,٢٨٦,٠٠٠ طن
العربية السعودية	٤٩,٤٥٦,٠٠٠ طن
قطر	٠٦,٦٤٨,٠٠٠ طن
المنطقة المحايدة	٠٣,٤٨٠,٠٠٠ طن
البحرين	٠١,٦٧٠,٠٠٠ طن
مجموع انتاج الجزيرة العربية	١١٨,٥٤٠,٠٠٠ طن
مجموع ما انتجته بلدان الشرق الأوسط	١٧٧,٠٠٠,٠٠٠ طن

وقد شهد النصف الاول من عام ١٩٥٧ بعض أحداث حاسمة في التاريخ البترولي، إذ بدأ الانتاج في أول حقل بترولي في الحوض البحري في الخليج العربي في صفانية مقابل الشاطىء السعودي لحساب الارامكو ؛ وعُثر على أول حقل بترولي صالح للاستثمار التجاري في جنوب الجزيرة العربية في ضفار ، سلطنة مسقط وعُمان ، لحساب شركة « ضفار سيتي سرفيس » البترولية . وعقد كذلك أول مؤتمر عربي للبترول وقرر ان يتبعه مؤتمر ثان في السنة نفسها . واخيراً عقد اتفاق ثوري بين شركة البترول الوطنية والشركة الوطنية الايرانية للبترول .

وقد شهدت سنة ١٩٥٧ ايضاً تأكيداً لأهمية حقول البترول المكتشفة في صحراء الجزائر في المغرب العربي ، لا سيا حاجي سعود . وكذلك حقل « قوم » الايراني المكتشف جنوب طهران ، خارج منطقة امتياز الائتلاف الدولي .

وعلى صعيد النقل الأساسي (لا يوجد انتاج واسع النطاق بدون

وسائل نقل) أتاح تصليح محطات الضخ العاملة على خط أنابيب شركة بترول العراق العودة الى الطاقة السابقة ، ستة وعشرين مليون طن ، ومحطات الضخ الجديدة التي أنشئت على خط الأنابيب عبر البلاد العربية (الارامكو) مكنت من إضافة عشرة ملايين طن عـلى مرحلتين : ومن بين المشروعات البارزة الاهمية مشروع يقضي بمـد خط مزدوج عريض القطر بين الخليج العربي والبحر الابيض المتوسط ، على طول الف وستمائة كيلومتر ، ينقل بترول ايران والعراق وقطر ، وينتهي هذا الخط في خليج الاسكندرونة ، داخل الاراضي التركية .

ومشروع مد خط جديد لشركة بترول العراق الى طرابلس وبانياس هو الآخر موضع درس . غير ان الوضع السياسي جعل هذه المشروعات تنام ريثما ينجلي الموقف .

والجدير بالذكر ان الشبكتين الطويلتين للأنابيب في الشرق الأوسط كركوك — المتوسط لشركة بترول العراق ، والتابلاين العائد لشركة الارامكو يجب ان تجتازا ، للوصول الى الشاطىء المتوسط الشرقي ،أراضي الاردن وسوريا ولبنان . ومنذ عدة سنوات وهذه البلدان في نزاع مـع الشركات البترولية والبلدان المنتجة من اجـل اقتسام العائدات . ونسف محطات الضخ في سوريا على أثر العدوان على بور سعيد أظهر ما يمكن ان يؤدي اليه عدم استقرار الاحوال .

لذلك فكر أولو الامر في مد الخط المشار اليه الذي قدرت طاقته بسبعين مليون طن . وقد كان رد الفعل من الدول العربية ، على هذه هذه المناورة ، خطيراً . وطرحت فكرة تأسيس شركة عربية للنقل في الانابيب ، وذلك اثناء المؤتمر البترولي العربي الاول المعقود في بغداد ، خلال شهر تشرين الثاني سنة ١٩٥٧ غير ان العراق الذي تأثر كثيراً من نسف الانابيب المارة في سوريا رفض ان يشارك في هذا المشروع . وفي نفس الاسبوع على أثر الاتفاق المبدئي بهذا الخصوص اجتمع الخبراء

الايرانيون والاتراك في اسطنبول لوضع مشروع مد خط الانابيب ــ القوم ــ المتوسط ــ في صيغته النهائية .

فلسفة البترول

يحمل الحصر الاحتكاري دائماً ضعفاً في تركيبه وهو مهما احكم لا يمكن الا ان يترك هامشاً صغيراً يتمكن منافس ما من الاهتداء اليه ، والعبور منه للقضاء عليه . الاحتكار الكامل لا وجود له . وعندما يكون هناك منافس لا يمكن ابتلاعه او تحطيمه ، لا يبقى من مفر سوى قبوله في الشبكة الاحتكارية ، وهكذا ينشأ الاتحاد (كارتل) . والصناعة البترولية العالمية هي النشاط الصناعي والتجاري الاهم في العالم . وتاريخ تطور ونمو الاحتكارات (ترست) والاتحادات (كارتل) التي تسيطر على العالم البترولي ، أوحى الكثير من المؤلفات من الدراما الاقتصادية الباردة الى قصة المغامرات المشوقة . وقبل ان نخرج عن نطاق الشرق الاوسط لا بد من الاشارة الى ان الصراع العنيف بين الشركات البريطانية والاميركية للاستئثار بالبترول ، يشكل الفصول الاكثر سواداً في تاريخ البترول في العالم . والقادة الحقودون في هذا الصراع الذين كانوا يحملون اسم، روكفلر ، وديتردنغ صموئيل، وكولبنكيان كلهم زالوا. والشركات التي خلفوها لورثتهم هي شركات مغفلة تنشر تقارير مدروسة برسم الرأي العام والمساهمين فيها . ويبدو ان حرب البترول في حد ذاته لم تنته ، وانتهاؤها بعيد الاحتمال .

ان التفوق العام الذي حصلت عليه الشركات الاميركية منذ الحرب العالمية الثانية لا يمنع المحاولات الغربية التي تلجأ اليها الشركات لتسجيل مكاسب جديدة . وعلى العكس دخلت شركات جديدة الى الحلبة ، هي الشركات الاميركية (المستقلة) آناً افرادياً وحيناً جماعياً .

والخطر الداهم الخارجي يتحسس دائما الشق الذي يتيح له ان يتسلل الى الداخل . ومع ذلك يحتل « العمالقة » الاميركيون والبريطانيون ، والشركة الفرنسية للبترول المرتبطة بهم ، المراكز الاولى على المسرح ؛ وسيطرتهم على الاساطيل البترولية والاسواق العالمية تعطيهم القوة الكاملة والجبروت ، والمستقلون الاميركيون يقبلون بعض الشروط . شرط ان تسمح لهم فرصة المساهمة في الاستثمار . وهناك شركات يابانية والمانية وبلجيكية تجرب بحذر حظها ، والقادم الجديد النادر الجرأة ، اي الشركة الايطالية « الاجيب ميزاريا » تصر على ان تلعب لعبتهـــا بحرية وتهدد بذلك جميع اسس الاستثمار البترولي في الشرق الاوسط . والتقسيم الجشع للامتيــازات حسب مناطق النفوذ أخلى المكان للمزايد ، وتداخل الشركات العجيب ، المتشاركة هنا ، والمتنافسة هناك يجعل من العسير جداً فهم اسرارها الغامضة .

على نسق التفسير البسيط لحالة تقسيم الامتيازات البترولية في الجزيرة العربية والبلدان المجاورة ، اريد ان اشير الى ان الصناعة البترولية في العالم مرتبطة في جذورها وتركيبها بفلسفة الحرية الاقتصادية القائمة على مبدأ حرية المنافسة والمحالفات والاحتكارات والاتحادات ليست مناقضة لذلك . بل هي نتيجة حتمية لمبدأ « اتركه يعمل » . والبترول الذي يؤلف خمس المبــادلات الدولية هو في امسّ الحاجة للتحرر لبسط امبراطوريته . وقوته الحقيقية تكمن في العمل الحر . واتخاذ هذا الموقف الرئيسي يفسر قوة الشعور بضرورة المنافسة . ليس فقط بين الشركات الكبرى ، بل ايضاً بين توابع الشركة نفسها .

ان هذا النهج يعتبر جزءاً من قانون اللعب . ومختلف التوابع لشركة ما ليست مؤلفة من المالكين انفسهم . والتنافس المفيد الناتج عن ذلك لا يمكن الا ان تنظر اليه الشركة الأم بعين الرضا ، طالما انه مورد ابتكارات مفيدة وارباح اضافية ، انه تنافس من نفس النوع القائم بين

مندوبي مختلف الاجهزة التابعة للدولة ذاتها . وهذا التنافس يمكن ان يكون عنيفاً قاسياً في صلب شركة ما ، وقد يصبح وحشياً في فروع النشاط التي تبقى خارج نطاق اتفاقات الاتحاد .

ان هذه التفسيرات السريعة تبسط الاساس للعبة الغربية ، التي حملت الشركات البترولية المتداخلة المصالح على ما يبدو ان تلعبها في الشرق الاوسط . واذا ما انطلقنا من اقدم المحالفات التجارية الدولية استطعنا ان نفسر الامور المعقدة .

تقاسم الامتيازات ، الاحتكارات والاتحادات

يضم فريق شركة بترول العراق اربع شركات منتجة هي شركات العراق ،البصرة والموصل البترولية وتعمل في العراق والرابعة شركة بترول قطر وميدانها قطر.ويتبع شركة بترول العراق ثلاث شركات للتنقيب هي شركة الامتيازات البترولية المحدودة ، وتحتكر امتياز التنقيب في محميات عدن ، وشركة التطوير البترولي (عمان) وتستأثر بامتياز التنقيب في مسقط وعمان ما عدا مقاطعة ضفار ، وشركة التطوير البترولي (شاطىء القراصنة) وتتصرف بالامتياز البري على طول شاطىء القراصنة ، اي انه من مضيق باب المنــدب حتى شبه جزيرة قطر جميع السواحل الجنوبية والشرقية للجزيرة العربية مُنح امتياز التنقيب فيها عن البترول الى شركة بترول العراق ، فيما خلا ضفار التي اهملت عام ١٩٥٣ ، وتغطي الامتيازات الاخرى التي تملكها الشركة نفسها جميع الاراضي العراقية ، وقد استمدت شركة بترول العراق قوتها في البدء من شمال العراق منذ اكتشافها لبئر بابا غرغور في حقول كركوك البترولية في تشرين الاول سنة ١٩٢٧ ، وجميع الشركات التابعة لشركة بترول العراق تقريباً ، مركبة سياسياً على النسق ذاته منذ سنة ١٩٢٥ ، عندما

كانت الشركة الأم « شركة البترول التركية » وهي موزعة بين :

الشركة البريطانية المحدودة للتنقيب عن البترول	٢٣،٧٥٪
الشركة الانجلو ساكسونية للبترول (شل)	٢٣،٧٥٪
الشركة الفرنسية للبترول	٢٣،٧٥٪
سوكوني وستندارد نيوجرسي شركة التطوير للشرق الادنى	٢٣،٧٥٪
شركة المساهمة للتنقيب (ورثة كولبنكيان)	٠٥،٠٠٪

واثنتان من هذه الشركات الخمس الكبرى بريطانيتان واثنتان اميركيتان وواحدة فرنسية ، وهي تملك ايضاً مصالح اخرى في الشرق الاوسط ، خاصة في الكارتل الدولي العامل في ايران . وذلك بنسب مختلفة.

وفي الجزيرة العربية هناك منافس كبير واحد اميركي مئة بالمئة ، هو فريق شركة البترول العربية الاميركية (ارامكو) وتضم سوكوني ١٠٪ وستندر نيوجرسي ٣٠٪ وتكساس اويل وستندر كاليفورنيـا (كالتكس) معاً ٦٠٪ وتجد الارامكو العاملة في الاراضي السعودية نفسها محاطة باراض احتكر امتياز التنقيب فيها من قبل شركة بترول العراق التي تملك بريطانيا القسم الاكبر من اسهمها .

يستثنى من ذلك شركة بترول الكويت وهي موزعة مناصفـة بين الاميركيين والبريطانيين ولا دخل لها في فريق شركة بترول العراق ، ولا في فريق الارامكو لتأسيس شركة بترول الكويت وقد تمت هذه المشاركة بواسطة شركة « الخليج » الاميركية التي يرأسها ميلون . وهناك بعض الاستثناءات الأخرى اقل اهمية واحدث تاريخاً .

وقد جرت على ايدي شركات اميركية متفاوتة من حيث القيمـة هي حسب الحالة في اليمن شركة التطوير اليمنية ، « لجورج آلن » . وفي ضفار شركة ضفار سيتي سرفيس للبترول التي ادخلها الى هناك السيد واندل فيليبس . ويبدو انها تريد ان تعمل بحرية بعيداً عن كل اتفاق مع الشركات الاميركية « الكبرى » في المنطقة المحايدة الكويتية ،

تعمل شركة البترول الأميركية المستقلة — امينويل — (اتحاد مؤلف من عشر شركات مستقلة) وشركة (جيتي اويل) وقد اصبحت كل منهما مرتبطة بالشركات « الكبرى » عن طريق الائتلاف الدولي في ايران ، وتعمل كلتاهما في النطاق الذي تفرضه عليها المصالح المشتركة ؛

أما الامتيازات في الحوض البحري والجزر فتهم جميع الشركات التي تملك مصالح في الجزيرة العربية عن طريق شركة بترول العراق الى فريق الارامكو . وفي أرخبيل البحرين شركة بترول البحرين تخص تكساس أويل ستاندرد وكاليفورنيا (كالتكس) اللتان تملكان ٦٠ ٪ من شركة الارامكو . وتمتد امتيازات الارامكو البحرية امام الشاطىء السعودي ، وامتياز قطر منح الى فريق رويال — دوتش شل . وعلى شاطىء القراصنة امتيازات في جيتي وابي ظبي يخصان شركتين تألفتا من شركة البترول البريطانية بنسبة الثلثين ، ومن شركة البترول الفرنسية بنسبة الثلث ، وتملك شركة البترول البريطانية كذلك حق التنقيب في الجزر الملحقة بمحمية عدن ومن بينها قمران وبريم .

وأعتقد اننا لن نتمكن فهم شيء من المكائد والمناورات البترولية في الجزيرة العربية اذ لم يبق حاضراً في ذهننا هذا التشابك الغريب بين الشركات المركبة المتصلة كلها بالشركات الأم ؛ التي لا تتوانى عن تشجيع التنافس بينها بشكل يخلو احياناً من الروح الرياضية . والذي يبدو احياناً غير مفهوم من قبل الرأي العام ان هو الا نتيجة منطقية لارتباط الصناعة البترولية العالمية بالتركيب الاقتصادي الرأسمالي وفلسفة الحرية الاقتصادية . ومن الطبيعي جداً في هذا السباق ان تكون الشركتان اللتان تكوّنان شركة بترول الكويت متشاركتين اشتراكاً دقيقاً في عملية استخراج بترول الكويت الخام، ومن ثم تصبح تابعاتهما العاملة في حقل المبيع متنافسة تنافس الاعداء ، لمجرد خروج البترول من حدود الامارة . والاتفاقات المعقودة من اجل الاستخراج في داخل امتياز ما لا تربط في

حال من الاحوال الشركات التابعة او المتشاركة في مراحل النقل والتكرير او المبيع . ومع امكانية حصول كل شيء لا يعني الأمر بالطبع عدم تحديد الحد الادنى لاسعار البترول الخام في العالم على يد الاتحادات (كارتل) . حتى هذا الحد يمكن اعتبار تصرف الشركات طبيعياً تقريباً . ونستطيع ان نقبل مع التساهل مفهومها الغريب للتنافس الذي ينحرف احياناً عن هدفه .

الانتصارات الاميركية

وراء هذا التنافس الشديد تبقى الجزيرة العربية والبلدان المجاورة الحلبة المقفلة حيث يتنازل كبار المتنافسين كل وقت. والارامكو المؤلفة بمجملها من شركات الاحتكار الروكفلري القديم الذي اندثر على أثر صدور التشريع ضد الاحتكار ، حملت مشعل الحرب ضد شركة بترول العراق التي خلفها ديتردينغ ، صموئيل ، وكولبنكيان والشركات البريطانية الأخرى. والصراع اليوم لم يعد كما كان على ايام هؤلاء السادة الأقوياء ملوك البترول. وأحقاد او صداقات كالوست كولبنكيان الارمني الشخصية لم تعد تؤثر في تغيير خريطة الامتيازات البترولية . ان الاشخاص الآن يتوارون وراء وظائفهم كمدير لشركة بترول العراق ، او رئيس لستندارد نيوجرسي . ومع ذلك فان النتيجة واحدة ، لقد فرضت الولايات المتحدة الاميركية على بريطانيا تفوقها النهائي القاطع عام ١٩٥٤ ، عند حل النزاع الانجلو ايراني ، اذ انها استطاعت ان تستأثر لشركاتها بنسبة ٤٠ ٪ من الكونسوريوم الدولي في ايران : حيث نالت كل من الشركات الخمس الكبرى نسبة ٧ ٪ بينما قسمت الخمسة بالمئة الباقية بين الشركات التسع المستقلة :

وكذلك تمكنت الشركات الاميركية بمساندة الحكومة في واشنطن ان

تزحزح زميلاتها البريطانية التي كانت شركة البترول الفرنسية قد ربطت مصيرها بها . وفي القطاعات الخاضعة للاتحادات الثمانية الكبار لمحاربة الشركات المستقلة « والخارجية » الشركات الاميركية . وهذا الحلف الذي يجمع العمالقة مؤلف من ستندارد نيوجرسي ، ستندارد كاليفورنيا تكساس اويل ، غولف اويل،سوكوني موبيل اويل ، والفريق الانجلو- هولندي رويال — دوتش — شل، والشركة البريطانية للبترول، والشركة الفرنسية للبترول، وقد قبل على مضض ولكن بدون خوف شديد دخول الشركات الاميركية « المستقلة » الى المسرح .

وبالاضافة الى ذلك كله شهدت سنة ١٩٥٧ فارساً جديداً ظهر الى ميدان المنافسة وفتح النار علناً على جميع الشركات القائمة ، اذ وضع قواعد جديدة للعمل تقوم على اساس فلسفة اصلاحية جذرية حديثة لا عهد لعالم البترول بمثلها من قبل ، وعقد مع ايران اتفاقاً ثورياً بكل معنى الكلمة . وهذا القادم الجديد هو انريكو ماتيي رئيس المصلحة الوطنية الايطالية للبترول وقد اجبر الشركات البترولية العاملة في الشرق الاوسط على ان تستعد لاعادة النظر في مجموع اتفاقاتها السابقة مع البلدان صاحبة البترول .

اتفاق ماتيي وتلاشي مبدأ المناصفة

كانت جميع الاستثمارات البترولية في الشرق الاوسط تقوم على مبدأ المناصفة الذي تتلقى بموجبه البلدان المنتجة نصف الارباح الخام من الانتاج. والاتفاقات المعقودة بين الشركات والحكومات تشير مع ذلك الى ان هذه الشروط قابلة للتعديل واعادة النظر فيها ، فيما لو حصلت احدى الدول الاخرى المنتجة في الشرق الاوسط على شروط افضل ، « والاجيب — مينراريا » الشركة الايطالية للتنقيب والاستثمار التي أسستها المصلحة

الوطنية الايطالية للبترول . استطاعت ان تحصل من الحكومة الايرانيةعلى ثلاثة امتيازات للتنقيب في الاراضي الايرانية ومساحتها ثلاثة وعشرون الفاً من الكيلو مترات المربعة . وتركت لايران ٧٥ ٪ من الارباح المترتبة على الاستثمار في حالة العثور على البترول . في هذا المظهرالمبسط عرف العالم الاتفاق الايطالي الايراني . الأمر الذي يفسح المجال واسعاً امام الحملات المعادية . والتفسيرات التي اعطاها واضع الاتفاق السيد « أنريكوماتيي » ألقت ضوءاً كاشفاً على المبدأ الجديد « ٢٥٪/٧٥ » .

وكان ان عقدت المصلحة الوطنية الايطالية للبترول الممثلة بتابعتها « اجيب ميناراريا » مع الشركة الوطنية الايرانية للبترول اتفاقاً نشأت بموجبه شركة جديدة « سيريب » للتنقيب عن البترول واستثماره في القطاعات الثلاثة التي منحت الحكومة الايرانية امتيازاً للتنقيب فيها . ان الاجيب ميناراريا بموجب هذا الاتفاق لا تدفع ايجاراً ، بل تتعهد بتحمل جميع نفقات التنقيب التي خصص لها مبلغ قدره اثنان وعشرون مليون دولار لمدة اثنتي عشرة سنة . وفي حالة العثور على بترول صالح للاستثمار ، تحسم هذه التكاليف من ارباح « سيريب » التي تتقاسم التكاليف كما تتقاسم الموارد الناتجة . والسيريب ، اي الشركة الايطالية الايرانية هي التي تدفع للحكومة الايرانية ٥٠٪ من ارباح استثمار البترول الخام . وهكذا تكون الحصة الايطالية ٢٥٪ في النهاية . ان المبدأ الجديد يكمن في المشاركة المباشرة الفعلية التي تقوم بها شركة وطنية من البلد صاحب العلاقة ، الى جانب شركة اجنبية مستثمرة . والملاحظ ان الشركة فيما يختص بالسيريب هي بين شركتين وطنيتين ، ملك للدولة في الحالتين ، لا مكان عندهما للمبادىء الشائعة في الصناعة البترولية العالمية .

ما كاد اتفاق ماتيي يوقع حتى شنت عليه حملة شعواء من مختلف الجهات . وذلك منذ شهر آذار بمجرد تسرب بعض الشائعات عنه :

وبلغ القلق حد الجنون في الأوساط البترولية ووصل الى درجة ظ معها الحكومة الاميركية ان من واجبها مطالبة الحكومة الايطالية باسكات ماتي واستدعائه من ايران ، وارساله الى مناطق اخرى قد تكون الصحراء الجزائرية ، وبعد ذلك عرفت تفاصيل الاتفاق بوضوح ، كما ان تصميم ايراد وعناد الشركة الايطالية انتصرا في النهاية على اعداء المبدأ الجديد ، ورأت الشركات الأميركية والبريطانية بوجل منقبي السيد ماتي يصلون في نهاية سنة ١٩٥٧ الى منطقة الخليج العربي ، ولم يقتصر الأمر على ذلك بل ان اكثر البلدان المنتجة للبترول في الشرق الأوسط قد بعثت بمندوبيها على مرأى ومسمع الشركات الكبرى الى مكتب السيد ماتي للاستفسار عن تفاصيل الاتفاق مع ايران ، وفي المؤتمر البترولي العربي الأول المعقود في بغداد خلال شهر تشرين الثاني في سنة ١٩٥٧ كان اتفاق ماتي من بين اهم الموضوعات التي بحثت في المؤتمر . ويمكن القول انه الموضوع الوحيد الذي اجمعت على قبوله الأطراف كلها ..

وهكذا تلقى مبدأ المناقصة ضربة قاضية ولم تعد القضية قضية أرباح فقط ، بل هي تتناول العلاقات السياسية كلها بين العالم العربي والعالمين الاوروبي والأميركي .

وكان من حق السيد ماتي ان يطرح هذه القضية طالما ان الوقت لم يفت بعد . ومن المفيد ان نذكر ان الاجيب ميزاريا الايطالية لم تأت بشيء جديد على صعيد الاستثمار البترولي . فمبدأ « ٢٥٪ ٧٥ » كان موجوداً قبل عقد اتفاق ماتي في الجزيرة العربية ، اذ ان الشركة الألمانية ديلمان برغبو التي حصلت على امتياز للتنقيب في اليمن سنة ١٩٥٣ كانت قد تعهدت بأن تدفع ٧٥ ٪ من ارباح الاستثمار بالاضافة الى ذلك نصف مصروفات التنقيب والانتاج .

ان علاقات الغرب الأوروبي والأميركي بالبلاد العربية ، خاصة

بلدان الجزيرة العربية ، تتأثر وتوجه وتحدد من قبـــل قوة عليا هي البترول او صاحب الجلالة البترول الذي يعتبر مورداً سياسياً وستراتيجياً اكثر منه اقتصادياً ومالياً . فيما مضى تصرفت الشركات الكبرى حسب قدرتها على المنافسة بالمعدن الثمين ، دون ان تأخذ بعين الاعتبار العوامل المحلية ، سواء اتخذت الحكومات منها موقفاً ايجابياً او سلبياً في السر او في العلن من أجل رعاياها . ومنذ مدة وجيزة ظهرت في الفلك البترولي نجوم جديدة شديدة التألق اذ برزت في الشرق الأوسط قوى جديـــدة تكافح من اجل الحصول على السائل الثمين . بعد مفاوضات طويلة ، وقع فريق ياباني في كانون الأول سنة ١٩٥٧ اتفاقاً للتنقيب عن البترول مع العربية السعودية ، وتألفت بذلك شركة يابانية ــ عربية لاستغلال البترول في حصة المملكة السعودية من الحوض البحري مقابل المنطقـــة المحايدة وقبل الطرفان على ان يكون تقاسم الأرباح « ٥٦/٤٤ » وهذا مبدأ اكثر خطراً ايضاً من مبدأ ماتيي .

ان اوروبا تنظر بعين القلق الشديـــد الى التغيّر الكبير في طرق الاستثمارات البترولية في منطقة حيوية جداً بالنسبة لها . ومن يدري فقد تحمل الجزيرة العربية الخالدة في طيات انطلاقها الجديد الدوافع التي قد تؤدي الى حرب عالمية جديدة .

هل انا مخطىء في اعتقادي هذا ؟ .. انني أتمنى ان اكون كذلك ان شاء الله .

١٧

القوى الجديدة

انه تناقض مذهل دائماً ان تكون الأهمية للجزيرة العربية في العالم متناسبة مع مساحاتها الصحراوية ، وسكانها القلائل ، ووضعها الاقتصادي والعسكري ، الذي يصعب تقديره . وقد وصل التناقض حده الأدهى ، مع وضع دولي بالغ الغموض الى درجة اتاحت لاحدى جزر المحيط الهادىء التي ما زال سكانها من أكلة لحوم البشر ان تحتل احد المراكز الخمسة المخصصة للدول الكبرى ، مع حق النقض في هيئة الأمم المتحدة.

ومع ذلك فليس هناك من شبه بين ارض العرب وفرموزا ، ان المركز الجغرافي السياسي للبلاد العربية وقوامها الايديولوجي ، يكسبانها مكاناً اكبر وأبرز ، حتى في وضع دولي مختلف . والقوة التي كانت للحضارة العربية تطبع الجزيرة العربية بطابع البلدان المقدسة . ومركزها في نقطة وسط بين قارات العالم القديم الثلاث ، يدعوها لتلعب دوراً حاسماً في التاريخ . فهل يكفي اذن ان نشرح كل شيء بالبترول ؟ : في مدة عشر سنوات فيما لو صدقنا اقوال ارصن الخبراء من مختلف

الاوساط والبلدان يُنتظر ان يفقد البترول المتنازَع عليه أهميته ؛ مما يحمل المتنازعين على ان يتطلعوا الى أشياء أخرى . وفي ظرف قرن من الزمن كما يقولون ، سيستغني العالم نهائياً عن البترول (يجب ألا نخاف على الشركات البترولية الكبرى ، فقد أسست منذ مدة طويلة تابعات لها تعمل في حقل الذرة) وخلال هذا الوقت على كل حال ستكون الجزيرة العربية ومعها مجموع بلدان الشرق الاوسط قد غيرت وجهها وطرق مصيرها .

في الوقت الحاضر لا يمكننا ان نفكر ، دون ان تعترينا الرجفة ، بالنكبة التي ستحل فيما لو استغنت اوروبا والعالم عن البترول ، اذ ان الجزيرة العربية ستجد نفسها فجأة محرومة من العائدات التي كان البترول يدرها عليها . ان الاثني عشر مليون نسمة الذين يسكنون الجزيرة الغربية لا يشعرون إلا قليلاً ، وبطريقة غير مباشرة ، بنتائج الثروة التي حملها البترول لقارتهم . وهذه النتائج في مناطق معينة أصبحت من أسباب التفجر ، واذا بُحثت على صعيد السياسة الدولية فانها تجعل هذه الجزيرة العربية حجر لعب بالغ الاهمية على لوحة الشطرنج العالمية . ان عالماً مقسماً كعالمنا الى كتل متعادية بايديولوجيات متنافسة ، لا يمكنه ان يتجاهل ذلك .

الطبقات الاجتماعية الجديدة والقومية العربية

ما من قسم من العالم يستطيع على المدى الطويل ان يبقى في معزل عن المعركة الضارية الدائرة باستمرار من أجل بسط السيطرة على العالم. ولذلك لا يمكن إلا ان يجر تزايد نفوذ الولايات المتحدة الاميركية في الجزيرة العربية ، وخاصة حول الخليج العربي ، هجوماً سوفياتياً

معاكساً . والتغلغل السوفياني الحاصل الآن في الشرق الاوسط ما هو إلا جواب على المناورات والمكائد الانجلو اميركية ، التي سبقت ورافقت ولادة حلف بغداد .

وأبلغ الأدلة تتالت على المسرح الدولي منذ ذاك اليوم في ايلول سنة ١٩٥٥ عندما أعلن الرئيس جمال عبدالناصر من راديو القاهرة نبأ صفقة الاسلحة التشيكية لمصر . وبعد سنة واحدة من هذا الحدث جاء تأميم قناة السويس والمغامرة الفاشلة على بور سعيد ليقلبا الاوضاع رأساً على عقب في العالم العربي . وهل يمكن ان ننسى عمليات النسف والمظاهرات الصاخبة ضد دول العدوان ، والاضطرابات الدامية التي قمعت بقسوة ؟ لقد أفهمت الاضطرابات التي وقعت في الشرق والعالم الاوروبي النادم الوجل ان الجزيرة العربية بعد سنة ١٩٥٦ لن تكون أبـداً ذاك البلد الوديع ، السهل القيادة ، الذي عرفـه لورانس ومنافسوه . فبالنسبة للبريطانيين أصبحت القضية في حاجة الى حل سريع ينقـذ مصالحهم . وكذلك بالنسبة لسعود وباقي الحكام الاستبداديين في انحاء الجزيرة العربية . اذ ان الانقلابات الجذرية على المدى الطويل تتفاعل أسبابها داخلياً .

في الداخل يمكن ان نكون متأكدين من الزوال المتفاوت السرعة للتركيب الحضاري الاجتماعي الاقتصادي الموروث عن الاجداد منذ أقدم العصور في كل القسم البترولي من الجزيرة العربية . وفي قلب الجزيرة الشاسعة ، البدو المكبوتون الفقراء ، يضعون في الله عز وجل كل آمالهم ، ويعتقدون ان الصحراء تنتهي دائماً بأن تكون لها الكلمة الاخيرة .

ان الاثراء العجيب المدهش الذي أصاب البلدان المنتجة للبترول قد رافقته ظاهرة آلية كما يبدو ، وهي إعادة التركيب الاجتماعي .

في كل مكان بدأت تتشكل وتظهر طبقات اجتماعية جديدة ، هي طبقات التجار ، وطبقة المثقفين ، وطبقة العمال . والطبقة البورجوازية التي تتوسط الطرفين التقليديين بين الثروة الطائلة والبؤس ، بدأت تشعر

ليس فقط بحقيقة وجودها ، بل ايضاً بقوتها . وهي مع البروليتاريا أكثر الطبقات تحسساً بالقومية العربية التي تحمل القاهرة لواء دعوتها بمهارة فائقة ، محتكرة التعبير عن إرادة الجماهير العربية والتجاوب مع ميولها ، والعمل لتحقيق آمالها .

وقد جاء في مقدمة دستور مصر المعلن سنة ١٩٥٦ ما يلي :

« ... نحن ، شعب مصر ، نشعر جيداً بدورنا كجزء عضوي وكخميرة للكيان العربي الأكبر . ونعرف مسؤولياتنا وواجباتنا في النضال العربي المشترك من أجل سعادة الامة العربية ومجدها ... »

والمسؤولون العرب ، شاءوا أم أبوا ، مضطرون أمام اندفاع شعوبهم العارم ، ان يسيروا في ركاب الرواد الذين يعملون على ايقاظ الامة العربية . ولا الملك سعود ، ولا أمراء الخليج العربي ، ولا حتى امام اليمن ، يستطيعون ان يقاوموا نهائياً ، فيما لو رغبوا في ذلك ، أمواج القومية العربية المتلاطمة . ومن أجل ارضاء الجماهير ينبغي على هؤلاء المسؤولين ان يبرهنوا عن مساندتهم وتضامنهم ، ولو عن طريق الكلام . ولكن الى متى يمكن ان يستمر ذلك ويكون كافياً ؟؟

في عدن المستعمرة البريطانية ، رفع الاهالي على الرغم من أسيادهم الانجليز وعلى سمعهم وبصرهم الاعلام المصرية مشاركة منهم في الاحتفال بخروج جيوش بريطانيا ذليلة من منطقة قناة السويس . وفي البحرين ، الركيزة البريطانية في الخليج العربي ، جمّد المتظاهرون بأصواتهم المخيفة الدم في عروق المقيم السياسي ووزير خارجية بريطانيا ، مما أرغم بريطانيا على ان ترسل نجدات عاجلة الى البحرين لمواجهة الاضطرابات والمظاهرات الصاخبة التي أعقبت العدوان الثلاثي على بور سعيد . وبعد بضعة أسابيع فقط ، عادت الجماهير المتماوجة الى الهيجان والتعرض ، يبدون مبالاة ، لحراب جنود البحرية البريطانية ورصاصهم . وفي الاحساء

منع الملك سعود ، بعد عملية قمع دامية ، كل اضراب أو مظاهرة منذ عام ١٩٥٦ ، وقد جرى اعتقال ومحاكمة المحرضين ، فقضى على بعضهم بينما لا يزال البعض الآخر يتأكله العفن في ظلمات السجون ، كما أبعد السوريون والفلسطينيون المشتبه بهم عن البلاد .

غير ان النقابة السرية لعمال البترول ما زالت توالي نشاطها رغم كل ذلك ، وهي نفسها التي أعلنت اثناء اشتداد الازمة التركية — السورية في تشرين الاول سنة ١٩٥٧ ان المنشآت البترولية ستنسف في حالة الاعتداء على سوريا .

وفي اليمن ، المرتاحة نسبياً من هذه الناحية ، المتحدة فدارالياً مع الجمهورية العربية المتحدة في اتحاد الدول العربية ، صورُ الرئيس جمال عبدالناصر احتلت منذ زمن طويل مكان الشرف في كل بيت . والجميع من بدو وحضر ، أميين كانوا أم متعلمين ، يستمعون لاذاعة صوت العرب التي تحدثهم عن امجادهم السالفة واللاحقة .

اذا كانت اللياقة صينية المنشأ ، واسلوب العلك اميركياً ، فإن فن الدعاوة عربي ، وهم عباقرته . والمغالاة الحارة التي يلجأ اليها معلقو صوت العرب الذين لا يشق لهم غبار في التفسير الحديث للقصص الشرقية القديمة ، ان الجن والعفاريت اليوم لم تعد تحمل شيئاً سوى فكرة القومية العربية « من الخليج الى المحيط » وهي في حد ذاتها القوة المنتشرة الاهم في الجزيرة العربية .

وتختلط بهذه الفكرة الوحدوية القومية موجهات من المطالب الديمقراطية والاشتراكية التي ترافقها دعوة واضحة معادية للاستعمار وجماعته ، لأن الدافع للقومية العربية ليس سوى توق كبير للكرامة . ان الميل الى الاستقلال الذاتي في الحجاز داخل العربية السعودية والمعارضة الشافعية في اليمن ، والميول الانفصالية الاقليمية ، والاحقاد العائلية والمنازعات القبائلية ، والخلافات الدولية بشأن الحدود ، كل ذلك يضيع في غمرة

الموجة الشعبيـــة العارمة من اجل القومية العربية ؛ او على الاصح كل شيء يأخذ لونه الخاص . اما النزعة الاسلامية التي لقيت آذاناً مصغية فيما مضى ، فقد اصبحت شيئاً ثانوياً بعد بروز الدعوة العربية القومية .

ومن خلال هذه النزعة الاسلامية وعن طريق التوق الى الكرامة ، ترتبط الجزيرة العربية بعالم باندونغ ، بهذه الدول الاسيوية والافريقية التي يجمع بينها شعور الذل الغامض القديم، الذي ألحقه بها الاستعمار الغربي.

اللعبة السوفياتية

لا اعتقد ان عدداً كافياً من الغربيين ، قد لاحظ الاثر الكبير الذي تركه مؤتمر باندونغ لدى الشعوب المستعمرة ، سابقاً والتي ما زالت تقاسي من الاستعمار .

ليس المهم ما حققه مؤتمر باندونغ حتى الآن ، بل المهم هو هذه الوعود والشعارات التي اطلقها المؤتمر . لقد كان هذا المؤتمر ، مؤتمر الشعوب العـــاملة الفقيرة المحرومة دائماً . وبذلك اعلنت المعركة الطبقية بين الدول الغنية والدول الفقيرة ، لم تخطىء الكتلة الشيوعية في تقدير ذلك.لقد وقفت موسكو التي تحرص على ان تستغل حتى النهاية الحركات القومية ، مهما كانت جذورها رجعية ، الى جانب العرب ، بعد ان اعطت صوتها في هيئة الأمم المتحدة الى جانب قيام اسرائيل على انقاض فلسطين العربية .

واما الانجليز والاميركيون فانهم على الرغم من اختبارهم العملي لم يقفوا موقفاً مؤيداً ، ويبدو انهم غير قادرين على تحسين اوضاعهم هناك، وبسبب اتفاقهم مع المسؤولين يخسر هؤلاء في كل مرة امام السوفيات الذين يلعبون عن دهاء او غير ذلك ورقة الجماهير ويعدون لهم مكاناً للمستقبل بسعر زهيد . وعندما اعلن ولي عهد اليمن ان الاتحاد السوفياتي

هو الصديق المتجرد للشعوب العربية انما عبّر بتواضع عن الشعور المنتشر من شرقي البحر المتوسط حتى المحيط الهندي .

انه من الخطأ والخطر الاعتقاد مع ذلك ان الاتحاد السوفياتي لا مصلحة له في البترول العربي لأن لديه ما يفيض عن حاجته من احتياطي هذه المادة ، كما انه من الخطأ الاعتقاد ان الشركات العاملة في الشرق الاوسط لا تهتم ببترول الصحراء الجزائرية والليبية . لأن ذلك معناه ، قبل كل شيء تناسي الاهمية الستراتيجية والسياسية للبترول بصرف النظر عن اهميته الاقتصادية ، ان موسكو تعرف جيداً انه اذا ما وضعت يدها على بترول الشرق الاوسط فإن ذلك معناه فرض النظام الشيوعي على القسم الاكبر من العالم . وعندئذ سيحلّ البلاء بالانجليز والاميركيين على السواء . ان البترول العربي حيوي لهؤلاء كما هو حيوي لاولئك . وبالنسبة لبريطانيا يضاف الى عامل الضرورة الحيوية ، عامل نفساني عاطفي مجهول يساء تقديره . ان حرية الوصول الى البترول العربي حالة تفرضها المصالح البريطانية في الشرق الاوسط . ورعايا حكومة صاحبة الجلالة ما كانوا ليترددوا في التفاهم مع السوفيات بشأن مناطق النفوذ . لو كانت القضية قضية طاقة حرارية ، او مورد اقتصادي ، الا ان الامر هو اكثر من ذلك والسوفيات يريدون فرض ايديولوجية معينة على العالم :

ان سادة البيت الابيض يفكرون على ما يبدو مثل الانجليز بهـذا الخصوص . واعتقد ان اكثرية البريطانيين قد شعروا جيداً بضرورة انتهاج سياسة جديدة متحررة من الحنين الى حقبة حملت اسم لورانس . ان العرب الذين عرفـوا كيف يستغلون منبر الامم المتحدة ما انفكوا يذكرون الغرب بضرورة الاسراع في تبديل سياسته تجاههم .

ان ابقاء العملاق السوفيـاتي بأي ثمن ، بعيداً عن منابع بترول منطقة الخليـج العربي ، ذلك هو في اواسط القرن العشرين اهم

المشكلات التي يواجهها الغرب . والظهران القاعدة الاميركية في العربية السعودية ، وعدن والبحرين القاعدتان البريطانيتان المهددتان في شرقي وجنوبي الجزيرة ، لا تكفي كلها كمحطات تربط الستراتيجية العالمية، لاداء هذه المهمـــة . من الامجاد البريطانية السالفة لم يبق سوى مراكز مقلقة : يفضل الكثيرون من العقلاء الانجليز اخلاءها فوراً مقابل مكافآت اقتصادية . واليوم — ١٩٥٨ — تبدو الولايات المتحدة كأنها سجلت تقدماً في الجزيرة العربية . يجب ان نكون بسطاء اغبياء كثيراً لنعتقد ان هذا التقدم سيدوم . ان موسكو بفضل ما جنته في السنتين الاخيرتين تستطيع ان تبتسم بثقة واستعلاء من تجابن الانجلو — اميركيين الذين يتقاتلون فيما بينهم ؟

عندما يأكل الصدأ انابيب البترول

انه من الخطأ الفادح ان يبحث الكاتبُ الواقعَ الدولي وما يمكن ان يؤول اليه في صفحات قليلة.انه من المخاطرة هنا كما في مقالة صحفية، لذلك اريد ان اختتم كتابي بتقديم تنبؤات لا بد ان تفقد كل معناها في وقت ما . وفي نظر تاريخ الجزيرة العربية الحافـــل المجيد ليست السنوات القلائل الماضية الا فترة قصيرة جداً ؟

عنـــدما تصدأ الانابيب وتعود الرمال المنتصرة لتغطي اماكن الآبار وعندما يحل بعد عشرين او ثلاثين قرناً مورد آخر مكان البترول ؟ سيبقى مع ذلك دليل ابدي عن هذه الحقبة الاسطورية.ان هذه السنوات الانقلابية لا يمكن الا ان تترك اثاراً لها . وهذه مدن العربية السعودية في الجنوب ، واليمن ما زالت ماثلة امامنا تدل على ماضٍ مجيد ، لقد كانت مملكة سبأ فيما مضى تبيع البخور للعالم القديم . وفي مساء ما بينما كان الشفق يرخي على الرمال ظلال البشر والحيوانات المنهكين توقفت

الحركة الدائمة للقوافل الكبيرة الى الابد ، لأن العالم توقف عن شراء البخور : وهكذا ستهدأ وتخبو الحركة الدائمة لناقلات البترول العملاقة التي تمر ليل نهار امام الشواطىء القاحلة للعربية القديمة :

ولكن حتى يحدث ذلك يوماً لا بد ان تتغير اشياء كثيرة في العالم : فلنحمد الله :

١٨

مصالح الدول الكبرى في الجزيرة العربية

بريطانيا :

١ ــ اراض تحت الاشراف البريطاني :

مستعمرة عدن مع جزر بريم ، قران ، وكوريا موريا ، محمية عدن بما في ذلك حضرموت وجزيرة سوقطرة . روابط وثيقة مع سلطنة مسقط وعمان (ميثاق الصداقة والتجارة والملاحة) معاهدات حماية مع امارات شاطىء القراصنة ، وقطر ، والبحرين ، والكويت ، الشؤون الخارجية والدفاعية في هذه الامارات في يد بريطانيا .

٢ ــ قواعد استراتيجية :

الرئيسية ــ عدن والبحرين .
الثانوية ــ الشارقة ، مىراح ، صلالة .
محطات هبوط عديدة في كل من محمية عدن وجزر قران وسوقطرة.

٣ — امتيازات بترولية :

أ — شركة بترول العراق (الادارة وكبار الموظفين بريطانيون) الكل من الشركة البريطانيـــة للبترول وشركة رويال دوتش — شل ٢٣،٧٥٪ من الحصص .

ب — شركة البترول البريطانية الانجليزية الايرانية سابقاً (تسيطر عليها الامبرالية البريطانية) وتحتفظ به .

ج — شركة شل القطرية (شل ١٠٠٪) وتسيطر على :
امتياز في الحوض البحري مساحته ٢٥ الف كم .

فرنسا :

لا مصالح مباشرة

الامتيازات البترولية .

الشركة الفرنسية للبترول تملك ٢٣،٧٥٪ من شركة بترول العراق و ٣٣،٣٣٪ من امتيازات ظبي وأبو ظبي البحرية ، الى جانب شركة البترول البريطانية .

الولايات المتحدة :

١ — قواعد استراتيجية .
قاعدة جوية ذرية في الظهران (العربية السعودية)
قاعدة بحرية في البحرين .

٢ — الامتيازات البترولية :

أ — الشركة العربية الأميركية للبترول — ارامكو — وهي أميركية ١٠٠٪ في التركيب والادارة وجهاز الموظفين . مساحة امتيازها ٩٥٠ الف كيلومتر مربع في العربية السعودية ، يضاف اليها الامتياز البحري في

الجزر والحوض : تتألف من ستندارد كاليفورنيا ٣٠٪ تكساس اويل ٣٠٪ ستندارد نيوجرسي ٣٠٪ سكوني موبيلويل ١٠٪

ب – شركة بترول البحرين – بابكو – ويشمل امتيازها كل البحرين . تركيبها وادارتها اميركيان ١٠٠٪

ج – جيتي اويل امينويل (الشركة الأميركية المستقلة للبترول)

د – غولف اويل وتملك ٥٠٪ من بترول الكويت

ه – شركة تطوير الشرق الأدنى (ستندارد نيوجرسي ٥٠٪ وسوكوني موبيلويل ٥٠٪)

و – شركة تطوير اليمن ، اميركية ١٠٠٪

ز – ضفار سيتي سرفيس ، اميركية ١٠٠٪

الاتحاد السوفياتي :

بعثات بولونية ، تشيكوسلوفاكية ، المانية ، شرقية ، وروسية في اليمن ، اتفاقيات تزويد وبناء مصانع ، مرافىء وطرقات ، امكانية الاهتمام بالتنقيب عن البترول . صفقة اسلحة في تشرين الثاني سنة ١٩٥٦

مهندسون بولونيون في شؤون الخطوط الحديدية قدموا الى السعودية منذ عام ١٩٥٦ .

معاهدة صداقة يمنية – سوفياتية . اتفاقات اقتصادية وفنية : سوفياتية – يمنية : المانية ديمقراطية – يمنية . تشيكوسلوفاكية – يمنية .

اقامة علاقات دبلوماسية بين اليمن والاتحاد السوفياتي عام ٩٥٦ على اثر زيارة ولي العهد اليمني الأمير البدر الى موسكو :

حجاج مسلمون سوفياتيون في الحجاز لأول مرة بعد الحرب عام ١٩٥٥ واعلان العزم الذي لم ينفذ بشأن اقامة علاقات دبلوماسية بين العربية السعودية والاتحاد السوفياتي . دعوة سعود لزيارة موسكو اثناء مروره في القاهرة في اوائل عام ١٩٥٧

مراجع الكتاب

١ . اليمن (بالعربيـة) القاهرة ١٩٥٧ محسن العيني

٢ . نيلا استوريا—نيلا ليجندا (بالايطالية) روما ١٩٣٣ اتسالدي سيزار

٣ . ابن سعود أو ولادة دولة (بالفرنسية) باريس ١٩٥٥ بنوا ماشين

٤ . اليمن (بالفرنسية) باريس جان جاك بيربي

٥ . المستعمرات ومحمية عدن (بالفرنسية) باريس جان جاك بيربي

٦ . المملكة العربية السعودية في الشرق الاوسط المعاصر (بالفرنسية) باريس ١٩٥٧ جان جاك بيربي

٧ . السياسة البريطانية في الجنوب العربي (بالفرنسية) باريس ١٩٥٧ جان جاك بيربي

٨ . رحلة في اليمن (بالفرنسية) باريس ١٨٤١ بوتا بول اميل

٩ . الجامعة العربية (بالانجليزية) نيويورك ١٩٤٥—١٩٥٥ بطرس غالي

١٠ . اليمن والسعودية (بالفرنسية) باريس ١٩٣٧ بريموند ادوارد

١١ . تاريخ الشعوب الاسلامية (بالانجليزية) نيويورك ١٩٤٧ بروكلمان

١٢ . بريطانيا في الشرق الاوسط (بالانجليزية) لندن ١٩٥١ بولارد سير ريدر

١٣ . مدخل الى تاريخ العرب (بالفرنسية) باريس ١٨٤٧ كوسين دي برسفال

١٤ . عرب الصحراء (بالانجليزية) لندن ١٩٤٧ ديكيسون

١٥ . الصحراء العربية (بالفرنسية) باريس ١٩٤٩ دوكتي شارل

١٦ . فيزا الى البلاد العربية (بالفرنسية) باريس ١٩٥٧ فالك اندره

١٧ . مدخل الى اليمن (بالعربية) ١٩٤٧ عباس الفاروقي

١٨ . طبيبة فرنسية في اليمن (بالفرنسية) باريس ١٩٥٥ كلوداي فايان

١٩ . حرب البترول الباردة (بالفرنسية) باريس ١٩٥٦ بيار فونتين
٢٠ . السياسة الجديدة وراء البترول (بالفرنسية) باريس ١٩٥٧ بيار فونتين
٢١ . الرجال المجرمون (بالانجليزية) لندن ١٩٥٧ فوت مابكل
٢٢ : الشرق الادنى (بالفرنسية) باريس ١٩٥٧ ريموند فورون
٢٣ . مملكة ملكيور (بالانجليزية) لندن ١٩٤٩ هاميلتون
٢٤ . مملكة سبأ (بالفرنسية) باريس ١٩٣٦ هانز هلفريتز
٢٥ . تاريخ العرب (بالفرنسية) باريس ١٩٥٠ فيليب حتي
٢٦ : الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية في محمية عدن (بالانجليزية)
لندن ١٩٤٩ انكرامز . دورين
٢٧ . الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية في حضرموت (بالانكليزية)
لندن ١٩٣٦ انكرامز هارولد
٢٨ . العربية والجزيرة (بالانجليزية) لندن ١٩٥٢ انكرامز هارولد
٢٩ . البترول ملك العالم (بالفرنسية) باريس ١٩٤٩ رينه جوان
٣٠ . الاعمدة السبعة المنهارة (بالانجليزية) لندن ١٩٥٣ جون كيمش
٣١ . مصر تتحرك (بالفرنسية) باريس ١٩٥٦ جان وسيمون لاكوتور
٣٢ : أعمدة الحكمة السبعة (بالانجليزية) لندن لورانس
٣٣ : بعثة الى العربية الوسطى (بالفرنسية) باريس ١٩٥٦ فيليب ليبتيز
٣٤ : البترول في الشرق الاوسط (بالانجليزية) لندن ١٩٥٤ لونكريك همزلي
٣٥ . ترجمة القرآن الكريم (بالفرنسية) باريس ١٩٢٩ ادوارد موناه
٣٦ . المجموعة السنوية للعالم الاسلامي (بالفرنسية) باريس ١٩٥٦ ماسينيون
٣٧ . حضارة الصحراء (بالفرنسية) باريس ١٩٤٧ روبير مونتاني
٣٨ . العرب (بالفرنسية) باريس ١٩٥٧ فنساي مونتاي
٣٩ . سلطان عمان (بالانجليزية) لندن ١٩٥٧ جيمس موريس

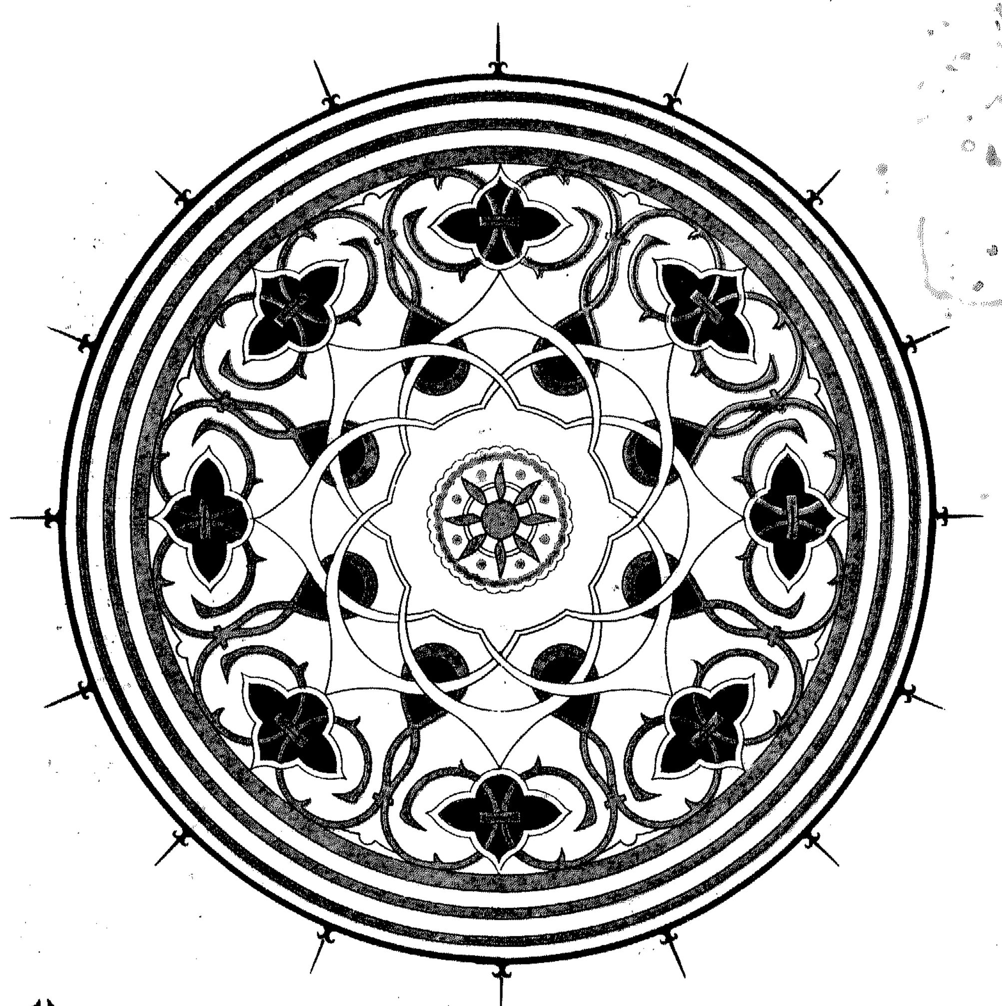
٤٠ : الخليج العربي (بالانجليزية) لندن ١٩٥٧ اوين رودريك
٤١ . رحلة سنة في العربية الوسطى (بالفرنسية) باريس ١٨٦٦ وليام بالكراف
٤٢ . الاسلام في العالم (بالفرنسية) باريس ١٩٥٠ ارثر بكرين
٤٣ . العربية السعودية (بالانجليزية) لندن ١٩٥٥ جون فيلبي
٤٤ . كتابان وسبأ (بالانجليزية) لندن ١٩٦٥ وندل فيليبس
٤٥ . الجزيرة العربية (بالانجليزية) لندن ١٩٥٤ ريشارد سنجر
٤٦ . في اليمن العليا (بالانجليزية) لندن ١٩٤٧ هيوغ سكوت
٤٧ : الخيام والحصون (بالانجليزية) نيويورك ١٩٥٢ روبير شيفار
٤٨ . بترول الشرق الاوسط (بالانجليزية) نيويورك ١٩٥٥ بنيامين شودراي
٤٩ . الشرق هو الغرب (بالانجليزية) لندن ١٩٤٦ ستارك فريا
٥٠ . تنظيم التعليم في الشرق الاوسط (بالفرنسية) باريس ١٩٥٦ توميش
٥١ . نهضة ائمة صنعاء (بالانجليزية) لندن ١٩٢٥ ارثور تريثون
٥٢ . البحرين والخليج العربي (بالانجليزية) لندن تويدي مورين
٥٣ . العربية السعودية (بالانجليزية) برنستون ١٩٤٧ تويتشل
٥٤ . عدن وحضرموت (بالانجليزية) لندن ١٩٤٧ فاندو مولين

المؤلفات الانسيكلوبيدية

٥٥ . دائرة المعارف البريطانية (الطبعة الثالثة عشرة)
٥٦ . دائرة المعارف الاسلامية ١٩٣٤
٥٧ . الكتاب السنوي لرابطة الشعوب البريطانية ١٩٥٣
٥٨ . الشرق الاوسط — نشرة المعهد الملكي للدراسات الدولية ١٩٥٤
٥٩ . الشرق الاوسط (الطبعة الخامسة) ١٩٥٧



فهرست



جزيرة العرب

دراسة سياسيّة جغرافيّة تاريخيّة شاملة عن شبه جزيرة العرب تتضمّن فصولاً في الحضارات العريقة التي نشأت في جنوب الجزيرة ووسطها حتى اكتشاف البترول في كافّة أنحائها وتسابق الدّول وتكالبها على استثمار الذهب الأسود ، وواقع الفرد العربي اليوم في مجتمع انتقل بين ليلة وضحاها من أدنى درجات الفقر حتى أعلى مراتب الغنى

منشورات
المكتب التجاري - بيروت
التوزيع للعراق
مكتبة المثنى - بغداد

الثمن :
٥ ل.ل.س